

رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة فكر المواجهة

(١٦)

الإسلام والحفاظ على البيئة

إشراف

الدكتور/ جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م

تقديم

أ.د/ جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد..

فقد بدأ الاهتمام بدراسات البيئة بعناصرها الثلاثة منذ وقت طويل، وإن ظلّت هذه الدراسات موزعة بين علوم كثيرة، مثل: علوم الطبيعة، والنبات، والحيوان، والاقتصاد. ولم تُجمع في إطار دراسات مكتملة عن البيئة إلا منذ وقت قصير نسبيًا لا يتجاوز الخمسين سنة.

وقد بدأ هذا الاهتمام الحديث بدراسات البيئة، بعد التلوث الكبير الذى تعرضت له البيئة فى شتى أنحاء العالم، سواء فى الماء، أو فى الأرض أو فى الهواء، حتى إن الإنسان ليصحو على شرور واسعة تسبب هو أولاً فى إحداثها بالبيئة، كما ينام كذلك على أضرار جمّة تنتج من تلوثها.

وقد اهتم رجال القانون باستحداث دراسات تتصل بقانون البيئة، سواء فى النطاق الدولى أو المحلى، وكما هو معلوم، فإن القانون يعنى بتنظيم العلاقات الاجتماعية، وبالظواهر التى يمكن أن تضر الإنسان؛ ليمنع الضرر، وليحدّ من الآثار السيئة على الإنسان، وعلى المحيط الذى يعيش فيه. وهذا القانون يجد مصادره فى اتفاقات دولية عُقدت فى أروقة الأمم المتحدة أو فى خارجها، تستهدف مكافحة التلوث وكل ما يسبب الضرر، وهى قوانين تحافظ على البيئة، وتعاقب على مخالفة قواعد الحماية التى تضعها بالعقاب الجنائى والمدنى على السواء.

ومن المعلوم أن فقهاء المسلمين قد تعرضوا للمستجدات التى تحدث فى حياتهم، وأنزلوا عليها القواعد والأدلة؛ ليصلوا إلى الحكم الشرعى لها بناء على «مسطرة علم الأصول».

إننا فى رابطة الجامعات الإسلامية نهتم بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية، لاسيما ما يخص البيئة، وطرح الرؤى والأفكار لبلورة أطر نظرية وموضوعية، ووضع الخطط والبرامج التى تكفل تضييق المسافة بين الواقع والمأمول، حيث قمنا بإصدار كتاب عن التحديات المتعلقة بالبيئة، أوضحنا فيه العديد من المشكلات البيئية المختلفة، وطرحنا فيه الرؤية الإسلامية الصحيحة لعلاج تلك المشكلات، وفى المؤتمر العام السابع للرابطة، والذى عُقد فى شهر إبريل ٢٠٠٤م بمدينة بيروت، أصدرنا الميثاق الإسلامى للبيئة.

ووفاءً بوعدنا، نقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب، الذى يُعد حلقة فى سلسلة متصلة لما تقوم به الرابطة لعلاج المشكلات البيئية المختلفة. وقد شارك فى إعداد هذا المؤَلَّف نُخبة من علماء رابطة الجامعات الإسلامية، من مصر والجزائر، والأردن، والمملكة العربية السعودية.

إن قضايا البيئة المختلفة تطرح نفسها على علماء الأمة الإسلامية فى الوقت الحاضر لمناقشتها؛ لأسباب يأتى فى مقدمتها سرعة التغييرات التى تحدث فى الكون وفى أحوال الناس. كما أن علماء المسلمين فى الوقت الحاضر تناولوا المشكلات المستحدثة فى الحياة، وعرضوها على أحكام الشريعة الإسلامية ومصادرها وأدلتها، التى اتفق عليها علماء أصول الفقه، وخلصوا إلى أحكامها الشرعية عن طريق الاجتهاد، وهكذا فإننا نطالب بعقد المزيد من المؤتمرات فى مجال الاجتهاد، حتى نستطيع مواكبة المستجدات على الساحة العالمية ومعالجتها من المنظور الإسلامى.

والواقع إن هذه البحوث كشفت عن آراء ومبادىء، بل وقواعد راسخة، تناولتها متون الكتب والمراجع العلمية الإسلامية (القديمة والحديثة) فى آن واحد، فقد تجلى عطاء الإسلام الحضارى فى حرصه على أن يغتسل الإنسان خمس مرات فى اليوم ليزيل الأدران الظاهرة والباطنة، فضلاً عن وضع ضوابط دقيقة فى الطهارة تكفل للمسلم

نظافته، ومثال ذلك أن رسول الله ﷺ مر على قبر، وبيّن لأصحابه أن صاحبه يُعذَّب وما يُعَذَّب فى كبير. «..كان لا يستبرأ من بوله». كما عنى الفقه الإسلامى عناية كبيرة بالطهارة سواء بالماء أم بالحجارة، فالمهم إزالة النجاسة، ويشترط لصحة الصلاة طهارة الجسم والثوب ومكان الصلاة، وهى شروط توضح كيف اهتم الإسلام بأن يعلم الناس ضرورة الاهتمام بنظافة البيئة بمختلف عناصرها: الأرض (طهارة المكان)، والإنسان (طهارة الجسم والثوب)، ثم الماء أداة الطهارة والنظافة. وتظهر كتب الفقه كيف عنى الإسلام بهذا العنصر، وكيف ميز الفقهاء بين أنواع المياه، وما يصلح منها للشرب والتطهر وما لا يصلح. كل هذا من أجل النظافة.

يسرنى أيضًا أن أقدم بحثًا موجزًا عن "**حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة**"، وفقًا لأحكام الشريعة الإسلامية والقانون الدولى فى بداية هذا المؤلَف.

يسرنى أيضًا أن أقدم مجموعة بحوث عرَّفت البيئة، وبينت ضرورة حمايتها وفقًا للمفهوم الإسلامى وهى: "**المفهوم الإسلامى للبيئة**" للأستاذ الدكتور/ على إبراهيم الزيات، "**وواجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية**" للدكتور/ محمود السيد داود. ثم أعرض لدراسة اجتهادية بعنوان: "**قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وتطبيقها فى المجال البيئى**" للدكتور/ على بن عبد الله عسيرى.

ويقدم لنا أ.د/ نبيل السمالوطى دراسة عن "**إشكالية البيئة والتنمية فى العالم الإسلامى**"، حيث يعرض لجوانب دولية تتعرض لمؤتمرات عقدت عن قمة الأرض وحماية البيئة، كما تعرض لجوانب اجتماعية مهمة فى هذه القضية، وفى هذا الإطار يقدم هذا الكتاب لقضية "**تنمية البيئة وحمايتها من منظور إسلامى تربوى**" للأستاذ الدكتور/ مصطفى رجب.

ولما كان للبيئة الآن مفهومها الواسع، فإننى أقدم كذلك دراسة عن "**الملوثات الفكرية للبيئة**" للدكتور/ عمار جيدل، ودراسة عن "**الماء**" كعنصر للحياة على الأرض، وما ينبغى أن يحاط به من واجبات وتدابير للأستاذ/ أحمد على سليمان.

إن جوانب الدراسات البيئية كثيرة ومهمة الآن، وإن الرابطة ليسعدها أن تقدم هذه الدراسة عن البيئة، لكى تضاف إلى دراسة أخرى سبق لها أن أصدرتها منذ عدة سنوات، كذلك يسعدنى أن أنشر فى هذا الكتاب "**الإعلان الإسلامى لحماية البيئة**"، والصادر عن المؤتمر العام السابع لرابطة الجامعات الإسلامية.

وآمل أن تنجح الرابطة فى تقديم المزيد من الدراسات التى تهتم ببيان الحكم الشرعى للظواهر التى تستجد فى حياتنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

* * *

حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة

بقلم: أ.د / جعفر عبد السلام(*)

مقدمة

تهتم الدول والمجتمعات الإسلامية عن طريق مؤسساتها الدينية بالاجتهاد؛ لإيجاد الأحكام الشرعية لما يحدث ويستجد للناس من أمور فى مختلف شئون حياتهم، لذا لم يكن غريباً أن تعقد مؤتمرات وندوات تعالج قضايا التجديد فى الفكر وفى الفقه الإسلامى، وأذكر منها مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى عقد فى مايو ٢٠٠١م، ومؤتمر جامعة اليرموك الذى عقد فى نفس العام، وكذا مؤتمراً عقد فى دار الحديث الحسنية عن الاجتهاد فى القضايا المستحدثة فى نفس العام. ومن هذه المؤتمرات الثلاثة انبعثت فكرة هذا المؤتمر الهام. لقد كلفت رابطة الجامعات الإسلامية بتنظيم مؤتمر عن "**الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران**"؛ لمعالجة مختلف المستحدثات المتعلقة بالصحة والبيئة والعمران فى العصر الحديث.

وها نحن نجتمع اليوم استجابة لهذا التكليف ولعل هذا المؤتمر يسد فراغا فى الفقه وفى تشريعات الدول الإسلامية.

ولقد اخترت الكتابة فى موضوع يتصل بالاجتهاد فى قضايا حماية البيئة من التلوث، ورأيت أن الأحكام والمبادئ الموجودة فى القانونيين الدولى والداخلى، وكذلك فى الشريعة الإسلامية، يمكن أن تبلور حقا جديداً للإنسان فى العيش فى بيئة صحية مناسبة.

لقد قدمت الثورة الفرنسية للمجتمع الأوروبى فى العصر الحديث، وعلى وجه التحديد فى بداية القرن التاسع عشر، الطائفة الأولى لحقوق الإنسان والتى تبين أنها لا تتطلب من الدولة سوى السماح للفرد بحرية العمل وحرية التصرف دون تدخل منها يفسد التمتع بالحقوق الفردية وممارستها. وبعد الحرب العالمية الثانية قدمت الأمم المتحدة للعالم العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية فى نفس العام ١٩٦٦م والعهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. كما بذلت جهود كبيرة طوال القرن العشرين من قبل

(*) أستاذ القانون الدولى بجامعة الأزهر، الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية.

الأمم المتحدة والأجهزة واللجان العديدة التى شكلتها لبلورة حقوق الإنسان وإحالتها من مبادئ عامة إلى قواعد قانونية محددة تصلح للتطبيق، ويجازى من يخالف أحكامها. كما تقدمت جهود الأمم المتحدة فى مجال التطبيق الفعلى للحقوق والحريات التى تضمنتها الوثيقة، وعلى وجه الخصوص فى مجال تطبيق حق تقرير المصير على الأقاليم التى كانت مستعمرات سابقة، وتحررت العديد من الدول فى آسيا وإفريقيا بفضل هذه الجهود.

على أن التطورات العديدة التى شهدتها الإنسانية على مدى هذا القرن قد غيرت الواقع وأثرت فى أسلوب الحياة، وأوجدت حقائق جديدة لا يمكن تجاهلها بالنسبة لممارسة الحقوق التقليدية التى تضمنتها الوثائق والدساتير الخاصة بمختلف الدول، ومن ثم كان الاهتمام بإيجاد جيل ثالث من أجيال حقوق الإنسان هى ما عرف اصطلاحا بحقوق التضامن، تلك الحقوق التى لا يمكن أن تمارس إلا بشكل جماعى من ناحية، والتى لا يمكن لدولة واحدة من الدول النامية أن تمارسها بمفردها وإنما تتطلب تضامن الدول فى المجتمع الدولى لكفالة تلك الحقوق لجميع الشعوب، وقد أعلن الميثاق الأفريقى لحقوق الإنسان هذه الحقوق، وفى مقدمتها: حق الشعوب فى السلام، وحقها فى التنمية وحقها فى بيئة صحية مناسبة.

وسوف نقسم دراستنا إلى قسمين: نتناول فى القسم الأول، حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة من منظور قانونى. ونعالج فى القسم الثانى ذلك الحق من منظور الشريعة الإسلامية.

ولا شك أن الشريعة الإسلامية الغراء قد سبقت إلى تقرير هذه الحقوق للإنسان، حيث تضمنت النصوص الصريحة فى القرآن والسنة مجمل منظومة الحقوق والواجبات التى نعالجها الآن، ويمكن أن نطورها ونفصلها بالاستنباط من النصوص الصريحة ومن الممارسات العملية التى تضمنتها كتب السير والمغازى والتاريخ الإسلامى بشكل عام.

ولابد أن نعترف بأنه قد مضى وقت طويل لم يتناول فيه الفقه الإسلامى القضايا الجديدة، ومنها قضايا الصحة والبيئة والعمران وهى مجالات مهمة لحياة الإنسان وربما لم تكن ملحة مثل الآن.

ولعل الجمع بين ثلاث مؤسسات مهمة تهتم جميعها بشئون المسلمين وبالاجتهاد فى قضاياهم المعاصرة يسد فراغاً ملموساً فى الفقه الإسلامى وهذه المؤسسات هى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة " الإيسيسكو" ورابطة الجامعات الإسلامية وجامعة اليرموك والتى بذلت جهوداً كبيرة فى هذا المجال يكمله هذا المؤتمر إن شاء الله.

والله ولى التوفيق،

القسم الأول
حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة من منظور قانونى

أولا: حقوق التضامن

أعلنت العديد من المواثيق الدولية طائفة جديدة من حقوق الإنسان هى ما يعرف بحقوق التضامن على أساس أنها تمثل الجيل الثالث من أجيال حقوق الإنسان، باعتبار أن الجيل الأول يمثل الحقوق اللصيقة بشخصية الإنسان والتى لا يمكن أن يحيا حياة كريمة بدونها، وأول هذه الحقوق هو حق الإنسان فى الحياة، ثم حقه فى الحرية وحقه فى سلامة شخصه، ثم حقه فى التقاضى وما يتفرع عنه من حقوق أخرى تثبت للشخص عند اتهامه بجريمة معينة، أو عند لجوئه للقضاء، مثل حقه فى أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة، واعتبار المتهم بريئا حتى تثبت إدانته قانونا عن طريق محاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع، إلى آخر هذه الطائفة الواسعة من الحقوق الإنسان. وقد ربط فريق من الفقه الفرنسى هذه الحقوق بالمبدأ الأول من مبادئ الثورة الفرنسية وهو " الحرية "، فهى حقوق لا تحتاج فى قيامها لتدخل الدولة، بل العكس، إنها تحتاج إلى عدم تدخلها إلا لضبط ممارستها ومنع التعرض للأفراد فى التمتع بها.

والجيل الثانى لحقوق الإنسان يمثل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، تلك الحقوق التى تحتاج إلى تدخل إيجابى من الدولة بهدف تقديم خدمات وتهيئة مناخ يتيح للأفراد أن يتمتعوا بهذه الحقوق، فالدولة تساعدهم بشكل جدى فى التمتع بهذه الحقوق وممارستها. وأول هذه الحقوق هو حق العمل. وهو يعنى "حق الدول الأطراف فى العهد الحالى فى العمل الذى يتضمن حق كل فرد فى أن تكون أمامه فرصة كسب معيشته عن طريق العمل الذى يختاره أو يقبله بحرية. وتتخذ هذه الدول الخطوات المناسبة لتأمين هذا الحق"[1].

ولا أدل من ضرورة التدخل الإيجابى للدولة لنيل هذا الحق مما ورد فى الفقرة الثانية من المادة السادسة من العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، من أنه: " تشمل

(١) راجع للمؤلف: القانون الدولى لحقوق الإنسان، الدار اللبنانية للطباعة والنشر ـ القاهرة - طبعة ٢٠٠٠م ص٤ وما بعدها.

الخطوات، التى تتخذها أى من الدول الأطراف فى العهد الحالى للوصول إلى تحقيق كامل لهذا الحق، وبرامج وسياسات ووسائل للإرشاد والتدريب الفنى والمهنى من أجل تحقيق نمو اقتصادى واجتماعى وثقافى مطرد، وعمالة كاملة ومنتجة فى ظل شروط تؤمن للفرد حرياته السياسية والاقتصادية ".

والحق الثانى فى هذه الطائفة من الحقوق هو حق الفرد فى الضمان الاجتماعى.

والحق الثالث هو حق الفرد فى مستوى معيشى مناسب لنفسه ولعائلته بما فى ذلك الغذاء المناسب والملبس والمسكن.

ويدخل فى هذه الطائفة من الحقوق الحق فى التعليم وفى الثقافة، والحق فى الحياة فى ظل أسرة قويمة، إلى غير ذلك من الحقوق التى نجد تفصيلا واسعا لها فى العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٦٦م.

ويهمنا فى هذه الورقة أن نركز على الجيل الثالث من أجيال حقوق الإنسان أو ما يعرف بحقوق التضامن، وتتميز هذه الحقوق بما يلى:

١ - أنها تحتاج إلى التعاون بين مختلف الدول والشعوب لضمان قيامها ولكفالة تمتع الأفراد بها. وهكذا نرى أن جهود الدولة وحدها لا يمكن أن توفرها، بل يجب أن تتضافر الجهود الدولية لكفالتها. ونقصد بالجهود الدولية هنا جهود الدول والمنظمات الدولية، وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة، بل والمنظمات الإقليمية كذلك.

٢ - أنها تفترض تعاونا كبيرا، ونوعاً من التكافل بين الأسرة الدولية، أى إنها تفترض تخلى الدول عن سلبيتها وعيش كل واحد منها داخل حدودها، وذلك يفرض تغييرا فى بناء القانون الدولى التقليدى وأهدافه، فلم يعد مقبولا أن يكون هدف القانون الدولى مجرد إبعاد الدول عن بعضها البعض حتى لا تتحارب، بل إن هدفه الآن هو تقريب الدول من بعضها البعض حتى تتعاون وتحقق المصالح المشتركة فيما بينها [1].

(١) راجع للمؤلف، الإطار القانونى للتنمية الاقتصادية ـ مركز البحوث والتنمية، جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة ـ طبعة ١٩٧٧م ص١٠٣ وما بعدها.

٣- أن هذه الطائفة الجديدة من الحقوق تتطلب الاعتراف بالدول النامية أو دول العالم الثالث كأشخاص قانونية تحتاج إلى حماية خاصة، ذلك أنها الآن الطرف الضعيف فى العلاقات الدولية. وبالتالى لا يمكن إقرار قواعد عامة تطبق على كل الدول فى المجالات التى تتعلق بحقوق التضامن.

ولشرح هذه المسألة نقول إن هناك هوة واسعة فى الدخول بين مجموعة الدول المتقدمة ومجموعة الدول النامية. فالدول المتقدمة وعددها فى العالم حوالى ١٨ تحصل تقريبا على ٨٠٪ من إجمالى الدخل العالمى، بينما باقى الدول وهى أكثر من ١٨٠ دولة تحصل على الباقى وهو ٢٠٪. ويصاحب الفقر المنتشر فى الدول النامية أشد أعداء الإنسانية وهى الجهل والمرض. وبالتالى فهى تحتاج إلى قواعد للتعامل تراعى ظروفها فى العلاقات الدولية (١).

وقد بدأت تتكون قواعد دولية فى مجال توزيع التراث المشترك للإنسانية من ثروات أعالى البحار، تقرر امتيازات خاصة للدول النامية وحصولها على نصيب من الثروات غير الحية مثلا، ولو لم تكن لديها القدرات على الاستغلال الفنى لهذا التراث. كما بدأت توجد قواعد تميز لصالحها فى التجارة الدولية بفرض حماية خاصة لأسعار المواد الأولية التى تتخصص فى إنتاجها وبتشجيعها على إقامة الاتحادات التجارية والتكتلات الاقتصادية لهذا الخصوص.

٤- أن هذه الحقوق تحتاج إلى تقديم مساعدات من الدول الغنية إلى الدول الفقيرة. وهذه المساعدات يجب أن تشمل:

أ- تدفق نقدى من أموال الدول الغنية إلى الدول الفقيرة بما لا يقل عن ١٪ من دخل الدول الغنية، كما ورد فى أكثر من توصية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

ب- مساعدات فنية للدول النامية لإقامة مشروعات البنية الأساسية والإسراع بجهود التنمية فيها، حتى تستطيع أن تنتج الغذاء والكساء والدواء الذى تحتاج إليه شعوبها.

(١) للمؤلف، المرجع السابق ص٧٧ وما بعدها.

جـ- مساعدات عن طريق التجارة وهى كثيرة، منها تسعير منتجاتها من المواد الأولية تسعيراً عادلا، وإزالة القيود المفروضة على تصدير منتجاتها إلى الدول الغنية، وعدم إغراق أسواقها بمنتجات تنافس منتجاتها. وبالجملة يجب ألا تخضع الدول النامية لقواعد المساواة والمنافسة الحرة فى المجال التجارى الدولى لأن المساواة هنا لا تكون بين متكافئين، وبالتالى تحمل الدول النامية مسئوليات لا تقدر على الوفاء بها.

ثانيا: الحق فى بيئة صحية سليمة فى منظومة حقوق التضامن

تضمن الميثاق الأفريقى لحقوق الإنسان والشعوب سبقا عن المواثيق الدولية الأخرى فيما يتصل بحقوق التضامن، ربما لظروف القارة الأفريقية التى يسود فيها التخلف الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، وما تفرضه هذه الظروف من الحاجة إلى التضامن والتعاون الدوليين لتنمية القارة الأفريقية، ولكفالة التمتع بمختلف الحقوق والحريات المقررة فى المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، سواء الفردية أو الجماعية. ويتضح ذلك مما جاء فى ديباجة " الميثاق الإفريقى لحقوق الإنسان والشعوب ". فقد جاء به أن الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الأفريقية إذ تؤكد مجدداً تعهدها الرسمى الوارد فى المادة (٢) من الميثاق بإزالة جميع أشكال الاستعمار من إفريقيا، وتنسيق وتكثيف تعاونها وجهودها لتوفير ظروف حياة أفضل لشعوب إفريقيا، وتنمية التعاون الدولى، آخذة فى الحسبان ميثاق منظمة الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان.. وإذ تعرب عن اقتناعها بأنه قد أصبح من الضرورى كفالة اهتمام خاص للحق فى التنمية، وبأن الحقوق المدنية والسياسية لا يمكن فصلها عن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..". وقد صاغ الميثاق حقوق التضامن على النحو الآتى:

مادة (٢٠):

١- لكل شعب الحق فى الوجود، ولكل شعب حق مطلق وثابت فى تقرير مصيره، وله أن يحدد بحرية وضعه السياسى، وأن يكفل تنميته الاقتصادية والاجتماعية، على النحو الذى يختاره بمحض إرادته.

٢- للشعوب المستعمرة المقهورة الحق فى أن تحرر نفسها من أغلال السيطرة باللجوء إلى كافة الوسائل التى يعترف بها المجتمع الدولى.

٣- لجميع الشعوب الحق فى الحصول على المساعدات من الدول الأطراف فى هذا الميثاق، فى نضالها التحررى ضد السيطرة الأجنبية، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية.

مادة (٢١):

١- تتصرف جميع الشعوب بحرية فى ثرواتها ومواردها الطبيعة، ويمارس هذا الحق لمصلحة السكان وحدهم. ولا يجوز حرمان شعب من هذا الحق بأى حال من الأحوال.

٢- فى حالة الاستيلاء على أموال الشعوب من ألاستعمار، يكون للشعب الذى تم الاستيلاء على ممتلكاته الحق المشروع فى استردادها وفى التعويض الملائم.

٣- يكون التصرف الحر فى الثروات والموارد الطبيعية دون مساس بالالتزام بتنمية تعاون اقتصادى دولى قائم على أساس الاحترام المتبادل والتبادل المنصف ومبادئ القانون الدولى.

مادة (٢٢):

١- لكل شعب من الشعوب الحق فى تنميته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مع الاحترام التام لحرية الشعوب وذاتيتها والتمتع المتساوى بالتراث المشترك للجنس البشرى.

٢- من واجب الدول بصورة منفردة أو بالتعاون مع الآخرين ضمان ممارسة حق التنمية.

مادة (٢٣):

١- للشعوب الحق فى السلام والأمن على الصعيدين الوطنى والدولى وتحكم العلاقات بين الدول ومبادئ التضامن والعلاقات الودية التى أكدها ضمنيا ميثاق الأمم المتحدة، وأكدها مجدداً ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية.

مادة (٢٤):

لكل الشعوب الحق فى بيئة مُرْضية وشاملة وملائمة لتنميتها.

وهكذا بين الميثاق حقوق الشعوب أو حقـوق التضامن ويهمنا منها ما جاء فى المادة ٢٠/ ٣ من تقـرير حق الشعـوب فى الحصـول على المساعـدات من الدول الأطراف فى الميثاق، وحـقها فى الكفاح ضد السـيطرة الأجنبية سواء أكـانت سياسية أم اقـتصادية أم اجتـماعـية، وحقـها فى السيـادة الدائمة على مـواردها الطبيـعية وفى اسـترداد مـا سلبه الاستعمـار منها والتعويض عنه. كذلك قـرر الميثاق حقين هامين همـا الحق فى التنمية، والحق فى بيئة مرضية شاملة وملائمة لتنميتها.

وقد أقـرت الأمم المتحدة فى العديد من إعـلاناتها ومؤتمراتهـا الحق فى بيئة صحـية سليمة ومـناسبة، وكذلك سائر حـقوق التضامن. وقـد أوردنا هذا الحق فى الإطار العام الذى جاء فيه حيث تم الربط بينه وبين حقوق الشعوب فى حياة كريمة بشكل عام، وفى التنمـية الاقتـصادية والاجـتمـاعية وفى العـيش فى سلام تام والتـحرر من الاسـتعـمار والهيمنة الاقتصادية [1].

ثالثا: الأساس القانونى للحق فى بيئة صحية

نسـتطيع أن نجد أن أسـاس هذا الحق الجـديد، فى العديد مـن الحقـوق التى أقرتهـا القوانين والعـهود والمواثيق الدولية. فهناك إجـماع على كفالة حق الفـرد فى الحياة وفى سلامـة بدنه وجسده، ولا يمكن للإنسان الـتمتع بهذا الحق إلا إذا عـاش فى بيئة صحـية سليمة، إذ أن تلوث البيئة بصوره المختلفة وعناصره التى تنال من سلامة الهواء أو الماء أو الطعام بشكـل عام، لا يمكّن الإنسان من ممارسـة حقه فى الحـياة وفى سـلامة بدنه على الوجه الأكمل، وذلك يجـعل سلامة البيئـة مسألة ضرورية للتمـتع بالحق فى الحياة وفى سلامـة الجسـد. وكذلك نجـد أن الإعلان العـالمى لحقـوق الإنسان والعـهدين الدوليـين للحقوق الاقـتصادية والاجتمـاعية وللحقوق المدنيـة والسياسية وهى وثائق تتـمتع بقوة إلزام واضحة، تقـرر مجموعة مـن الحقوق المتصلة بالبيـئة الصحية، مـنها: حق الفرد فى مستـوى معيشى مناسب لنفـسه ولعائلته بما فـى ذلك الغذاء المناسب والملبس والمسكن،

---

(١) راجع للمؤلف، المنظمات الدولية، الطبعة السادسة ١٩٩٦م دار النهضة العربية، ص٩٠ وما بعدها.

وكذلك حقه فى تحسين أحواله المعيشية بصفة مستمرة، ذلك ما نصت عليه (المادة ١١) من العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. كذلك قررت هذه المادة فى فقرتها الثانية ما يلى:

١- تقر الدول الأطراف فى العهد الحالى بحق كل فرد فى مستوى معيشى مناسب لنفسه ولعائلته، بما فى ذلك الغذاء المناسب والملبس والمسكن، وكذلك له حق فى تحسين أحواله المعيشية بصفة مستمرة. وتقوم الدول الأطراف باتخاذ الخطوات المناسبة لضمان تحقيق هذا الحق، مع الإقرار بالأهمية الخاصة للتعاون الدولى القائم على الرضاء الحر فى هذا الشأن.

٢- تقوم الدول الأطراف فى العهد الحالى، إقراراً منها بالحق الأساسى لكل فرد فى أن يكون متحرراً من الجوع، منفردة أو من خلال التعاون الدولى، باتخاذ الإجراءات بما فى ذلك البرامج المحددة والتى تعتبر ضرورية.

(أ) من أجل تحسين وسائل الإنتاج وحفظ وتوزيع الأغذية، وذلك عن طريق الانتفاع الكلى من المعرفة التقنية والعلمية المعرفة بمبادئ التغذية وبتنمية النظم الزراعية أو إصلاحها، بحيث يحقق ذلك أكبر قدر من الكفاءة فى التنمية والانتفاع من الموارد الطبيعية.

(ب) من أجل تأمين توزيع عادل للمؤن الغذائية فى العالم تبعا للحاجة، مع الأخذ بعين الاعتبار مشاكل الأقطار المستوردة للأغذية والمصدرة لها.

والمادة (١٢) من هذا العهد ذات أهمية كبيرة فى شأن تقرير حق الإنسان فى الحياة وفى بيئة صحية مناسبة، فقد نصت على:

١- تقر الدول الأطراف فى العهد الحالى بحق كل فرد فى المجتمع فى الحصول على أعلى مستوى ممكن من الصحة البدنية والعقلية.

٢- تشمل الخطوات التى تتخذها الدول الأطراف فى العهد الحالى للوصول إلى تحقيق كلى لهذا الحق ما هو ضرورى من أجل:

(أ) العمل على خفض نسبة الوفيات فى المواليد وفى وفيات الأطفال، من أجل التنمية الصحية للطفل.

(ب) تحسين شتى الجوانب البيئية والصناعية.

(ج) الوقاية من الأمراض المعدية والمتفشية والمهنية ومعالجتها.

(د) إتاحة المناخ والظروف التى تؤمن الخدمات والعناية الطبية فى حالة المرض.

رابعا: القانون الدولى للبيئة[1]

إن التطورات التى جرت فى الواقع فى مجال البيئة وتلويثها، قد أظهرت بوضوح أهمية إقرار هذا الحق، حق الحياة فى بيئة صحية مناسبة بشكل قوى، حتى إن فرعا جديدا من فروع القانون الدولى بدأ فى التكوين الآن أطلق عليه مصطلح " القانون الدولى للبيئة " وهو يستهدف تبنى مجموعة من القواعد والمبادئ الملزمة للدول والأفراد لتجنب تلوث البيئة بعناصرها الثلاثة الأرض والهواء والمياه. وهى تنظر بعين الاعتبار إلى اتساع ثقب الأوزون بسبب الغازات التى تصل إليه من الاستخدامات الصناعية للغازات السامة، وبأسباب تلويث البحار بالزيت، ووضع مواد عضوية فى المياه، وغير ذلك من وسائل التلوث.

ولسنا هنا فى مجال التوسع فى شرح هذا القانون، ويكفى أن نقول إن كل الدول الآن تضع فى تشريعاتها نصوصا تحمى البيئة وتمنع الإنسان من تلويثها. كما أشير إلى أن لجنة القانون الدولى قد جعلت الإساءة إلى البيئة بأى شكل من قبيل الجرائم الدولية التى يجب أن تتضافر جهود المجتمع الدولى، ليس لمنعها فحسب، بل للمعاقبة على القيام بها.

والحق كما هو معلوم مصلحة للشخص يحميها القانون. ومصلحة الإنسان فى أن يعيش فى بيئة صحية مناسبة من أقوى المصالح فى القوانين الدولية والداخلية على حد سواء، وذلك للأسباب الآتية:

١ - إنه لا يمكن أن يحافظ الإنسان على حياته سليما معافى إلا إذا قرر له هذا الحق، ومعلوم أن الحق فى الحياة هو جوهر حقوق الإنسان، وقوام التمتع بها.

---

(١) راجع تفصيلات ذلك: الدكتور صلاح الدين عامر، القانون الدولى للبيئة، القاهرة - دار النهضة العربية طبعة ١٩٩٧م ص٣ وما بعدها.

٢- إن الحق فى بيئة صحيـة يستند إلى حق الإنسـان فى سلامة جسده وهو بدوره أحق الحقوق الرئيسية للعيش فى أمان وارتياح.

٣- إن القوانين الدولـية والداخلية تولى عنايـة فائقة بسـلامة البيـئة التى يعـيش الإنسان فيهـا، ومن ثم فإن هذه القوانين قد أنتجـت حقا جديدا نسبـيا للإنسان فى أن تكون البيئة التى يعـيش فيها بيئة صـحية صالـحة. ووردت تفصيـلات واسعة لهذا الحق فى المواثيق والإعلانات الدولية الحديثة الصـادرة عن الأمم المتحدة وعن منظمة الصحة العالمية، وكـذا عن الإعلانات العديدة التى صدرت فى المؤتمرات التى تعـالج شئون الأرض والبيئة والصـحة بشكل عام. لذا نستطيع أن نؤكد من الوجهـة القانونية أننا بصدد حق يسانده القانون للإنسان فى أن يعيش فى بيئة صحية مناسبة.

ونحن نركز هنا على أن لكل حق بالضرورة وسائل لكفالة تحقيقه للإنسان ولحمايته من أى مسـاس به. وقد وجدنا قـوانين عديدة للبـيئة فى داخل جـميع الدول المتحـضرة تتذرع بالقـانون الجنائى لتجـريم المساس بالبـيئـة، مثل القانون الجنائـى المصرى، ونفس الوضع فى القانون الدولى حـيث اعتبـر الاعتداء الجـسيم على البيئـة باستخـدام أسلحة محظورة أو باستـخدام الأسـلحة التـقليديـة بشكل يسىء إلى البـيئـة من قبل الجـرائم الإرهابية فى تقنين لجنة القانون الدولى وكذلك فى كافة الاتفاقيات الحديثة التى جرمت الإرهاب.

وهكذا يستطيع الشخص العادى " الإنسان " أن يلجأ إلى سلطة القانون كلما احتاج إلى حمـاية حقه فى الحيـاة فى بيئة صـحية مناسـبة، فيطلب من الدولة منع المسـاس بهذا الحق، ويطلب عقاب المسىء فى نفس الوقت [1].

(١) دكتـور محمـود العادلى، موسـوعة حمـاية البيئـة، دار الفكر الجامعى الإسكندرية ٢٠٠٣م ص٢٣ ص٣٠ وما بعدها. وراجع للدكتور محمد بركات، الإسلام والبيئة، طبعة ٢٠٠٣م ص٥٠ وما بعدها.

القسم الثانى

حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة فى الشريعة الإسلامية

موقف الإسلام من البيئة:

حرصت الشريعة الإسلامية على أن يحيا الإنسان فى بيئة صحية مناسبة، ووضعت العديد من القواعد والمبادئ التى تكفل سلامة البيئة وحمايتها من العبث.

(١) فمن ناحية خلق الله - سبحانه وتعالى- الإنسان فى أحسن تقويم، وزوده بقدرات فائقة على الحياة السليمة، وكرمه على سائر المخلوقات.

ولاشك أن ذلك يقتضى من الإنسان الرشيد أن يحافظ على ما أعطاه الله حتى يعيش سليما معافى، قادراً على العمل وعلى الإنتاج، ومتمتعا بما أعطاه الله له، ولن يتحقق له ذلك إلا بالحفاظ على البيئة التى يعيش فيها، وبوقاية نفسه من أية أضرار تحدث فيها، وكذا بالمسارعة بالعلاج كلما اقتضى الأمر ذلك. يقول الحق - سبحانه وتعالى-: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]

(٢) ومن ناحية أخرى أشار القرآن الكريم إلى التوازن البيئى، وإلى خلق الكون بشكل هندسى رائع وسليم، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣،٤]

ولأن البيئة هى المهد والفراش والموطن والسكن والحياة للإنسان، فقد سخرها الله له وزودها بكل مقومات الحياة الآمنة الصحية السليمة، ونرى أكثر من آية تشير إلى هذا التوازن الدقيق وإلى ما زود الله به الأرض من معايش لحياة الإنسان، وإلى ما أرشده لحمايتها والإبقاء على توازنها. وسنورد بعضا من هذه الآيات: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾[الرعد: ٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحجر: ١٩، ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾[طه: ٥٣، ٥٤] . [وغير هذا كثير.

وكل الآيات تؤكد ما خلقت عليه الأرض من توازن دقيق يجعلها صالحة تماما لحياة الإنسان، كما يحميها هى نفسها، ولصالح الإنسان والكائنات التى تعيش فيها، من فقدان اتزانها، فقد أرسى الله فيها الجبال أوتاداً ثوابت تحفظ لها توازنها وتحمى مناخها الطبيعى ليستمر صالحا للحياة بما أنشأ الله سبحانه وتعالى فيها من نبات وغابات وحدائق تضخ الأوكسجين اللازم للتنفس، وتمتص ثانى أكسيد الكربون المدمر للحياة.

(٣) وقد نبهنا القرآن الكريم كذلك إلى أن الفساد سيعم الأرض بما كسبت أيدى الناس. يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة الروم﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]. ولعل ذكر هذه الآية فى سورة الروم له دلالته فى أن الغرب هو الذى سيحدث هذا الفساد، لذا طلب القرآن الكريم من البشر أن يمتنعوا عن إحداث الفساد حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأعراف: ٥٦].

تنظيم الفقه الإسلامى لشئون البيئة

من المقرر أن الأحكام الشرعية ملزمة، باعتبارها خطاب الله تعالى المتعلق بأحكام المكلفين، على الأقل فى الإيجاب والنهى. ونجد أن الشريعة الإسلامية تهتم اهتماما بالغا بالعبادات وتجعل أحكامها ملزمة على وجه الإجمال.

وأول هذه العبادات هى الصلاة، وتعتبر من أهم العبادات التى أفردت لها كتابات واسعة فى كل المذاهب الإسلامية، فكافة المذاهب تجعل أداء الصلوات الخمس فى مواقيتها مستكملة الأركان والشروط هى الدعامة الأولى التى بنى عليها الإسلام: " وكم فى هذه العبادة ووسائلها من منافع للناس، ففى التزام العبد بطهارة بدنه وثوبه ومكانه، وفى تحرزه عن الأنجاس والأقذار تعويد له على النظافة، وهو وسيلة إلى سلامة حواسه "[1].

فالمسلم بمقتضى هذه العبادة يغتسل خمس مرات فى اليوم، يغتسل من الذنوب ومن الأقذار، فهل يتبقى بعد ذلك من درنه شيء، كما يقول رسولنا، صلى الله عليه وسلم.

كتاب الطهارة

وإذا كانت عناصر البيئة هى المياه والهواء والأرض، فإن معالجة الإسلام للمياه لتدلنا على الأهمية البالغة للبيئة فى الفكر والفقه الإسلامى على السواء. فالناس شركاء فيها وتلك الشراكة تقتضى أن يكون استخدامها للجميع دون أن يكون من حق أحد أن يحتكرها أو يمس منفعتها المقررة للكافة. وكذلك تمنع هذه الشراكة أى إساءة للمياه من قبل الفرد أو الجماعة.

وبالإضافة إلى ذلك وحرصا على صحة الإنسان وتحقيقا لنظافته الكاملة، نجد الفقهاء يتحدثون كثيرا عن المياه، من خلال كتاب الطهارة الذى نجده فى مقدمة كافة كتب الفقه الإسلامى.

والطهارة عند الفقهاء قسمان: طهارة من الحدث وهى تختص بالبدن، وطهارة من الخبث وهى تتعلق بالبدن والثوب والمكان.

والطهارة من الحدث تكون بالغسل من " الحدث الأكبر "، وبالوضوء من " الحدث الأصغر ". والطهارة من الخبث قسمان: أصلية وهى القائمة بالأعيان الطاهرة بأصل خلقتها، وعارضة وهى التى تحصل باستعمال المطهرات المزيلات لحكم الخبث من ماء وغيره.

---

(١) راجع مقدمة الطبعة الأولى لكتاب الفقه على المذاهب الأربعة كتبها الشيخ عبد الوهاب خلاف ـ القاهرة ١٩٢٨م.

وهكذا نجد معالجة شاملة للبيئة الصحية للإنسان توجب عليه أن يكون نظيفا فى بدنه وفى ثوبه وفى المكان الذى يعيش فيه، وتلك القواعد الفقهية ملزمة وواضحة كما قلت فى كل كتب الفقه الإسلامى.

وأداة التطهر هى المياه، وهناك أحكام تفصيلية تتصل بصيانتها والحفاظ عليها فى كل كتب الفقه، بل نجد تفصيلات تتصل بما يغير المياه ويجعلها غير صالحة لنظافة الإنسان وتطهره وذلك لكى لا تكون المياه سببا لإيذاء الإنسان فى صحته وبدنه.

وهناك تفصيلات واسعة تتصل بالحفاظ على الماء ومنع تلويثه بالبول أو البراز أو ما شابهه، مثل منع ذلك فى مصادر المياه أو فى المياه الراكدة، وكذا فى أماكن مرور الناس واستظلالهم. وكذا فى مقابلة مهب ريح لئلا ترد عليه رشاش بوله فتنجسه. وهكذا نجد أحكاما واضحة ومفصلة فى وقاية البيئة من التلوث من ناحية، يمكن أن نقيس عليها أموراً أخرى مستجدة تسىء إلى المياه، كصرف مخلفات المصانع فيها.

غذاء الإنسان فى الشريعة

يلحق بكتاب الطهارة عند الفقهاء أبواب الأضحية والذبائح، وما يحل من الطعام والشراب واللباس وما لا يحل. ورغم دخول هذه الأحكام فى باب العبادات إلا أن الإسلام لم يحرم إلا ما يسىء إلى الإنسان والبيئة، وجعل الأصل فى الأشياء الإباحة. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام:١٤٥].

لذلك فكل ما يسىء بطبيعته إلى صحة الإنسان من الأطعمة هو حرام بلا جدال، لأن الإسلام يمنع دائما أى شىء يضر بالإنسان. وإذا كان الإسلام قد حرم الخمر بآيات من القرآن الكريم، فقد ثبت ضرره على صحة الإنسان خاصة الكبد. وقاس علماء المسلمين عليها المخدرات، وهى اجتهادات لها قيمتها فى الوقت الحاضر الذى تثار فيه ما يستنبط من الأغذية والمشروبات من مضار، وتقلب وتركيز الدهون فى بعض أنواع الجبن، وشراب الكولا ومشتقاتها.

تلوث الهواء

المكون الثانى المهم للبيئة، هو مكون الهواء. وهو من العوامل الأساسية التى جعلها الله سبحانه وتعالى ضرورية لحياة الإنسان، إذ فيه الأكسوجين الذى يستنشقه ويدير دورته الدموية. وإذا لم يكن الهواء الذى يستنشقه الإنسان نقيا، فإنه يضره ضرراً بالغا، ويؤثر على دورة حياته.

وللأسف أدى التقدم الصناعى إلى تلويث الهواء، إلى جانب تلويث الماء والتربة. ولاشك أن أخطر أنواع تلوث الهواء، هو ذلك التلوث الناتج عن الإشعاعات الذرية، وكذلك التلوث الناتج عن اتساع ثقب الأوزون، الذى نتج عن الاستخدامات السيئة لغازات معينة يستخدمها الإنسان.

وإذا كانت أحكام القانون الدولى غير حاسمة فى منع جميع أنواع تلوث الهواء حتى الآن، إلا أن الشريعة الإسلامية تمنع هذا التلوث تماما، لسببين:

الأول: أنه إفساد فى الأرض، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عنه، حيث يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

والثانى: الضرر المحقق عن هذا التلوث كما أوضحنا.

وقد استخدم الفقه الإسلامى هذه الوسائل لمنع تلوث الهواء، وتوجد كتابات فى الفقه المالكى عن منع التلوث الذى ينتج من دخان الأفران إذا كان قريبا من الناس وتأذوا به، كما كان المحتسب يراقب مصادر الأدخنة التى تؤذى الناس ويقوم بمنعها [١].

تلوث التربة

تعد التربة أحد العناصر الأساسية للبيئة، وقد قام الإنسان بتلويثها بشكل كبير. ومن صور الإساءة للبيئة التى يقوم بها الإنسان الآن، قطع أشجار الغابات وحرق الحشائش، ومن هنا فإن الكساء الخضرى الطبيعى ينقرض ويتلاشى بالتدريج وتحل محله نباتات مزروعة. ذلك إلى جانب وضع المبيدات الحشرية والكيماوية فى الأرض، ونزول

(١) راجع مؤلف د. بركات محمد بركات عن الإسلام والبيئة ـ طبع دار القاهرة عام ٢٠٠٣م ص٦٤ وما بعدها، وراجع محمد عبد القادر الفقى، حماية البيئة من التلوث ص٢١ القاهرة ١٩٩٥م.

الأمطار الحمضية، وكل هذا يسيء للتربة، وينقل الأمراض للإنسان. وكل ما يسيء إلى التربة وإلى الإنسان يعد ضررا ممنوعا وفقا لقاعدة " لا ضرر ولا ضرار ".

حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية:

وكما انتهينا إلى وجود حق للإنسان فى البيئة الصحية فى أحكام القانونين الدولى والداخلى، نجد هذا الحق واضحا تماما فى الشريعة الإسلامية، للأسباب الآتية:

أولا: أن الشريعة الإسلامية لا تعارض الإصلاح الذى يمكن أن تقود إليه أية قوانين لأنها تقوم على المصلحة، وحيث وجدت تلك المصلحة ، فثم شرع الله.

" والمسلمون لا يقبلون أن ينظر إليهم على أنهم دوما فى الصف المعارض للإعلانات والاتفاقات الدولية الهادفة إلى تحقيق العدل والسلام فى العالم، بل يرون أن ينظر إليهم على أنهم يهدفون إلى إثراء العطاء الإنسانى بالمزيد من البحث والدراسة، والاستماع إلى مختلف وجهات النظر، وتتويج العطاء الإنسانى بين بنى البشر، ونشر صحة البيئة والإنسان، والابتعاد عن الظلم والفقر واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وتلك هى احتياجات الفرد فى دنياه. يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: " من بات آمنا فى سربه، معافا فى بدنه عنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا فأخذ برها "[1].

ثانيا: أن لدى الفقه الإسلامى قدرة فائقة على الاجتهاد باستخدام مصادر وأدلة علم الأصول، وهى تمكن الفقهاء من إيجاد الحكم الشرعى لكل الحالات المستجدة باللجوء إلى: القرآن والسنة والإجماع، ثم استخدام القياس وتحكيم المصلحة والاستصحاب وسد الذرائع. وكذا استخدام قواعد الفقه الكلية كقاعدة " لا ضرر ولا ضرار " وهى تستند إلى حديث لرسولنا صلى الله عليه وسلم. وهى قاعدة تمنع كل صور الإضرار بالبيئة كما رأينا.

ثالثا: أن الحق يستند إلى مصلحة مؤكدة، وهى ضرورة أن يعيش الإنسان فى بيئة

---

(١) نقلا عن مقال د. عبد الله بن صالح العبيد فى افتتاح ندوة حقوق الإنسان فى الإسلام التى عقدت فى روما عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، راجع كتاب الندوة ص٢٨.

صحية، وهذه الضرورة تساندها نصوص القرآن والسنة كما أسلفنا، والحماية الشرعية للمصلحة تقوم على أن أحكام الشريعة ملزمة ويكفل الإمام تنفيذها بكافة الطرق. كما أن عليه مجازاة كل من يعتدى على المصلحة، إما بتطبيق الحدود إن تعلق الأمر بارتكاب حد توافرت شروطه، ومثال ذلك يمكن أن يؤدى التسرب الإشعاعى إلى تلويث المياه عمدا، فهو السم المؤدى إلى الوفاة، فيجب إقامة الحد. ولكن يطبق الشرع التعزيز فى الحالات الأخرى.

رابعا: الشريعة الإسلامية مليئة بقواعد وأحكام تحمى البيئة من التلوث كما ذكرنا، وهى تترجم إلى حق للإنسان الذى يعيش فيها فى أن يستمتع ببيئة صحية.

خامسا: أن الشريعة الإسلامية تقر ضرورة التعاون والتضامن بين كل من يعيش فى هذا الكون لتحقيق سلامته وأمنه وحماية بنى الإنسان، وتعين الرؤية الإسلامية التى يقدرها النص القرآنى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وتمثيل الرسول، صلى الله عليه وسلم، الكون بسفينة فى البحر لا يمكن أن يترك أحد للعبث بها لأنه بذلك يعرض سلامة كل ركابها للخطر.

الخلاصة:

أوضحت هذه الدراسة أن الحق فى بيئة صحية مناسبة صار من حقوق الإنسان، وبالذات من الجيل الثالث منها وهى المعروفة بحقوق التضامن. وكما نرى من اسمها أنها حقوق جماعية لا يمكن توفيرها إلا بالتعاون بين المجتمع الدولى لكفالتها لكل الشعوب والأفراد.

وأوضحنا أن هذا الحق يعنى ضرورة أن يعيش الإنسان فى بيئة صحية سليمة تجعله يستطيع التفكير السليم، والقيام بالعمل المنتج، والتمتع بالحياة.

وأوضـحنا أن الإنسان قـد أسـاء إلى البيئـة فى عناصرهـا المختلفـة: الأرض والماء والهواء، ولازال يقوم بالعديد من الأفعال التى تؤدى إلى تلويثها.

وقد بينا أساس الالتزام القانونى بالحفاظ على البيئة ومنع الإساءة إليها فى القانون الدولى وفى الشريعة الإسلامية.

وانتهينا إلى ضرورة اتخاذ التدابير من قبـل الشعوب والدول الإسلامية للتوفيق بين مقتضيات التطورات العلمية الحديثة وما تفرضه من قيود، وضرورات السهر على تطبيق مبـدأ تمتع الإنسان ببـيئـة صحـية مناسبـة، ويكون ذلك بالتـعاون بين الدول والشـعوب الإسلامية أولاً، ثم مع المجتمع الدولى بكامله بعد ذلك.

إن تحديات العصر - كما ظهر من هذا البحـث - تفترض أن تقوم شعوبنا بواجبات عديدة لمسايرة العصر، ولإشـباع الحاجات الأساسية لها من مـصادرها وبجهود أفرادها، ولا مناص من التعاون الدولى، ليس من منطق فرض القوة والأخذ فقط، وإنما من منطق تبادل المصالح والأخذ والعطاء.

وبالرغم من أن القـانون الدولى قـد وضع التـزامـات على عـاتق الدول تقـوم بهـا بالتعـاون والتضـامن، إلا أن الواقع لا يساير القـانون دائماً، لذا سيظـل حق الإنسان فى الحياة الكريمة وفى البيئة الصحية المناسبة تكتنفه الصعاب وسيحتاج إلى جهود متواصلة لكى يتم تطبيقه فعلاً.

والله ولى التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

❊ ❊ ❊

المفهوم الإسلامى للبيئة وتلوثها

بقلم: أ.د / على إبراهيم الزيات(*)

مقدمة

تعرف البيئة بأنها الوسط أو المجال المكانى الذى يعيش فيه الإنسان بما يتضمن من ظاهرات طبيعية وبشرية، يتأثر بها و يؤثر فيها، ويحصل منه على مقومات الحياة من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بنى البشر وغير البشر، ويرى أحد علماء البيئة البارزين أن البيئة هى: مجموعة من الظروف والمواد والتفاعلات التى تجتمع فى الحيز الذى توجد فيه الحياة.

الظروف: تشمل أحوال المناخ من الحرارة والرطوبة والضوء والأحوال الكونية كالجاذبية الأرضية.

المواد: تشمل الأرض وما يتصل بها من مكونات الصخور والمياه الجارية فى الأنهار، والتى تملأ البحار، ومنتجات الحياة من الأوراق والأخشاب والثمار والفراء واللحم وغيرها.

التفاعلات: بعضها فيزيقى كالتحويلات الكيميائية وبعضها حيوى يتصل بنمو الكائنات الحية، ومدى هذه التفاعلات قد يكون محليًا بين الكائن الفرد وما حوله، وقد يكون واسع المدى كدورات المياه، وحركة الرياح، كذلك قد يكون الحيز الذى ننظر إليه محدودًا، وقد يتسع ليشمل المحيط الحيوى جميعًا، أى الحيز الذى توجد فيه الحياة. وينظر إلى البيئة على أنها نظام وظيفى يعمل بشكل متكامل وعبر علاقات متبادلة بين مكوناته العضوية وغير العضوية، وللنظام البيئى مدخلات نقل وتخزين ومخرجات من الطاقة والمواد الأساسية تعمل فى الظروف الطبيعية وعندما يضطرب النظام البيئى بفعل الإنسان فإنه يميل فى البداية إلى إعادة تنظيم ذاته، فمن خلال عملية التعاقب مثلاً يتجه

(*) نائب رئيس جامعة قناة السويس لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة.

الغطاء النباتى إلى تكوين مجتمع نباتى مستقر ثابت، وذلك تبعًا للطاقة المتدفقة، وتشير ظروف الثبات فى النظم البيئية إلى التوازن الديناميكى بين المدخلات من الطاقة والمادة وبين المخرجات منها، وفى ضوء التعريف السابق يمكن النظر إلى البيئة على أنها تتكون من نظامين أساسيين هما: البيئة الطبيعية والبيئة الحضارية.

١- البيئة الطبيعية

ويقصد بها الأرض والماء والهواء والكائنات الحية النباتية والحيوانية بما فى ذلك العمليات الطبيعية والمختلفة الناتجة عن تفاعل عناصر النظام الطبيعى للإنسان.

٢- البيئة الحضارية

ويقصد بها النظام الذى أوجده الإنسان فى الوسط الطبيعى مثل النظم الحضارية والريفية بما فى ذلك المبانى، والشوارع، والمصانع، والزراعة، والتكنولوجيا، والمؤسسات الاجتماعية، والاقتصادية والتنموية، وغيرها من الأنشطة التى تهدف إلى إشباع حاجات الإنسان المعيشية ورغباته، وكذلك وسائل معالجته للمشكلات الناجمة من خلال علاقاته مع الوسط الطبيعى، ومدى استجابته وتوافقه مع تلك المشكلات. لقد تغلغلت التكنولوجيا وتطورت فى النسيج الاجتماعى للناس وفى حياتهم اليومية حتى أصبح من المستحيل فى الصناعة والزراعة يجب أن نستنبط وسائل تكنولوجية جديدة أو نطور التى بين أيدينا كأنما المجتمعات الحديثة قد أصبحت مدمنة تكنولوجيا، والدواء الوحيد هو المزيد من التكنولوجيا.

وبدو بعض الوسائل التكنولوجية فى أول الأمر عظيمة النفع، بريئة عن الضرر، ومع تطور المعارف العلمية والتكنولوجية تبين أن لها أضرارًا جسيمة خفيت علينا مثل اختراع مركبات الكلوروفلوروكربون، واكتشافنا بعد ذلك تفاعلها مع طبقة الأوزون.

سادت فى الزمن الحديث فكرة الحلول التكنولوجية لسائر المشكلات الصناعية والبيئية والاجتماعية، لكن التجربة أظهرت أنها تتصل بالتفاعلات بين الإنسان والطبيعة والتكنولوجيا، وأن الحلول المؤقتة قد تكون بالوسائل التكنولوجية، لكن الحلول الدائمة

والحاسمة تكون فى تصـويب التفاعلات بين النظم الثلاثة وذلك أن الحلول الاجتـماعية المتصلة بالسلوك الإنسانى والقبول الاجتماعى أقرب إلى الدوام.

ولقد حث الإسلام على طلب العلم واستخدامه فـى الحياة العملية، فقد قـال اللـه -تعالى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد:١٩].

فبدأ بالعلم وثنى بالعلم، ورأس العلم مخافة اللـه -تعالى- وتوحيده، فقد قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. ولقـد دعا الإسـلام إلى تكوين العقلية العلمية التى تقوم على الأسس التالية:

* ألا تقبل دعوى بغير دليل ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل:٦٤].

* رفض الظن ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[النجم:٢٨].

* رفض العواطف والإهراء والاعتبارات الشخصيـة، وقد قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص:٥٠].

* الثورة على الجمود والتقليد والتبعية الفكرية للآخرين، حيث ذكر سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٧٠].

* الاهتمام بالنظر والتفكير والتأمل ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٨٥]. وفى الإنسان نفسه فـهو عالم وحده ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١].، وفى سـير التـاريخ البشـرى ومصـاير الأمم وسنن الله فى الاجتمـاع الإنسانى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران:١٣٧]. وحث النبى ﷺ على اقتباس كل علم نافع، والخروج فى طلب العلم، وعن أنس رضى الله عنه- قـال: قال رسـول الله ﷺ: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» (رواه الترمذى).

ومن نافلة القول أننا حينما ننقل التكنولوجيا، لابد أن نطوعها لخدمة واقعنا المحلى وأن نقلل من أضرارها على البيئة بقدر الإمكان، وأن نراعى الأوضاع الديموجرافية والاقتصادية والاجتماعية لبيئتنا.

تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة لكل شيء حتى ولو كان فى حركة دائبة، فبدون الاتزان يفقد الوجود توازنه وتصبح الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات وتتبدد الماديات.

إن كل ما فى الكون.. البيئة الكبرى.. خلقه الله فى حالة متوازنة، اتزان فى الحركة، فى الحرارة، فى الجاذبية وقواها، فى المغناطيسية وتأثيراتها، فى المجالات الكهربائية، فى كميات الماء الموجود فى البحار، فى الأرض ككل، تزان فى حركتى الموت والحياة، اتزان عند المخلوقات على الأرض، حتى لا يسود نوع على نوع.. وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

وإذا أخذنا مثالاً يوضح مدى إتقان صنعة الله فى التوازن بين الحيوانات والنباتات والحشرات والطيور لوجدنا أنها تعيش فى توازن عددى بين بعضها والبعض الآخر، لكن عندما تصرف الإنسان بمنطق أنه السيد الوحيد لهذا الكون ومالكه وليس مستعيراً له، وأسرف فى استخدام المبيدات الحشرية أدى إلى فقدان التوازن الطبيعى القائم بين الحيوانات والنباتات والحشرات، وأدى ذلك إلى زيادة كبيرة وغير متوقعة فى بعض أنواع الآفات، ومن أمثلة ذلك انتشار العنكبوت الأحمر ودودة اللوز فى مصر، فى أعقاب استخدام بعض المبيدات الحشرية بإسراف، ولم تكن هذه الآفات مصدر خطر للنباتات فيما مضى، ولكن قتل المبيدات لأعدائها الطبيعيين ترك له حرية التكاثر، وأطلق لزيادتها العنان، كما أدى الإسراف فى استخدام المبيدات الحشرية للقضاء تقريبًا على الحدأة المصرية التى أصبحت نادرة الوجود فى الريف المصرى، كما أثر على الغراب وأبى قردان والثعلب والنمس والذئب، وأصبحت هذه الحيوانات مهددة بالانقراض، كما أدى استعمال مركب الـ(د.د.ت) فى مصر إلى ظهور المن والعنكبوت

الأحمر بكثرة على الذرة، نتيجة للخلل الذى أحدثه هذا المبيد فى التوازن الطبيعى بين الآفات.

تتفاعل النظم الحضارية بأقسامها الفرعية مع النظم الفرعية للبيئة الطبيعية عبر سلسلة أو شبكة معقدة من تدفقات المادة والطاقة، ويترتب على التفاعل المستمر نتائج إيجابية وسلبية، أو ما يعرف باسم الأخطار البيئية التى يسعى الإنسان جاهداً إلى الاستجابة والتوافق معها واتخاذ قرارات بيئية بشأنها.

وإذا لم يتدخل الإنسان فى عناصر النظام البيئى الطبيعى نجده يتسم بالاستقرار والتوازن، حيث يؤثر كل كائن حى داخل النظام البيئى فى حياة الكائنات الأخرى، ويتأثر بها، وإذا لم تتعرض هذه الكائنات الحية لعوامل جديدة أو طارئة على النظام البيئى، فإنها تقيم فيما بينها توازنًا طبيعيًا بيولوجيًا يحتفظ خلاله كل نوع بتوزيع عددى ثابت تقريبًا، إذ يحد من التزايد اللانهائى لأفراد أى نوع من الكائنات فى النظام البيئى أو طغيانه وتفوقه على غيره من الأنواع عوامل متعددة منها: وجود أعداء طبيعيين أو منافسة على الغذاء المحدود، أو نقص الموارد أو المساحة المتاحة لتكاثره وانتشاره، فعلى سبيل المثال إذا تمت تربية زوج واحد من الذباب على القمامة فى شهر مارس حتى شهر سبتمبر فإن نسل هذا الزوج ١٩١ بليون ذبابة، كل ذبابة يمكنها أن تحمل ٦ ملايين ميكروب وتنقل للإنسان ٤٢ مرضًا.

ويمكن القول إن عناصر النظام البيئى الطبيعى تتضمن عمليات متشابكة ومترابطة تتميز بالعديد من المسارات والتى تؤدى إلى تغيير معدلات نمو الجماعات الحية، وتصل بها إلى حالة مستقرة من التوازن فى إطار النظام ككل.

لكن الإنسان لم يترك النظم البيئية ثابتة، بل استغلها بطريقة غير عقلانية، فنجده على سبيل المثال تفاعل بنظامه التكنولوجى مع النظام البيئى، مع النظام الاقتصادى لرغبته فى زيادة رقعة الأراضى الزراعية، مع النظام الاجتماعية لرغبته فى توفير فرص

عمل للزيادة السكانية ورفع مستوى معيشتها، مع النظام السياسى الذى حاول كسر الاحتكارات العالمية وتحدى النظم الاستعمارية مثال إقامة سد على نهر النيل وهو السد العالى بما له من نتائج إيجابية وسلبية.

وكما حقق الإنسان نتائج إيجابية من مشروع بناء السد العالى عليه أ ن يضع خططًا للقضاء على سلبياته والتخفيف من حدتها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التفاعلات بين النظم البيئية ليست بسهولة المنظومة المروضة فى الأمثلة السابقة، بل تتداخل وتتشابك عناصرها فى علاقات معقدة لدرجة أن أصبحت النظم البيئية وما يدور فيها وكيف تتغير بمرور الزمن موضوع تحد للعلماء، والواقع أنه تحد كبير حيث أن ما يتم فى الطبيعة على جانب كبير من التعقيد، ذلك أن النظام البيئى الحياتى يتكون من مئات الأنواع من الكائنات الحية، يتأثر كل منها بمكونات النظام البيئى وعناصره، وغيره من الكائنات الحية الأخرى، علاوة على ذلك يتغير عدد ونوع الكائنات الحية، وتتغير بعض المكونات الطبيعية للبيئة يوميًا وموسميًا، مثل درجة الحرارة ورطوبة التربة، وغيرها، لذلك فإن معالجة المشكلات البيئية تتطلب وضع برامج وبحوث متطورة تقوم على توفير معلومات متكاملة وصحيحة.

ويرتبط التوصل إلى حلول للمشكلات البيئية تتبع جذورها وأقسامها الفرعية والعلاقات المتشابكة والمتداخلة فيما بينها، وإلى أن تسير الحلول المقترحة لأنظمة البيئة الطبيعية جنبًا إلى جنب مع الحلول المقترحة لأنظمة البيئة الحضارية.

وتحدث عملية إنتاج الغذاء الكافى للمجتمع الإنسانى المتنامى عدة تأثيرات على ديناميات النظم البيئية، وتتراوح هذه التأثيرات بين الإبادة شبه الكاملة للعديد من الأسماك فى المناطق عن طريق الصيد الجائر Overharvesting إلى نشر المركبات الكيميائية السامة من أجل القضاء على الآفات الزراعية إلى استنزاف الموارد المائية السطحية والجوفية من أجل الاستخدام الزراعى، وتتفاوت بشدة الفترة الزمنية التى

يمكن فيها إنتاج محاصيل مجانًا من التربة حيث لا توجد حاجة لإضافة أى عناصر غذائية للتربة، وسواء كانت هذه الفترة طويلة أو قصيرة إلا أن المستودع الغذائى الطبيعى الموجود فى التربة سوف يستنزف، وخاصة تحت ظروف الزراعة المكثفة، وهنا يحتاج الأمر لإضافة الأسمدة للتربة لتعويض ما فقده النظام الزراعى. وتخل الأسمدة النيتروجينية بالتوازن بين عمليتى إزالة النيتروجين Denitrification وتثبيته Nitrogen Fixation مسببة إطلاق المزيد من N2 إلى الجو، وتجد مقادير كبيرة من النيتروجين الموجود فى الأسمدة الصناعية طريقها فى النهاية إلى النظم البيئية المائية، إما عن طريق الرشح من التربة فى صورة نترات تصل إلى المياه الجوفية، أو عن طريق المياه السطحية، ولدى وصولها إلى النظم البيئية المائية فإن العناصر الغذائية الزائدة تحفز نمو الطحالب، مما قد يؤدى إلى اختناق المناطق الضحلة بالطحالب والأعشاب Choked-Weed، ويجعل حركة الزوارق أو صيد الأسماك أمرًا مستحيلاً، ويؤدى الازدهار الكبير للطحالب إلى زيادة إنتاج الأكسجين أثناء النهار، وانخفاض نسبته أثناء الليل نتيجة لتنفس كل هذه الطحالب، وبموت الطحالب وتراكم المواد العضوية على قاع البحيرة، تستخدم الكائنات المحللة كل الأكسجين الموجود فى المياه العميقة وتؤدى كل هذه المؤثرات إلى استحالة الحياة لبعض الكائنات الحية.

ينتج البشر كميات هائلة ومتنوعة من المواد الكيميائية السامة تتضمن الآلاف من المخلفات الصناعية التى لم تكن معروفة فى الطبيعة من قبل، وقد وجدت هذه المواد طريقها إلى النظم البيئية دون الاهتمام بما يمكن أن ينجم من عواقب بيئية، وكثير من هذه السموم لا يمكن تحللها بواسطة الكائنات الدقيقة، وبالتالى يمكنها البقاء فى البيئة لمدة سنوات طويلة وربما لعشرات السنين. وفى حالات أخرى قد تتحول المخلفات إلى مواد سامة عند تفاعلها مع مواد أخرى أو عن طريق أيض الكائنات الدقيقة، فالزئبق على سبيل المثال، وهو ناتج ثانوى لصناعة البلاستيك، كان يتم التخلص منه بانتظام فى الأنهار والبحار فى صورة غير قابلة للذوبان فى الماء، إلا أن بعض أنواع البكتيريا التى

تعيش فى طمى القاع أمكنهـا تحويل مركبات الزئبق إلى ميثـيل الزئبق، وهو مادة شديدة السمية قابلة للذوبان فى الماء، ويمكنها بعـد ذلك أن تتراكم فى أنسجة الكائنات الحية بما فـيهـا الإنسان، الذى يستهـلك الأسمـاك التى كانت تعـيش فى هذه الميـاه الملوثة. ومن الأمثلة على إحدى فئات المركبات المخلفة صناعيًا ولها القدرة على التراكم فى الأنسجة الهيدروكربونات الكلوريدية المستخدمـة كمبيدات حشرية مثل الـ DDT والكيماويات الصناعية المعروفة بـ PCB(Polychlorinated Biphenols).

تلوث الهـــواء

أولاً: النظام الجوى

يحيط بـالكرة الأرضية غـلاف جوى أو مـا يسمى بالهـواء، يتكون أساسًـا من غاز النيتـروجين والأكسجـين، ويمتد هذا الغلاف الجـوى إلى عدة مئات من الكيلـو مترات فوق سطح الأرض، وتقل كثافته بالارتفاع إلى درجة كبيرة، ويتكون الغلاف الجوى من ثلاث طبقات رئيـسية تتداخل فى بعضـها، وهى: التروبوسفـير (حتى ١٢ كم من سطح الأرض)، والاستراتوسفير (١٢-٨٠كم)، والأيونوسفير (٨٠-٣٦٠كم).

وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢]. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾[البقرة:٢٩].

يتكون الهواء فى طبقته السفلى الدقيقة (الأتربة والرذاذ) من ٧٨٪ غاز النيتروجين، و٢١٪ أكسجـين، وحوالى ٠٩ ,٠٪ غاز أرجون، والبقـية من غازات شحيحـة مثل غاز ثانى أكسيـد الكربون والنيون والهيليوم والهيـدروجين والميثان وغيـرها، إضافة إلى هذا يحتوى الهواء على نسب مختلفة من بخار الماء، نتيجة للتـبخر من السطوح المائية ومن التربة ومن النباتات، كـما تتعلق فى الهواء كميات هائلة من الـغبار (الأتربة) التى توجد بصورة مرئية للعين، ويختلف وجودها من منطقة إلى أخرى، فتزداد بالقرب من المناطق الصحراوية بخاصة فى مـواسم معينة مثل الخماسين، كم أن الغبـار فى الطبقات السفلى من الهواء أكثر مما فى الطبقات العليا.

وقد احتفظ الهواء المحيط بالكرة الأرضية بتـركيبة ثابتة بالرغم من الأنشطة الحيوية التى تجرى على سطح الأرض، فالإنسان وكذلك الحيوان يسـتهلك الأكسجين بعملياته الحيوية، ويعطى ثانى أكـسيد الكربون ، ولكن النبات يستعمل ثـانى أكسيد الكربون فى عمليـات التمثـيل أو البناء الضوئى، فـيحتـفظ بالكربون لنفسـه، ويعيد إلى الهـواء غاز

الأكسجين، فإذا زادت نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء فإن الفائض يذوب فيها، ومن ثم يترسب كربونات كالسيوم (التى تكون الأحجار الجيرية) هذه التفاعلات الطبيعية التى تعرف بالدورات الجيروكيميائية، أدت إلى وجود حالة من التوازن احتفظ معها الهواء بتركيبة ثابتة على مر الزمان ومن هنا فإن الله -سبحانه وتعالى- يدعونا إلى التفكى فى معجزة خلق السموات والأرض، وإعمال العقل فى هذا الإعجاز وذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[النازعات:٢٧-٢٨].

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء:٣٢].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾[الأنبياء:١٦].

لكن منذ أن عرف الإنسان النار واستخدام مصادر الطاقة المختلفة ومع الثروة الصناعية بدأت الكيمات الهائلة من الغازات والمواد المختلفة تنبعث فى الهواء محدثة خللاً متزايداً فى التوازن الطبيعى الذى أوجده الله. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[الفرقان:٢]. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد:٨].

وإذا أخذنا الهواء الذى تكون منه النظام الجوى كما سبق القول فإننا نجد أن غاز النيتروجين (الآزوت) بنسبة ٠٧, ٧٨٪ وهو غاز خامل لا يساعد على الاشتعال، وغير قابل للذوبان فى الماء، وهو أحد عناصر الغذاء للنباتات، أما الأكسجين فبنسبة ٩٥, ٢٠٪، وهو غاز نشط قابل للاشتعال، وقابل للذوبان فى الماء من أجل توفير الأكسجين اللازم للأحياء المائية، والذى يتجدد من خلال الحركة الانتقالية التبادلية بين الهواء والماء، والتى لولاها لنفد الأكسجين من الماء، وهلكت تلك الأحياء المائية، أما النسبة الباقية والتى تمثل حوالى ٢٪ فيمثلها عدد كبير من الغازات، والهيدروجين بنسبة ٠١, ٠٪ وغيرها من الغازات مثل أول أكسيد الكربون، وثانى أكسيد الكربون، واليليوم، والميثان، والنيون، والزينون، والأوزون، دقة متناهية فى نسب الغازات، وقد

أثبتت الأبحاث العلمية أنه لو كانت نسبة النيتروجين أقل من هذه النسبة التى خُلق بها وحدث أن سقطت شرارة كهربائية من الفضاء الخارجى نحو الأرض لاحترق كل شىء على سطح الأرض، إذ أن النيتروجين بهذه النسبة المقدرة تقديراً بالغ الدقة يتمكن من أن يضبط طبيعة الأكسجين وهو الغاز القابل للاشتعال، ويحوله إلى غاز يساعد فقط على الاشتعال، ولكنه لا يشتعل فى حضور هذه النسبة من النيتروجين، والغاية من ذلك أن يظل الأكسجين قائمًا فى تركيبة الهواء؛ ليؤدى وظيفته الأساسية فى توفير فرص إعالة الحياة الحيوانية على سطح الأرض، وإذا ما أخذنا مثلاً ثانى أكسيد الكربون بخصائصه ونسبته ٠٣ , ٠٪ التى خلقه الله بها نجد أن هذا الغاز يتركز معظمه فى طبقة التربوسفير، وقد أودع الله فيه خاصية امتصاص الموجات الحرارية الأرضية (الأشعة تحت الحمراء) وإشعاعها فى الغلاف الجوى، مما أعطى هذا الغلاف درجة حرارة مناسبة تسمح بوجود الحياة، ومن هذا المنطلق، فإن الإخلال بنسبة هذا الغاز زيادة أو نقصًا يعنى حدوث تغير فى درجة حرارة الغلاف الجوى مما ينعكس سلبًا وبالضرورة على مظاهر الحياة، وهذا هو سر القلق الذى ينتاب البشرية نتيجة للزيادة المطردة فى نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون وغيره من الغازات الدفينة (الميثان، الكلوروفلوركربون، والكربون)، وما يصاحب هذه الزيادة من ارتفاع فى درجة حرارة الغلاف الجوى، وما ينجم عن ذلك من مخاطر كثيرة فى مقدمتها انصهار كميات كبيرة من الثلوج فى المناطق القطبية الشمالى والجنوبى، مما يؤدى إلى ارتفاع مياه البحر والمحيطات السائلة، فيرتفع منسوبها وما ينجم عن ذلك من احتمال تعرض مدن ساحلية للغرق، وحيث تبين إحصائيات صندوق الأمم المتحدة للسكان أن نحو ١٦٪ من سكان مصر و١٠٪ من سكان بنجلاديش سوف يتحولون إلى لاجئين بيئيين، هذا فضلاً عن اضطراب الدورة المائية، وزيادة فرص تكاثر الحشرات والآفات النباتية وغيرها، مما دعا العالم إلى عقد المؤتمرات واتخاذ القرارات والآليات الكفيلة بضبط تزايد ثانى أكسيد الكربون، وقد تم التوقيع على اتفاقية المناخ العالمى فى مؤتمر قمة الأرض (البيئة والتنمية)، والذى عقد فى ريودى جانيرو بالبرازيل فى يونيو

١٩٩٢م؛ لضمان استقرار بقاء ثانى أكسيد الكربون عند مستوياته المقبولة بيئيًا، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل: هل يتصور وجود حياة على سطح الأرض بتركيبة أخرى للهواء غير التركيبة التى خلقه الله بها؟.. سبحانك ربى ما خلقت هذا باطلاً..

ثانيا: تلوث الهواء

يقصد بتلوث الهواء كل تغير كمي أو كيفى يطرأ على الصفات الفيزيائية أو الكيميائية للهواء بحيث ينتج عنه آثار ضارة على الإنسان وعلى البيئة بأنظمتها المختلفة، والمواد الطبيعية وإمكانية الانتفاع بها، ويقصد بالتغير الكمى الإخلال بالنسب الطبيعية المكونة للهواء، أما التغير الكيفى فيعنى إضافة مواد جديدة فى المواد الطبيعية المكونة للهواء.

وملوثات الهواء قد تكون غازات وأبخرة، ومن أهمها: ثانى أكسيد الكربون، وكبريتيد الهيروجين، وأكاسيد الكربون، وأكاسيد النيتروجين، والآمونيا، والهيدروكربونات، والهالوجينات (الكلوروفلور)...إلخ. وقد تكون الملوثات جسيمات صلبة مثل الغبار والسناج والأدخنة والضباب والرذاذ.

تفاعل الإنسان بنظامه التكنولوجى ممثلاً فى الآلات والمركبات الصناعية التى يخترعها الإنسان كل عام، وتتفاعل مع غيرها من المواد الخام مع النظام البيئى الطبيعى متمثلاً فى استخراج الحديد والنحاس والبترول... إلخ، كذلك بنظامه الاقتصادى الذى يقوم ويهتم بشكل كبير بالصناعة مع نظامه الاجتماعى، حيث أنشأ آلاف المصانع لرفع مسوى معيشة السكان، وتحسين نوعية حياتهم مع نظامه السياسى بالسعى نحو عقد اتفاقيات تجارية لاستيراد المواد الخام، وإيجاد أسواق لتصريف منتجاته الصناعية حيث نتج عن حركة التصنيع العديد من الغازات التى تفاعلت ولوثت النظام الجوى، فأدى ذلك إلى مشكلة تلوث الهواء.

وتنتج الملوثات من مصادر طبيعية كالعواصف، والرياح، والبراكين، وحرائق

الغابات، ، ورذاذ البخار والمحيطات، أو من مصـادر ملوثات النشاطات البشرية المختلفة وهذه أكثر خطورة مثل: الصناعة، ووسـائل المواصلات، ومحطات القوى، والنشاطات المنزلية، وحرق القـمامة، والتدخين، وأيضًـا المصادر الإشعاعية ومـا ينتج عنها من تطاير الذرات (الجـسيـمات) المشـعة، وأيضًـا التلوث بالميكروبات والكائنات الحـية الدقـيقـة والفطريات وحبوب اللقاح.

ثالثًا: التنقية الذاتية للهواء الجوى

للهواء قدرة على التنقية الذاتية من كميات لا بأس بها من الشوائب والملوثات التى تصل إليه من المـصادر المختلفـة، وتعتمـد عوامل التنقـية الذاتية على طـبوغرافـية المكان والعوامل الجوية المختلفة، مثل: سرعـة الرياح واتجاهاتها، والدوامات الهوائية، وتيارات الحمـل، وكميـة الأمطار أو الثلوج المتـساقطة، وكـذلك على وجود طبـقات من الـهواء الساخن نسبيًـا بين طبقات الجو العليا الباردة، وتسـمى بالانعكاس الحرارى، وتحدد هذه العوامل انتشار الملوثات وتوزيعـها على مساحات أكبر، وتخفـيفها، والوقت الذى تظل فيه محمولة فى الهواء، وبالتالى فهى تحدد درجة تركيز الملوثات فى الهواء.

رابعًا: استراتيجية حماية الهواء على المستوى العالمى

تتضمن استراتيجية حماية الهواء على المستوى العالمى مايلى:

* التشـجير وذلك بزراعـة أكبر عـدد ممكن من الأشجـار خاصة فى المدن، مع مـحاولة الإبقاء على الغابات القائمة، والبحث عن أشجار سريعة النمو، وتستطيع امتصاص ثانى أكسيد الكربون بمقادير قياسـية، وإجراء التجارب فى الهندسة الوراثية من أجل تطوير الأشجار الجديدة.
* الرصد المنتظم والمستمر للغلاف الجوى وللنظم البيئية المتأثرة، وتشخيص المشكلات.
* استبدال مصادر الطاقة التقليدية بمصادر أخرى للطاقة أقل تلويثًا للهواء.

* الاستعانة بالتكنولوجيا للتحكم فى الملوثات الناتجة عن الصناعة وعن السيارات وغيرها من مصادر التلوث.

* تقويم وسائل التحكم فى الملوثات بصفة مستمرة.

* الاستفادة من التكنولوجيا الحيوية لحماية الهواء.

* التخطيط الصناعى والعمرانى الصحيح.

* التدريب والتوعية فى مجال حماية الهواء الجوى.

وقد أوضحت عمليات رصد الهواء الجوي في المدن الكبري في العالم الحقائق التالية:

١ - تحسنت نوعية الهواء فى معظم مدن الدول المتقدمة خلال العقدين الماضيين؛ لانخفاض متوسط تركيز ثانى أكسيد الكبريت والجسيمات العالقة فى الهواء، نتيجة لتنفيذ عدة إجراءات مثل الإجراءات التشريعية، وتنويع مصادر الطاقة، ورفع كفاءة استخدامها، واستخدام تكنولوجيات مختلفة للحد من انبعاث الملوثات، وتعتبر مدن طوكيو وفرانكفورت ولندن من المدن التى تحسنت فيها حالة الهواء.

٢- انخفاض متوسط تركيز الرصاص فى الهواء فى معظم مدن أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان واستراليا نتيجة منع أو الحد من استخدام البنزين المحتوى على الرصاص، وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية رائدة فى هذا المجال، ففى الفترة من ١٩٧٦-١٩٨٧م انخفض محتوى الرصاص فى عادم السيارات بنسبة ٨٧٪، ولقد تحققت نتائج متشابهة فى بعض دول غرب أوروبا مؤخراً.

٣- ازدادت حدة تلوث الهواء فى معظم الدول النامية منذ بداية السبعينات، نتيجة لزيادة استخدام الوقود، ونتيجة لعدم اتخاذ الإجراءات المناسبة للحد من هذا التلوث.

٤ - ويقدر أن يوجد أكثر من ١٠٠٠ مليون شخص فى المناطق الحضرية يتعرضون

لمستويات غير صحية من ملوثات الهواء، حوالى ٩٠٪ منهم فى الدول النامية. وتعتبر بكين ومدينة المكسيك، وسيول، والقاهرة، وبانجوك، وبومباى، وكراتشى، وجاكارتا ومانيلا من أكثر المناطق الحضرية تلوثًا فى العالم طبقًا لمسح حالة الهواء فيها عام ١٩٩٠، ولقد تفاقمت حالة تلوث الهواء فى مدن الدول النامية نتيجة عدم الاتفاق على مكافحة التلوث، فمازالت بعض الحكومات تعتبر هذا الاتفاق نوعًا من الرفاهية والخدمات لا يتحمله اقتصادها، وهذا منطق يجانبه الصواب، فالإنفاق على حماية الهواء هو استثمار له عائد اقتصادى واجتماعى مهم.

وقد تتضمن خطة العمل البيئي فى مجال حماية الهواء الإجراءات التالية:

* التخلص المرحلى من دعم الطاقة، مما يؤدى إلى خفض معدل زيادة الاستهلاك فى الطاقة.

* فرض ضرائب على البنزين وذلك بهدف تشجيع خفض استخدام الطاقة والانبعاثات الملوثة للهواء المرتبطة بها.

* خفض محتوى البنزين من الرصاص.

* إنقاص انبعاثات المركبات وذلك بأنه يجب أن تجتاز المركبات اختبار معايير الانبعاث المطلوبة، وكذلك تحسين مستوى سياسات إدارة المرور على المدى الوسيط بما يسهل حركة المركبات.

* اتباع سياسات إضافية لتقليص انبعاث الغازات السامة من المركبات، والكفاءة العالية فى استخدام الوقود وتلك المجهزة بالمحولات الحافزة.

* خلق وعى عام بتكاليف تلوث الهواء وذلك من خلال تطوير وتحديث قاعدة المعلومات عن طبيعة وأبعاد وامتداد تلوث الهواء وتكاليفه، مع توزيع مثل هذه المعلومات بانتظام على صانعى وواضعى السياسات والملوثين، والمؤسسات التعليمية والمجموعات الأخر، وكذلك الأفراد المهتمين بتلوث الهواء، ونظرًا إلى انبعاث

ملوثات الهواء، والضوضاء أيضًا، تعتمد إلى حد بعيد على صيانة المركبة، وسلوك السائق، فقد شرع فى تقديم حوافز لتشجيع الفحص المنتظم للمركبات، وتنظيم حملات تثقيفية للسائقين.

خامسًا: موقف الإسلام من مشكلة الهواء

ينظر الإسلام إلى التلوث على أنه صورة من صور الإفساد والضرر والتبديل، فحماية الهواء من الملوثات من وجهة النظر الإسلامية يعد فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وقد نهت الآيات القرآنية عن الإفساد، وجرمته، ونبهت إلى سوء عاقبة المفسدين. وصدق الله العظيم حيث يقول فى كتابه الكريم: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف:٨٥] ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[البقرة:]، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة:٢١١].

واعتبر علماء المسلمين الدخان بكل أنواعه مضرًا، وقد جاء وصفه فى القرآن الكريم بأنه عذاب أليم وذلك فى قوله الحق عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الدخان:١٠-١١].

وتذوب الملوثات الغازية الموجودة فى الهواء أثناء سقوطها من السماء فى مياه الأمطار مثل أكاسيد النيتروجين وأكاسيد الكبريت، وذرات التراب، ومن المسلم به أن ماء المطر يكون نقيًا عند بدء تكوينه حيث يقول ربنا سبحانه تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[الفرقان:٤٨].

سادسًا: مشكلة ثقب الأوزون

يعد وجود غاز الأوزون فى طبقة الأستراتوسفير درعًا للحياة، يحمى الأرض من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس، والتى لو وصلت إلى الأرض لقتلت الكائنات الحية وجميع المخلوقات، ويقوم غاز الأوزون بامتصاص تلك الأشعة ويحول دون تدفقها إلى سطح الأرض، ولا يصل إليها إلا قدر ضئيل؛ ليساعد على تكوين فيتامين (د) فى أجسامنا.

سابعاً: أثر تراكم المخلفات الصلبة فى إحداث تلوث الهواء

إن تراكم المخلفات الصلبة خاصة لفترة طويلة يعد أهم أسباب تلوث الهواء، نظراً لما تبعثه من روائح ونمو للميكروبات التى تضر بصحة الإنسان، وتصاعد كميات كبيرة من الغازات مثل:

* **غاز الميثان:** والذى ينتج من التحلل اللاهوائى للمواد العضوية ببعض أنواع من البكتيريا، ويقدر الباحثون كمية غاز الميثان الناتجة من تحلل المخلفات الصلبة بحوالى ١,٦ مليون طن سنويًا.
* **غاز ثانى أكسيد الكربون:** ويعتبر أحد الغازات التى تنتج عند بداية عملية تحلل المخلفات الصلبة، كما ينتج عند حرق المخلفات الصلبة، وتقدر كمية الغازات الناتجة من حرق طن واحد من القمامة بحوالى ٣٠٠٠-٦٠٠٠ متر مكعب من الغازات التى تختلف فى محتواها حسب محتوى القمامة من المواد العضوية وغير العضوية. ومن المعروف أن غاز الميثان وثانى أكسيد الكربون من أهم الغازات التى تسبب ظاهرة الاحتباس الحرارى.
* **غاز أول أكسيد الكربون:** ويتصاعد نتيجة حرق المخلفات الصلبة وهو من الغازات السامة.
* **أكاسيد النيتروجين:** وهى من الغازات التى تنتج من حرق وتحلل المواد العضوية الموجودة فى المخلفات الصلبة. وتقدر كمية ثانى أكسيد النيتروجين الناتج من المخلفات الصلبة بحوالى ٨٧ مليون طن سنويًا.
* **أكاسيد الكبريت:** وتنتج من عمليات حرق القمامة وتحللها، وتقد كمية ثانى أكسيد الكبريت التى تنتج من المخلفات الصلبة بحوالى ١,٧ مليون طن سنويًا، وهذه الكمية تساهم بطريق مباشر أو غير مباشر فى إحداث ظاهرة الأمطار الحمضية.
* **غازات أخرى:** من غازات الفلوروكلوروكربون، والتى تنتج مما يتبقى من عبوات

الإيروسولات التى تلقى فى القمامة، وغازات الفلوروكلوركربون تحدث مع غيرها بعض من الغازات تأثيراً كبيراً على تخلخل طبقة الأوزون.

آثار تلوث الهواء بالمخلفات الصلبة

يحدث تلوث الهواء الناشئ عن المخلفات الصلبة بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ما يلى:

١- يصبح الهواء مصدراً لنقل الأمراض وانتشار العدوى، نتيجة لتكاثر الحشرات والحيوانات الناقلة للأمراض.

٢- زيادة أمراض الحساسية وأمراض العيون خاصة عند حرق المخلفات.

٣- انخفاض مدى الرؤية نتيجة لتصاعد الدخان الناتج من حرق المخلفات، مما يترتب عليه زيادة نسبة وقوع الحوادث.

٤- الإضرار بالمبانى والممتلكات، ونقص قيمتها نتيجة لترسب الأدخنة والأتربة الناتجة من حرق المخلفات وتحللها، وبالتالى زيادة تكاليف إصلاحها وتنظيفها.

٥- انبعاث الروائح الكريهة وسوف يؤثر ذلك على الكفاءة الإنتاجية للمواطنين.

٦- كما يمكن تقدير النفقات التى يسببها تلوث الهواء الناتج من المخلفات الصلبة على الصحة العامة بحوالى ٦ , ٩ مليون دولار تقريباً.

تلوث المـــاء

أولاً: الماء فى القرآن الكريم

ويشتمل على الماء فى حالاته الثلاثة: الغازية، والسائلة، والصلبة، سواء كان موجودًا فى الهواء أو على سطح الأرض، ولقد ذُكر الماء فى القرآن فى ثلاثة وستين موضعًا تندرج تحت التصنيفات التالية:

الماء أول الموجودات

يقول الله -تعالى- فى محكم كتابه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[هود:٧].

وعن رسول الله ﷺ: «*كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب فى الذكر كل شيء*» (أخرجه الترمذى).

الماء تعتمد عليه كل الكائنات

يقول الله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء:٣٠].

أثبتت الأبحاث أن جسم الإنسان يحتوى على ٧٠٪ من مكوناته من الماء، فإذا تناقصت هذه النسبة، تعرضت أجزاؤه للمرض، فإذا وصلت نسبة الفقد إلى ٢٠٪ تعرض للموت، وأصل الإنسان من ماء، وصدق الله العظيم القائل فى كتابه الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[الفرقان:٥٤].

الماء سبب إنبات كل شيء

حيث يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:٩٩]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[لقمان:١٠].

الماء مصدر تنوع الحياة النباتية على الأرض

حيث يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه

شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[النحل].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها﴾[فاطر].

الماء مصدر الرزق

حيث يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[البقرة:٢٢].

الماء مصدر للشرب

حيث يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠].

الماء مصدر للاستغاثة لتذكر الله -سبحانه وتعالى-، وسبب التكاثر والخلود، ووسيلة للانتقال، ومصدر للغذاء، وبشارة خير ورحمة وطهارة وبركة، وحياة للناس، ومذهب للخطايا والذنوب، والناس في حاجة إلى تخزين الماء على مدار العام في آبار وعيون، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[المؤمنون:١٨]. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾[الأنعام:٦].

الماء سبب الهلاك

حيث يقول ربنا الكريم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر: ١١-١٢]. ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾[الدخان:٢٤].

الماء مصدر للتعذيب يوم القيامة

قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾[إبراهيم:١٦]. ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[محمد:١٥].

ثانيًا: تلوث الماء والآثار الناتجة

يُقدر الحجم الكلى للماء بحوالى ١٣٦٠ مليار متر مكعب، ٩٧٪ من هذا الحجم موجود فى البحار والمحيطات، بينما تمثل المياه العذبة ٣٪ الباقى توزيعها كالآتى: ١٪ ماء عذب، ومن الماء العذب حوالى ٩ , ٠٪ مياه جوفية، والباقى مياه سطحية فى الأنهار والبحيرات.

يمثل وجود الماء على هيئة جليد جزءًا هامًا من التوازن البيئى، وهو ضرورى لحياة الإنسان على سطح الأرض، بحيث لو ذاب الجليد أو عمل الإنسان على إذابته لغرقت الجزر والسواحل.

وتتجدد مصادر المياه العذبة باستمرار بفعل الأمطار، ولا يتكافأ توزيع المياه مع توزيع السكان فى العالم، حيث يتفاوت توزيع المياه تفاوتًا كبيرًا فى العالم وبنسب مختلفة، فالبرازيل بها ١٨٪، روسيا ١٣٪، الصين ٥٩٪، الولايات المتحدة ٨٪، بينما لا يتجاوز إيراد نهر النيل الذى يغطى احتياجات عشر دول ٣٪ فقط، وفى الوقت الحاضر لا تستطيع دول عديدة تأمين احتياجاتها وكفايتها من المياه العذبة وعلى رأسهم معظم دول العالم الإسلامى، ويعبر القرآن الكريم عن هذه المشكلة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾[الملك: ٣٠].

تفاعل الإنسان بأنظمته الحضارية ممثلة فى نظامه الثقافى + نظامه الاجتماعى + نظامه الاقتصادى ونظامه التكنولوجى ونظامه السياسى ونظامه الحيوى مع النظام الطبيعى ممثلاً فى النظام الأرضى + النظام المائى، فألقى بمخلفاته الإنسانية والنباتية والحيوانية والمعدنية والصناعية والكيميائية ممثلة فى (الأحماض، القلويات، الأصباغ ومركباته الهيدروكربونية، الأملاح، الدهون، الدم، مياه المجارى، النفط، المبيدات الحشرية، بلاستيك، الرصاص، الزئبق، الكاديوم، وغيرها من الملوثات) فى المياه، فأدى ذلك إلى تلوثها، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل إن مياه الأمطار وبصفة خاصة فى المناطق الصناعية حيث تؤدى إلى تساقط الأمطار الحمضية.

تعتبر مشكلة تلوث مياه الأنهار والبحيرات من المشاكل المحلية والإقليمية؛ نظرًا لأن الأنهار عادة ما تمر فى العديد من الدول، ولقد ظهرت هذه المشكلة نتيجة نمو المدن، وتزايد عدد السكان، وبناء المصانع المختلفة بها، وبروز مشكلة تصريف الفضلات الضارة، ويمكن حصر مصادر تلوث مياه الأنهار والبحيرات فيما يلى:

١ - تسرب المخلفات الزراعية والقمامة والحيوانات الميتة إلى مياه الأنهار.

٢- إلقاء مياه الصرف الصحى فى مياه الأنهار، مما يفسد المياه ويجعلها بيئة غير مناسبة لحياة كائنات حية عديدة.

٣- إلقاء مخلفات المصانع المقامة على ضفتى النهر، فضلاً عن التلوث الحرارى الناتج من إلقاء هذه المخلفات مذابة فى مياه ساخنة حيث يقل الأكسجين.

٤ - تسرف مياه الصرف الزراعى المحملة بالمبيدات الحشرية وبقايا الأسمدة الكيماوية.

٥ - استخدام المبيدات الكيميائية فى مقاومة الأعشاب والقواقع، وبعض الحشرات كالبعوض، فضلاً عن استخدام بعض الصيادين للمواد السامة فى صيد الأسماك.

٦- نمو بعض النباتات المائية فى النهر مثل نبات ورد النيل (ياسنت الماء) الذى ينمو فى نهر النيل.

وقد أدى تلوث مياه الأنهار والبحيرات إلى:

١ - انتشار الأمراض وخاصة أمراض الجهاز الهضمى، نظرًا لاستخدام مياه النهر فى الشرب والزراعة؛ وذلك بسبب تزايد احتمال وجود الجراثيم المسببة لأمراض الكوليرا والتيفود والدوسنتاريا وغيرها.

٢- انتشار الطفيليات: كديدان البلهارسيا، والإنكلستوما نتيجة التلوث البيولوجى لمياه المجارى.

٣- هلاك أنواع من الهائمات النباتية والحيوانية (البلانكتون) بسبب التلوث الحرارى بالمياه الساخنة للمصانع مما يضر بالسلاسل الغذائية.

٤ - انتقال بعض المركبات السامة فى جسم بعض الحيوانات المائية كالأسماك، مما يسبب التسمم للإنسان إذا تغذى عليها.

٥ - تناقص الأكسجين الذائب فى الماء بسبب نشاط البكتيريا المحللة للمخلفات الزراعية، والحيوانات الميتة، والقمامة، والأعشاب النهرية الميتة، مما يؤدى إلى موت كثير من الأسماك فى النهار.

ويمكن التحكم فى تلوث مياه الأنهار والبحيرات عن طريق اتباع الآتى:

١ - عدم إلقاء مخلفات المصانع فى مياه الأنهار.

٢ - استخدام طرق المقاومة البيولوجية والميكانيكية واليدوية للآفات الزراعية بدلاً من استخدام المبيدات الكيماوية.

٣- الاهتمام بإنشاء شبكات الصرف الصحى حسب المواصفات المناسبة، ومعالجة مياه المجارى تجنبًا للتلوث.

٤ - عدم إلقاء القمامة والفضلات وجثث الحيوانات فى مياه الأنهار.

٥ - التنقية الذاتية للأنهار حيث يقوم النهر بعمليات تنقية ذاتية للتخلص من بعض الملوثات، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى علينا.. وأهم هذه العوامل التى تؤثر فى التنقية الذاتية للنهر ما يلى:

- **التهوية**: حيث يتم تبادل الغازات بين الهواء والماء بواسطة الرياح والدوامات والشلالات، وفيما يمتص الماء الأكسجين ويتخلص من ثانى أكسيد الكربون وكبريت الهيدروجين وغيرها.
- **الضوء**: ينشط الضوء عملية البناء الضوئى فى النبات، مما يعمل على زيادة الأكسجين فى الماء، والتخلص من ثانى أكسيد الكربون، فضلاً عن التأثير القاتل للضوء على معظم الميكروبات.

- **الجاذبية الأرضية:** وتساعد على ترسيب المواد العالقة بالماء، ويزداد الترسيب فى المياه الهادئة.
- **عمليات الأكسدة والاختزال:** حيث تتأكسد بعض المواد العضوية بفعل الميكروبات الهوائية، وتتحول إلى مواد غير عضوية، وتساعد الأكسدة على ترسيب المواد الذائبة كأملاح الحديد والمنجنيز، أما عمليات الاختزال فتتم فى قاع الأنهار بفعل البكتيريا اللاهوائية، وعندما تتحول المواد العضوية لا هوائيًا ينتج عنها مواد كريهة.
- **العوامل البيولوجية:** حيث تساهم الكائنات الحية المائية فى عمليات التنقية الذاتية، فعند مرور الضوء فى الماء تنمو الطحاب، وتستهلك ثانى أكسيد الكربون وأملاح النترات والآمونيا، وتنتج كميات وفيرة من الأكسجين، مما يساعد على نمو الحيوانات المائية الكبيرة كالأسماك التى تستهلك المواد الغذائية الموجودة فى النهر.

وينتج عن تلوث الماء الناتج عن إلقاء المخلفات الصلبة ما يلى:

١ - إصابة الإنسان بأمراض متعددة مثل الأمراض المعوية، الكوليرا، الدوسنتاريا، الالتهاب الكبدى الوبائى (أ)، بالإضافة إلى إصابة الإنسان ببعض الطفيليات مثل: البلهارسيا، والإسكارس، والدودة الشريطية، وغيرها، كما قد يصاب الإنسان بالتسمم.

٢- الإخلال بالنظم البيئية المائية حيث يؤثر التلوث على نمو الهائمات النباتية والحيوانية والتى لها دور مهم فى البيئة، حيث تعتبر الهائمات النباتية مصدرًا مهماً لإنتاج الإكسجين اللازم للكائنات الحية، وبالتالى يقل إنتاج الأكسجين، كما أن الهائمات الحيوانية الصغيرة توفر الغذاء للأسماك وغيرها، وبالتالى يقل هذا الغذاء.

٣- موت الأسماك والطيور والحيوانات البحرية أو ضعف سلالتها.

٤- تشجيع تكاثر القواقع التى تعمل كعامل وسيط لكثير من الطفيليات.

٥- التشويه الجمالى والذى يؤدى إلى تهديد السياحة التى هى من مصادر الدخل المهمة.

ثالثا: المياه الجوفية وتلوثها

تشكل المياه الجوفية حوالى ٢٤٪ من إجمالى المياه العذبة، وما يقرب من ٦٪ من حجم المياه الموجودة على الكرة الأرضية، وبهذا تكون المياه الجوفية أكبر مستودع للمياه العذبة على الأرض، ويقول الله -سبحانه وتعالى- ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾[البقرة].

وتنشأ المياه الجوفية من مصادر متعددة أهمها:

* مياه الأمطار.

* مياه الأنهار والبحيرات.

* المياه التى تخزن فى الصخور الرسوبية أثناء عملية ترسيبها.

* المياه الجوفية الناتجة عن النشاط البركانى.

* مياه البحار والمحيطات نتيجة تسربها إلى خزان المياه الجوفى.

وتعتبر المياه الجوفية المورد الوحيد للمياه فى الكثير من بلدان العالم الصحراوية، والتى تفتقر إلى الأنهار، مثل السعودية، ومعظم دول الخليج العربى، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب. ورغم أن مياه الآبار والينابيع أقل أنواع المياه تلوثًا لمرور المياه السطحية بعدة طبقات تعمل كمرشحات للجراثيم والميكروبات، إلا أن المياه الجوفية يمكن أن تتلوث إذا كانت بجوار مصادر التلوث الأخرى كخزانات الصرف الصحى، خاصة المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، كما يمكن أن تكون المياه الجوفية من نوع الماء

العسر نتيجة لتسرب كميات من الأملاح المعدنية إليها مثل الكالسيوم والماغنيسيوم، وهذا يؤثر على مدى استخدام المياه فى الأغراض المختلفة، كما يؤثر تلوث المياه الجوفية بمياه الصرف الصحى فى انتشار الأمراض الطفيلية، ويمكن التحكم فى تلوث المياه الجوفية بدق المضخات على أبعاد مناسبة من خزانات الصرف الصحى، أو مصادر التلوث الأخرى، كما يجب تحليل الماء الخارج من الآبار لمعرفة نسبة الأملاح به والامتناع عن استخدامها إذا كانت نسبة الأملاح عالية.

رابعًا: نقص موارد الماء العذب.. الأسباب وأساليب العلاج

نظرًا لأن الماء عصب الحياة وأن الإنسان يعتمد على الماء العذب لأغراض الزراعة والصناعة، والاستخدامات المنزلية، فإن من الضرورى دراسة مشكلة نقص موار د الماء العذب، خاصة أن المياه العذبة تشكل نسبة ضئيلة من إجمالى المياه فى العالم، ولقد كان الماء يكفى حاجة الناس، ولكن مع ظاهرة الانفجار السكانى والثبات ا لنسبى للكميات المتاحة من الماء العذب ظهرت مشكلة القصور وعدم التوازن بين المتاح من الماء العذب وحاجة الإنسان وغيره من الكائنات الحية، مما زاد من حدة المشكلة أنه امتدت يد التلوث إلى الماء العذب المتاح، فأصبح هذا الماء ملوث غير صالح للاستخدام؛ولذلك اتجه الإنسان إلى البحث عن أساليب علاج مشكلة نقص موارد الماء العذب.

ومن المتوقع أن تكون مشكلة نقص المياه العذبة سببًا من الأسباب الرئيسية لقيام الحروب فى المستقبل القريب، وتوضح التقارير أن استهلاك المياه فى العالم قد بلغ ١٣٦٠ كيلومتر مكعب عام ١٩٩٠م ، ومن المتوقع أن يبلغ الاستهلاك ٥١٩٠ كيلومتر مكعب عام ٢٠٠٠م، وتستهلك الزراعة ٦٩٪ متوسط عالمى من المياه، تليها الصناعة ٢٣٪، ثم الاستخدامات المنزلية ٨٪، ويرى الكثيرون أن العالم مقبل على مشكلة نقص المياه فى القرن الحادى والعشرين، ومن هنا كانت توصيات مؤتمر المياه الذى عُقد فى شهر مارس ١٩٩٨م فى باريس، والتى تنادى بإنشاء وكالات متخصصة لحماية أحواض المياه، مثل حوض النيل وحوض الفرات.. إلخ، لتطرح حلولاً دبلوماسية هادئة

تستأصل جذور الصراع حول المياه، وتحولها إلى عنصر جاذب لدول الحوض، وتوحد جهودها من أجل احترام حصصها وحمايتها من التلوث، ومن الأسباب الرئيسية لنقص الماء العذب ما يلى:

١ - زيادة الطلب على الماء العذب.

٢ - سوء إدارة مصادر المياه.

٣- سوء استخدام الماء العذب.

ومن الأساليب المقترحة لعلاج مشكلة نقص موارد الماء العذب ما يلى:

ترشيد استهلاك المياه العذبة المتاحة بما يلى:

١ - الإدارة الجيدة لمصادر الماء العذب، وذلك بالتعاون بين الدول المشتركة فى حوض النيل مثلاً للمحافظة على المياه العذبة التى تضيع فى أعالى النيل وعلى امتداد مجراه.

٢ - رفع كفاءة وصيانة وتطوير شبكات نقل وتوزيع الماء.

٣- ترشيد استخدام الماء العذب فى الاستهلاك اليومى.

٤ - رفع كفاءة استخدام المياه فى الرى، بتطوير نظم رى المزروعات وذلك باستخدام أساليب الرى الحديثة كالرى بالرش والرى بالتنقيط، والرى بالنشع، حيث توفر هذه الأساليب كميات كبيرة من الماء تقدر بحوالى ٧٥٪ عن الرى بالغمر المستخدم حتى الآن فى مصر.

٥ - المحافظة على مصادر الماء العذب من التلوث مما يؤدى إلى توفير كميات كبيرة من الماء.

خامساً: ندرة وتلوث المياه العذبة وموقف الإسلام منهما

• تلوث مصادر الماء العذب

يحدث تلوث الماء العذب نتيجة الصرف الصحى فى الأنهار والبحيرات العذبة،

بالإضافة إلى مصادر التلوث الأخرى التى سبق ذكرها، مما يجعل الماء العذب فى الأنهار والبحيرات الملوثة غير صالح للاستخدام الآدمى.

إن المحافظة على الماء هى أساس المحافظة على الحياة بجميع أشكالها، وقد نهى الإسلام عن تلويث الماء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «*غطوا الإناء، السقاء فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل ذلك الوباء*» (رواه مسلم)، وفى قوله ﷺ: «*أوكئوا السقاء*» أى: اربطوا فوهات السقاء (ما يشرب منه) وذلك لحماية الماء من الملوثات التى قد تنتقل إليه من الهواء أو من الوسائل الناقلة للجراثيم والطفيليات كالصراصير والفئران والنمل والبعوض.

وعن جابر رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال: «*لا يبولن أحدكم فى الماء الراكد ثم يغتسل فيه*» (رواه مسلم)، كما نهى الرسول ﷺ «أن يبال فى الماء الجارى» رواه الطبرانى بإسناد حسن. وقال ﷺ: «*اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الماء، وفى الظل، وفى طريق الناس*». ويؤدى البراز فى الماء إلى تلوث الماء بالطفيليات والروائح الكريهة، ككما يؤدى إلى استهلاك الأكسجين الذائب فى الماء، مما يؤثر على الكائنات التى تعيش فيه كالأسماك وخلافها، كما يؤدى التبول فى الماء إلى نقل أمراض عديدة منها: البلهارسيا، ومن ثم فما أدى إلى حرام فهو حرام، كما إن منع الضرر قبل حدوثه أولى من معالجته بعد حدوثه. إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وقد قال رسول الله ﷺ: «*الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلاء والنار*»، فالماء حق للجميع، كما نهى القرآن عن الإسراف فى استهلاك المياه حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[الأعراف].

تمخر السفن عبر البحار حيث تقوم بتفريغ محتويات صهاريجها فى مياه البحار أو إلقاء مخلفات الصناعة البترولية والبتروكيماوية فى المسطحات المائية للبيئة البحرية أو

إشعال الحروب، وتسريب مياه النفط عمداً فى المياه أو تدبير إشعال النيران فى آبار البترول بالطبع كل هذه التصرفات غير العقلانية لها الآثار السيئة على تلوث البيئة البحرية حاليًا ومستقبلاً.

يؤدى التلوث النفطى إلى تدمير البيئة البحرية، فهو يشكل طبقة تعلو سطح المياه وتمنع وصول الأكسجين وثانى أكسيد الكربون إلى الماء، مما يؤدى إلى توقف عمليات التمثيل الضوئى، الذى تقوم به النباتات المائية، وهو عملية ضرورية لتزويد البحر بالأكسجين ولتنقية ثانى أكسيد الكربون، كما تقوم البقع النفطية بعزل حرارة الشمس من الوصول إلى الأعماق، ويؤثر ذلك فى الثروة المرجانية والإسفنج،كما يحتوى النفط على مكونات سامة تؤدى إلى قتل الأسماك والمحار واللافقريات والرخويات والقشريات وقتل البلانكتونات، وبدون هذه العوائق تستحيل الحياة البحرية حيث تتغذى عليها غالبية الأسماك والحيوانات البحرية.

تؤدى بقع الزيت إلى تقليل نسبة التبخر بنسبة ٦٠٪، ومن المعروف أن البحار والمحيطات تؤمن نسبة ٩٠٪ من بخار الماء الموجود فى الجو، كما تسبب بقع النفط فى سخونة سطح الماء، مما يؤثر على سرعة نمو الأحياء المائية من نباتات وحيوانات، مما يؤدى إلى اختلال التوازن البيئى، كما يؤثر على الطيور البحرية إضافة إلى تهديد معامل تحلية المياه مما يؤدى إلى تغيير مذاق الماء المقطر.

تلوث التربة

١- مساحة الأرض الزراعية والنظام الأرضى.

٢- مشكلة تلوث الأرض والتربة.

٣- عوامل تلوث التربة.

أولاً: النظام الأرضى

يعرف النظام الأرضى على أنه القشرة العليا من سطح الأرض (طبقة السيال) التى يعيش عليها الإنسان ويتفاعل مع عناصرها، ولا يتجاوز عمق القشرة التى يهتم بها الإنسان عن بضعة أمتار أو مئات الأمتار، وتوجد بها كافة المعادن باستثناء بعض الآبار الإرتوائية التى يصل عمقها إلى ثمانية كيلوامترات وكذلك آبار النفط وبعض المناجم.

إن الخالق عظمت قدرته حينما هيأ الأرض لسكنى الإنسان، وجعلها مناسبة وملائمة لحياته، فأنبت له الشجر والزرع، وأجرى له الأنهار، وسخر له الليل والنهار، والشمس والقمر، وزوده بنعمة العقل، وجعل الطبيعة فى خدمته. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[النبأ:٦-١٦].

وخالق الأرض هو الله حيث قال فى كتابه الكريم: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف:٥١].

والله خالق الإنسان من تراب، من طين، من حمإ مسنون، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه، فأصل الإنسان ومقومات حياته من الأرض، من الطين، هذه القشرة الأرضية الخصبة هى التى تعطى كل مقومات الحياة التى نعيشها، ولقد حلل

العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكونًا من ١٦ عنصراً، إذ أن عناصر الطين المخصب هى نفس عناصر جسم الإنسان.

ولقد أمر الله -سبحانه وتعالى- بعدم الإفساد فى الأرض، حيث قال فى كتابه الكريم: ﴿فهلْ عسيْتمْ إن تولَّيْتم أن تُفسدُوا في الأرْض﴾[محمد٢٢]. ﴿ويسْعوْن في الأرض فسادًا والله لا يُحبُّ المُفْسدين﴾[المائدة:٦٤].

ثانيًا: مشكلة تلوث الأرض والتربة

كل ما يلوث الهواء والماء يلوث التربة، ولقد تفاعل الإنسان بأنظمته الثقافية وأنظمته الاجتماعية + أنظمته السياسية ونظامه التكنولوجى ونظامه الاقتصادى مع النظام البيئى الطبيعى ممثلاً فى التربة، فألقى فيها نفاياته، وزاد من استعمال المبيدات الحشرية ومزيلات الأعشاب، وأفرط فى استخدام الأسمدة الكيماوية، وألقى فيها فضلاته من المعادن الثقيلة كل ذلك أدى إلى تلوث التربة، وانتقل التلوث عبر السلاسل الغذائية إلى جسم الإنسان، فأدى هذا إلى إصابته بكثير من الأمراض منها السرطان، والفشل الكلوى والأمراض العصبية، وقد نهى القرآن عن جميع صور الفساد فى الأرض لقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة:٣٢].

وقد ذكر كثير من المفسرين أن من بين صور الإفساد: قطع الأشجار، والتلوث البيئى بشتى أنواعه حيث يؤدى إلى إزهاق الأرواح، كما نهى رسول الله ﷺ عن التسبب فى وقوع الضرر وإلحاقه بالآخرين، فقال فى حديثه الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»، وقوله ﷺ: «من ضار أضر الله به» (رواه ابن ماجه وأبو داود).

ويقصد بتلوث التربة إضافة أو إدخال مواد غريبة فيها تؤدى عند وصولها لتركيز ما إلى حدوث تغير فى خواصها الفيزيائية أو الكيميائية أو الحيوية (البيولوجية) مصحوبًا بنتائج ضارة على كل ما هو موجود فى التربة.

ثالثاً: عوامل تلوث التربة

(أ) العوامل الطبيعية

١- البراكين. ٢- الزلازل. ٣- انجراف التربة بالمياه والرياح.

(ب) العوامل البشرية

١- تلوث التربة بالمبيدات الحشرية

تفاعل الإنسان بنظامه التكنولوجي ممثلاً في اختراع المبيدات مع نظامه الحيوى متمثلاً في الحشرات التى تصيب النباتات، مع نظامه الاقتصادى ورغبته فى زيادة الإنتاج مع النظام الأرضى وغيره من الأنظمة الفرعية الأخرى، فزاد من استخدام المبيدات للقضاء على الحشرات والآفات فلوث البيئة.

يؤدى التلوث بالمبيدات إلى تلوث التربة وحدوث آثار جانبية على صحة الإنسان والحيوان، وقتل (المحللات) الكائنات الدقيقة الموجودة بالتربة وانخفاض إنتاجها، كما يؤدى إلى نفوق الطيور البرية وإبادة الغابات الخضراء كما فعلت الولايات المتحدة فى حرب فيتنام، كما تسبب المبيدات الإصابة بالعديد من الأمراض الخطيرة مثل السرطان والأمراض الجلدية، وحدوث اضطرابات فى وظائف الكبد.

ولقد استخدم الإنسان بإسراف فى النصف الثانى من القرن العشرين المواد الكيميائية فى كل الميادين، وتعتبر المبيدات المستخدمة فى مكافحة الآفات من أخطر هذه المواد وأكثرها انتشارًا، وتتنوع أشكالها، ولكن أغلبها ينتسب إلى مجموعة المركبات العضوية المحتوية على الهالوجين، ذات الأثر الفعال فى القضاء على العديد من الفطريات والأعشاب والحشائش والحشرات، والقوارض التى تصيب النباتات والمزروعات على اختلاف أنواعها.

ويحدث تلوث التربة بالمبيدات عند استخدامها فى معاملة المزروعات المصابة،

ويعتبر هذا تلوثًا غير مباشر للتربة، وهناك تلوث مباشر عندما تستخدم المبيدات فى معالجة التربة نفسها (تمزج مع حبيبات التربة أثناء عملية الحرث والتقليب) عندما تكون الآفات موجودة فيها.

وتشير الإحصائيات إلى أن عدد أنواع المبيدات التى تم استخدامها تجاريًا على مستوى العالم هو ٤٥٠ مبيدًا معظمها تم استخدامها فى الدول النامية.

وأظهرت الدراسات أن أكثر من نصف كميات المبيدات المستخدمة تظل بالتربة إلى أجيال طويلة فتزيد من مشكلة تلوث التربة.

بعض المبيدات يتعرض للتلف بفعل عوامل المناخ، مثل الأكسد والحرارة، أو بفعل الأحياء الدقيقة الموجودة فى التربة، فتحللها وتحولها إلى مركبات أخرى أقل ضررًا، فى حين أن بعضها الآخر يقاوم ذلك ويمكن أن يستمر تأثيره السام فى التربة لعدة سنوات، فقد وجد أن مبيد (د.د.ت) قدرته عالية على البقاء فى التربة لمدة تصل إلى عشرين عامًا.

كما أن جزءًا من هذه المبيدات تجرفه مياه الأمطار ومياه الرى وتحمله إلى المياه الجوفية وإلى الأنهار والبحيرات، وبذلك تصل للإنسان عن طريق الشرب أو غير ذلك.

لقد أظهرت نتائج الدراسات الحديثة أن للمبيدات آثارًا ضارة عديدة منها:

* إن الكثير من المبيدات الكيميائية أو نواتج هدمها يمكن أن تحدث أورامًا سرطانية فى الجسم إذا زادت تركيزاتها فى أنسجة الجسم، أو تعرض لها الإنسان لفترة زمنية طويلة.
* تؤدى معظم المبيدات إلى تشوه الأجنة وإحداث طفرات وراثية (صفات جديدة) غير مرغوب فيها.
* إن ألبان ولحوم الحيوانات والطيور والبيض والأسماك تحتوى على تركيزات من بقايا المبيدات، وأن هذه البقايا تسبب أضرارًا خطيرة للإنسان.

* إن ألبان الأمهات وأنسجة ومخ وكلى ودهن وكبد الأطفال حديثى الولادة فى معظم دول العالم تحتوى على آثار من المبيدات مما يهدد البشرية والأجيال القادمة.

* وجود بقايا من المبيدات فى مياه الأمطار فى دول تستعمل هذه المبيدات، مما يؤكد انتقال المبيدات من دولة إلى أخرى ومن قارة إلى قارة؛ ولذا فالتعاون بين جميع الدول أصبح ضرورة لحماية البيئة.

* بالنسبة للكائنات الدقيقة النافعة التى تعيش بالتربة فإن المبيدات تهلك بعضها بينما يمكن بعضها الآخر أن يتحمل مستويات أعلى من هذه المبيدات، وتحللها تقلل من فاعليتها، وعادة ما توجد هذه الكائنات فى حالة اتزان مع بعضها؛ ولذا فإن المبيدات تحدث خللاً فى هذا الاتزان.

* تسبب المبيدات اختفاء الطيور صديقة الفلاح منها أبو قردان والهدهد، وغيرها من الطيور التى تنظف التربة من الصراصير والحفار والحشرات التى تفسد المزروعات، ويؤدى ذلك إلى خلل فى التوازن البيئى.

* تبين أن مبيد (د.دت) يتدخل فى العمليات الكيميائية المؤدية إلى تكوين عناصر الكالسيوم فى أجسام الطيور، ويؤدى ذلك إلى وضع هذه الطيور لبيض رقيق القشرة لا يتحمل الصدمات وقد يتهشم هذا البيض فى بعض الأحيان تحت ثقل جسم أنثى الطائر عندما تحتضنه لتدفئته مما ينتج منه موت الأجنة، وتعرض هذه الطيور للانقراض مثل النسر الأمريكى والصقر وغيرهما، ويتلخص موقف الإسلام من قضية التلوث بالمبيدات فى أن الشريعة الإسلامية تحرّم القيام بأى إفساد أو عمل يؤدى إلى هلاك الحرث والنسل. قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[الأعراف:٨٥]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة:٦٠]. وقد اتجه العلم حديثًا إلى استخدام المقاومات البيولوجية للحشرات التى لا تهدف إلى إزالة نوع معين من الحشرات إزالة كاملة، بل جعله يصل إلى مستوى عددى تصبح معه الأضرار التى يحدثها غير ذات بال على الصعيد الاقتصادى.

٢- تلوث التربة بالمخصبات الزراعية

استخدم الإنسان منذ القدم الأسمدة العضوية التى تشتمل على المخلفات الحيوانية وبقايا النبات، والتى تصبح جزءاً من الطبقة السطحية نتيجة التحلل بفعل الكائنات الدقيقة الموجودة فى التربة، وتتكون عناصر قابلة للذوبان فى الماء، فيسهل امتصاصها والاستفادة منها.

وبسبب تناقص نصيب الفرد من الأراضى الزراعية، وزيادة عدد السكان المستمر، ونظراً لاتباع أسلوب الزراعة المكثفة فى العقود الأخيرة من القرن العشرين فقد أصبح هناك استنزاف مستمر للعناصر الغذائية الموجودة فى التربة، ولتزايد الطلب على المواد الغذائية دفع كل ذلك كثيراً من المزارعين إلى استخدام أنواع مختلفة من المخصبات الزراعية، مثل مركبات النترات والفوسفات، لزيادة خصوبة التربة المتاحة لهم، وزيادة إنتاجها من المحاصيل الرئيسية التى يعتمد عليها الإنسان فى حياته.

والجزء الذى يزيد على حاجات النباتات من هذه المخصبات يسبب كثيراً من الأضرار للبيئة المحيطة بهذه التربة، حيث يذوب فى مياه الرى ويصل إلى المياه الجوفية فى باطن الأرض، ويرفع بذلك نسبة كل من مركبات الفوسفات والنترات فى هذه المياه، كما تحملها مياه الأمطار إلى المجارى المائية مثل الأنهار والبحيرات.

ولقد أوضحت نتائج الدراسات أن أيون النيتريت (No2) يؤثر فى الدم مباشرة، فيغير من طبيعته إلى حدما ويمنعه من القيام بوظيفته الرئيسية الخاصة بنقل الأكسجين من الرئتين إلى جميع خلايا الجسم، ويطلق على هذه الحالة الى يفقد فيها هيموجلوبين الدم قدرته الطبيعية على امتصاص غاز الأكسجين ونقله إلى خلايا الجسم حالة تسمم الدم ، وهى حالة خطيرة يمتنع فيها وصول الأكسجين إلى الخلايا ويموت معها الكائن الحى.

ويرى بعض العلماء أن التلوث بالنترات لا يقتصر تأثيره على تسمم الدم فقط،

بل يسبب بعض الأعراض المرضية الأخرى مثل ارتفاع ضغط الدم وظهور بعض أنواع الحساسية.

وينبغى التنويه بصعوبة إزالة أيون النترات من مياه الشرب لتكلفته المرتفعة، ولكن يمكن تخفيف تركيز النترات الموجودة فى الماء المستخرج من باطن الأرض بمزج هذا الماء مع مياه سطحية خالية من النترات، أو تحتوى على نسبة ضئيلة منها؛ وذلك لإنتاج مياه الشرب يكون تركيز أيون النترات فيها مناسبًا للاحتياجات الصحية للإنسان.

وهناك نوع من المخصبات تسمى المخصبات المعدنية، وغالبًا ما تكون غير نقية من الناحية الكيميائية لاحتوائها على الشوائب التى تضر بالتربة والمزروعات، ومن أهم هذه الشوائب العناصر الثقيلة من الرصاص والزئبق والكالسيوم، وتتراكم هذه العناصر فى التربة مع مرور الزمن وتعاقب الدورات الزراعية والمحاصيل حتى تصل إلى مستوى السمية، وعادة ما تنتقل هذه العناصر إلى النباتات ومنها إلى الحيوان والإنسان، ويعمل بعض الشوائب على تحجر حبيبات التربة وتتحول التربة الخصبة إلى أرض صماء لا تصلح للزراعة.

٣- تلوث التربة بمياه الصرف الصحى

تستخدم مياه الصرف الصحى المعالج لرى بعض الأراضى الزراعية بأنواع معينة من المحاصيل، وقد يكون ذلك مفيد جدًا للتربة الزراعية؛ نظرًا لما تحويه مياه الصرف من عناصر غذائية هامة للنبات مثل النيتروجين والفوسفور والبوتاسيوم، وبعض المواد العضوية التى تعمل على تحسن الصفات الفيزيائية للتربة، وعلى الرغم من أهمية استخدام مياه الصرف الصحى والاستفادة منها كمصدر للمياه المفقودة إلا أن هناك محاذير من كثرة استخدامها تتمثل فيما تحويه من ملوثات للأراضى الزراعية التى يمكن تحديدها:

العناصر الثقيلة

وهي تعد من أخطر الملوثات للتربة الزراعية، نتيجة ريها بمياه الصرف الصحي، وأهم هذه العناصر الكادميوم والرصاص والزئبق والنيكل والخارصين والزرنيخ والنحاس، ويختلف تأثير هذه الملوثات من منطقة لأخرى حسب المصاددر التي تشارك في تكوين مياه الصرف في تلك المناطق، وتصبح مياه الصرف جيدة كلما قلت نسبة وجود تلك العناصر بها، وتلعب صفات التربة الفيزيائية والكيميائية دوراً هامًا في تحديد مدى امتصاص العناصر الثقيلة، فنجد أن التربة تميل إلى امتصاص أكبر من تلك العناصر مقارنة بالتربة الرملية، كما أن العناصر الثقيلة تميل إلى الذوبان في التربة الحمضية أكثر من ذوبانها في التربة القاعدية، ولذلك فإن النباتات التي تنمو في التربة المخصبة تميل بوجه عام إلى تركيز العناصر الثقيلة في أنسجتها أكبر مما لو كانت في التربة القاعدية.

الأملاح

تشتمل مياه الصرف الصحي على نسبة عالية من أملاح النيترات والكلور والصوديوم والماغنيسيوم والفوسفور، ويمكن لهذه الأملاح الذائبة في مياه الصرف الصحي أن تتجمع وتتركز بدرجة ينتج عنها ما يعرف بتملح التربة، ويؤدي ارتفاع تركيز الأملاح في محلول التربة لزيادة الضغط الأسموزي وإضعاف قدرة النبات على امتصاص حاجته من الماء من هذا المحلول سواء كان ذلك عند وقت الإنبات أو النمو، مما يؤدي لانخفاض إنتاجية المحاصيل المزروعة.

رابعًا: عوامل بشرية أخرى

(أ) قطع الأشجار والرعي الجائر

إن الرعي الجائر وهو زيادة الحمولة على البيئة من الحيوانات عن طاقة المرعى يؤدي إلى اجتثاث النبات من جذورها، ومن ثم التصحّر، فلا يستفيد السكان من الأرض في

المرعى، ولا فى الزراعة، ومما لا شك فيه أن هذا إفساد للأرض وتغير كامل لطبيعتها لغير مصلحة الإنسان، وقد دعا الإسلام إلى الاعتدال والوسطية فى كل شىء، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:١٤٣].

كما دعا الإسلام إلى المحافظة على الثروة النباتية وعدم إهدارها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

وقد نزلت الآيتان السابقتان فى الأخنس بن شريق الذى أقبل على النبى ﷺ وأظهر الإسلام، ثم خرج ومر بزرع فأحرقه، وحمر فعقرها، فذكر الله أمره ووصفه بأنه من ألد المخاصمين للنبى ﷺ والإسلام؛ لما قام به من إفساد وإهلاك للحرث والنسل.

(ب) السدود والخزانات

لها آثار سلبية على التربة مثل ارتفاع مستوى المياه الجوفية فى الأماكن القريبة منها، وتغيير صفات وخواص البيئة الزراعية بظهور الأعشاب والحشرات الضارة وغيرها، أو تقليل كمية الطمى الذى يصل إلى مناطق الدلتا، مما يؤثر على خصوبة الأراضى الزراعية فى تلك المناطق.

(جـ) وسائل النقل

تعد وسائل النقل المختلفة ذات أثر فعال فى تلوث الأراضى الزراعية؛ لما ينبعث من عوادمها من نواتج احتراق تشتمل على أول أكسيد الكربون الذى يتحول فى التربة إلى حامض الكربونيك ذى الأثر الضار، وأكسيد الكبريت وأكسيد النيتروجين التى تكون أمطاراً حمضية فتعمل على زيادة ملوحة التربة ونقص إنتاجية النبات.

بعض المقترحات لمواجهة الآثار الضارة بالتربة

١ - المحافظة على الأراضى المزروعة من التدهور بسبب الأبنية السكنية أو إنشاء المصانع أو التملح وغير ذلك.

٢- استصلاح الأراضى القابلة لذلك باستخدام التقنيات الحديثة.

٣- الاهتمام بزراعة الأراضى القابلة للزراعة على المستوى العالمى والمستوى المحلى باستخدام تقنية حديثة وغير ضارة للبيئة، وهذا يتطلب تعاونًا بين الدول المتقدمة والدول النامية والفقيرة.

٤- توفير نظام صرف جيد فى الأراضى الزراعية بصفة عامة والأراضى الملحية بصفة خاصة، حتى لا تتراكم الأملاح فى التربة.

٥- توفير مياه رى جيد من حيث كميتها وما تحتويه من عناصر وأملاح لاحتياج النبات إليها جميعًا، ولكن بنسب معينة، فإذا زادت أضرت بالنبات وإنتاجه.

٦- استخدام الأساليب الحديثة فى المحافظة على التربة من الانجراف بالمياه والرياح.

٧- استخدام مياه الصرف الصحى المعالج فى رى المحاصيل التى لا يتغذى عليها الإنسان أو الحيوان.

٨- تحسين شبكة الصرف فى الأراضى للإقلال من ملوحة التربة وعدم الإسراف فى مياه الرى، واختيار تكنولوجيا حديثة فى رى المحاصيل بالطرق المتطورة.

٩- استخدام طرق غير ضارة بالبيئة لمكافحة الآفات مثل: النظافة العامة، والتخطيط المعمارى للمساكن بما يقلل من دخول الآفات، وتربية النباتات المقاومة للحشرات والأمراض، مع اختيار المواعيد المثلى لزراعة النباتات ومقاومة الحشائش.

١٠- استخدام الجاذبات الجنسية فى المكافحة البيولوجية.

١١- استخدام المكافحة البيولوجية فى القضاء على الآفات الزراعية.

١٢- التوسع فى تربية الأعداء الطبيعيين للحشرات والآفات الزراعية بصفة عامة بدلاً من استخدام المبيدات الكيميائية، التى تثبت أن أضرارها تفوق منافعها.

١٣- العودة إلى استخدام الأسمدة الطبيعية فى تسميد الأراضى الزراعية، بدلاً من

استخدام الأسمدة الكيميائية بكميات كبيرة، والتى أضرت بالتربة والنباتات المزروعة على السواء، مع قصر استخدام الأسمدة الكيميائية على الأراضى التى تحتاج إلى أنواع معينة من العناصر، أو حسب نوع التربة.

١٤- استخدام المخصبات الزراعية فى بعض الأراضى المحتاجة إلى ذلك بطرق علمية محسوبة، حتى لا يتبقى منها ما يؤثر سلبًا على البيئة.

١٥- استخدام التقنيات المختلفة للتغلب والتخلص من المخلفات السامة والملوثات الضارة للتربة، الناتجة عن استخدام المبيدات والمخصبات الزراعية مثل تقنية الموجات الصوتية التى تثبت فعاليتها فى خفض فترة نصف العمر لمبيد الباراثيون من ١٠٨ أيام إلى نصف ساعة فقط.

١٦- توعية الأفراد بالمفاهيم البيئية الخاصة بالتربة، وطرق المحافظة عليها.

١٧- تشجيع الدول على تكوين الجمعيات الأهلية الخاصة بحماية البيئة بصفة عامة والتربة بصفة خاصة.

١٨- إصدار وتطبيق التشريعات الخاصة بالمحافظة على التربة من التدهور أو التلوث بصفة عامة.

خامسا: تلوث التربة بالمخلفات الصلبة

إن تلوث التربة يحدث من جراء إدخال مواد غريبة فيها، تسبب تغير فى خواصها، فإلقاء المخلفات الصلبة كما هى بكافة أنواعها على التربة يؤدى إلى تلوثها الأمر الذى سيؤثر على كل ما يزرعه الإنسان، خاصة إذا كانت المواد الملقاة تحتوى على عناصر ثقيلة أو بقايا سوائل أو زيوت أو مواد كيميائية. وتصبح التربة مأوى مناسبًا للحشرات وللحيوانات المختلفة (الكلاب، القطط، الفئران)، ومكانًا خصبًا لتولد الذباب والجراثيم والميكروبات التى تعد مصدرًا للعديد من الأمراض والأوبئة التى يُصاب بها الإنسان،

ويؤدى ذلك إلى: انتشار الروائح الكريهة، تلوث المياه الجوفية نتيجة تسرب المكونات المختلفة للمخلفات، وتشويه للمنظر الجمالى العام.

ومما لا شك فيه أن المكان والبيئة غير النظيفة يتسبب عنها بعض الأمراض النفسية للإنسان كالاكتئاب، وازدياد حالات الانحرف والسلوك العدوانى، والتوتر النفسى، كما أن تراكم المخلفات يؤذى نظر الإنسان فيما يعرف مجازاً بالتلوث البصرى، مما يجعله فى حالة عدم الارتياح والسخط العام.

الخاتمـــة

البيئة خلقها الله لإعالة الحياة وهى مسخرة لخدمة الإنسان وهو مستخلف عليها

الغاية التى خـلقت من أجلها البيـئة هى إعالة الحـياة، من هنا يجب أن ندرك جـيداً عندما نتعامـل معها حدود قدراتها وإمكاناتهـا، التى يطلق عليها الحمولة البـيئية، إن أى تغيـير جوهرى فى عناصـر النظام البيئى ينجم عنه اضطـراب فى وظائف هذه العناصر، وتختل معها العلاقات التفاعلية التـبادلية، ومن ثم يختل التوازن البيئى، وتتحول عناصر البيئة من عناصر مفـيدة إلى عناصر ضارة، مسببة للكثير من الأخطـار التى تهدد مستقبل مسيرة الحياة.

إذا زاد حجـم العشائـر الحيويـة عن مقدار الحـمولة الـبيئـية فـإنه يظهر عـلى البيـئة ومواردها، مما يؤثر فى نوعيتـها من جهة، وعلى الكائنات الحية من جـهة أخرى، ويتوقع تحت الظروف الطبيعـية أن تتعطل القدرة الحيـوية على استمرارية النمـو أو التزايد بفعل محـددات طبيعيـة أو عوائق حضارية، كـما هو الحال بالنسـبة للإنسان والحيـوان، فعلى سبيل المثـال تتحمل المراعى شمال العـراق ربع مليون رأس من الأغنام دون أن يضطرب النظام الحيوى، ولوحظ أخـيراً أنها تضم أكثر من مليـون رأس. ومن ثم حرص الإسلام على الدعوة إلى المحافظة على عناصـر النظام البيئى، واستغلالها بحكمـة وعقلانية دون تغييـر يذكر، ليظل النظام البيئى يؤدى دوره المحدد له فى إعـالة الحياة بصورة مسـتديمة. وصدق الله العظيم إذ يقـول فى محكم آياته: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[البقرة:٢١١]

سخر الله البيئة لخدمـة الإنسان، حيث يقول الحق - تبـارك وتعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠].
وقـد اسـتـخلف اللـه فـيهـا حـيث يقــول عـز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾[الأنعام:١٦٥].

إن تسخير كل هذه النعم من البيئة وتذليلها للإنسان هو تكريم من الله -سبحانه وتعالى- للإنسان دون سائر المخلوقات حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧٠]. والاستخلاف يعني به أن الإنسان وصي على هذه البيئة (الأرض) وليس مالكًا لها، بل مستعيرًا لهـا، فالإنسان متسخلف على إدارة الأرض وإعمارها إلى حين، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة:٣٦]. ويقتضي الاستخلاف أن يتصرف الإنسان فيما استُخلف فيه تصرف الأمين فيما اؤتمن عليه من أمانات، فالبيئة سيراث للبشرية جمعاء، ورصيدها الدائم، تتوارثه الأجيال، فنحن لم نملك الأرض، وإنما استعرناها من الأجيال السابقة، ويجب أن نردها للأجيال اللاحقة سليمة دونما إهدار أو تلويث لمواردها وإمكاناتها.

لكل الأسباب السابقة كانت مهمة المحافظة على البيئة وصيانة مواردها وعدم تبديدها أو الإسراف في استغلالها فرض عين وفرض كفاية، وقد وعد الله -سبحانه وتعالى- من يبدل أنعمه بالعقاب في الدنيا والآخرة أو كليهما، ومن المسلم به أن تدمير عناصر النظام البيئي يحدث من جرائه مشكلات بيئية يعاني منها عالمنا المعاصر يعد جزءًا من العقاب الذي يتوعد به الله -سبحانه وتعالى- المبدلين لأنعمه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

خلق الله -سبحانه وتعالى- الإنسان، وحدد له مهمته في هذه الحياة. يقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]. والعبادة بمعناها الشامل لا تقتصر على أداء الشعائر الدينية من صلاة وصوم وحج وغيرها، وإنما يعنى بها الالتزام المخلص لمبادئ الإسلام وتوجيهاته في كل نواحي الحياة، فحسن استغلال موارد البيئة عبادة، والمحافظة عليها وصيانتها لتستمر إلى ما شاء الله لتنتفع بها البشرية كافة عبادة، وعدم تلويث الماء والمحافظة عليه والاقتصاد في استهلاكه عبادة، وعدم تلويث

الهواء والتربة عبادة، وحسن استغلال المرافق العامة ووسائل الملكية العامة عبادة، وعدم الصيد الجائر والرعى الجائر عبادة، ومن هذا المنظور فإن كل مفهوم للتعامل مع مكونات النظام البيئى الطبيعى والحضارى من خلال السلوكيات الإسلامية البناءة أمر من الله عز وجل له صفة الوجوب والطاعة؛ شكرًا له على أنعمه الكثيرة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٧].

لقد أحسن الله إلينا ببيئة طبيعية تتوافر فيها مقومات الحياة، فيجب علينا ألا نقابل الإحسان بالإساءة، إن سوء استغلال موارد البيئة، والعمل على تدهورها واستنزافها يبعدنا عن طريق العبادة الحق؛ لأن هذه السلوكيات الخاطئة فيها ضرر للبشرية كلها، والإسلام ينهانا عن إلحاق الضرر بأنفسنا وبالآخرين حيث يقول رسول الله ﷺ: «لا تجن نفس على أخرى»، ويعتبر سوء استغلال موارد البيئة والعمل على استنزافها وتلويثها وعدم صيانتها وعدم استغلالها بحكمة وعقلانية نكرانًا وجحودًا بأنعم الله، والكفران والجحود بنعم الله مدعاة لكثير من المآسى والكوارث حيث يقول ربنا- سبحانه وتعالى-: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢].

❊ ❊ ❊

واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية

بقلم: د / محمود السيد حسن داود (*)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ورحمة الله للناس أجمعين سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى آله وأصحابه والتابعين .. وبعد

فإن من مظاهر التكريم الربانى للإنسان فى هذه الحياة ، أن أوجد له البيئة الطبيعية الصالحة لحياته ، المهيأة له على أحسن وجه ، والقائمة على أدق نظام ، وذلك واضح من إصلاح الله عز وجل لها المذكور فى قوله تعالى: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف:٨٥]، ومع إصلاحها يذللها الله عز وجل له تذليلا كاملا ، على النحو الذى أثبته فى كتابه ، وفى أكثر من موضع ، كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[لقمان:٢٠] ، وقوله تعالى : " هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقوله تعالى : ﴿ ... وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم:٣٣-٣٤]، وذلك كله ليتمكن الإنسان من أداء مهامه الأساسية التى من أجلها خلق ، وبسببها وجد، وعليها يوم القيامة سيوقف ويسأل ويحاسب ، وهى عبادة الله عز وجل ، على النحو الذى شرع ، وإقامة الحق والعدل ونشر الخير والصلاح بالكتاب الذى أنزل، وتعمير الأرض بالغرس والبناء والإصلاح والإحياء بالضوابط التى أحكم .

(*) أستاذ القانون الدولى العام المساعد بكلية الشريعة والقانون بدمنهور - جامعة الأزهر.

ولمكانة البيئة النظيفة فى حياة الإنسان وأهميتها بالنسبة له ، لم تكن العلاقة بينهما مجرد علاقة سطحية أو عفوية ، بل تترقى هذه العلاقة إلى أعلى درجاتها فتصبح علاقة عضوية، ليبدو الإنسان وكأنه جزء من البيئة أو أن البيئة جزء منه، وأثبت ذلك المولى عز وجل فى كتابه فيقول: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (1) ، وتثمر هذه العلاقة العضوية ثمارا طيبة، لدرجة أن يتبادل الإنسان مع هذه البيئة التى تبدو صماء جامدة ، مشاعر الحب والرحمة ، والشوق والألفة ، ومن ذلك ما جاء عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ :« " *هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ*»(2)، وسمع وصف مكة من " أصيل " فجرى دمعه حنينا إليها ، وقال : يا أصيل : دع القلوب تقر"، ويروى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الْحَمْرَاءِ قَالَ لَهُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ (3) يَقُولُ : وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ " (4).

ويثبت الله عز وجل مثل هذه المشاعر لهذه البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان ، ومن

---

(1) نوح ، الآية رقم ١٧ ، ١٨ . والتعبير فى هاتين الآيتين عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب وموح، إذ يشير إلى الوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات، من عناصرها الأولية يتكون ، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو فهو نبات من نباتها وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة ، وكلاهما من نتاج الأرض وكلاهما يرضع من هذه الأم ، وهكذا ينشئ الإيمان فى المؤمن تصورا حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور .يراجع سيد قطب ، فى ظلال القرآن، دار الشروق ، ط السادسة عشرة ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م ، ج٦ ، ص ٣٧١٤، ٣٧١٥

(2) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، باب نزول النبى ـ صلى الله عليه وسلم الحجر ، وأيضا صحيح مسلم كتاب الحج ، باب : أحد جبل يحبنا ونحبه .

(3) الحزورة موضع بمكة عند باب الحناطين ، وهى فى الأصل بمعنى التل الصغير ، وسميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير ، وقيل لأن وكيع بن سلمة كان ولى أمر البيت بعد جرهم وبنى هناك صرحا ،وحصل هناك أمة يقال لها حزورة فسمى هذا الموضع بهذا الاسم .

(4) سنن ابن ماجة ، كتاب المناسك ، باب فضل مكة ، وأيضا سنن الترمذى ، كتاب المناقب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باب فى إخراج النبى من مكة .

ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾[الدخان:٣٩]، وفى ذلك يقول مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا " ، قال أبو يحى : فعجبت من قوله ، فقال : أتعجب ، وما للأرض لا تبكى على عبد يعمرها بالركوع بالسجود، وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوى كدوى النحل(١).

وحيث إن الإسلام دين شامل، له فى كل مجال، أحكامه العظيمة، وتعاليمه الكريمة، وضوابطه الدقيقة ، وأن مجال البيئة من أهم مجالات الإنسان، وخاصة فى هذا العصر، فإن الإسلام ينظر إلى حماية البيئة من التلوث على أنها واجب من أهم الواجبات الشرعية ، وضرورة من الضرورات البشرية ، وقد درس فقهاء الإسلام هذا الواجب ، وتركوا ثروة فقهية عظيمة من الضوابط والقواعد الشرعية التى يتم من خلالها إعمال هذا الواجب وغيره من الواجبات، وهذه الضوابط يجمعها ما يعرف بين فقهاء المدارس الإسلامية بمسمى " علم القواعد الفقهية " ، أو علم " الأشباه والنظائر " (٢).

ولعله من أهم القواعد العامة فى الفقه الإسلامى أن كل حق يقابله واجب فى الفقه الإسلامى ، لأن ميزان العدل فى الإسلام يقتضى أن يعطى المرء من الحقوق مثل ماعليه من الواجبات ، ودليل ذلك قوله تعالى " ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف " ، وإذا كان

---

(١) يراجع : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبى ، مكتبة الغزالى ، مؤسسة مناهل العرفان ، المجلد الثامن ، ج ١٦، ص١٤٠

(٢) فى بيان مكانة علم القواعد الفقهية أو علم الأشباه والنظائر يقول الإمام جلال الدين السيوطى وهو يتحدث عن العلماء الذين أبدعوا فى هذا الفن : " ولقد نوعوا هذا الفقه فنونا وأنواعا ، وتطاولوا فى الاستنباط يدا وباعا ، وكان من أجل أنواعه معرفة نظائر الفروع وأشباهها ، وضم المفردات إلى أخواتها وأشكالها ، ولعمرى أن هذا الفن لا يدرك بالتمنى ، ولا ينال بسوف ولعل ولو أنى ، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجد وشمر ، واعتزل أهله وشد المئزر ، وخاض البحار وخالط العجاج ولازم الترداد إلى الأبواب فى الليل الداج ، يدأب فى التكرار والمطالعة بكرة وأصيلا ، وينصب نفسه للتأليف والتحرير بياتا ومقيلا ، ليس همته إلا معضلة يحلها أو مستصعبة عزت على القاصرين فيرتقى إليها ويحلها ، يرد عليه ويرد ، وإذا عذله جاهل لا يصد ، قد ضرب مع الأقدمين بسهم ...، وحلق على الفضائل واقتنص الشوارد ، وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ..." كتاب الأشباه والنظائر فى الفروع ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ٢ ، ٣ .

التمتع بالبيئة الصحية حق من حقوق الإنسان ، فإنه لا بد وأن يقابل هذا الحق واجب يقتضى ضرورة محافظة كل إنسان على هذه البيئة من التلوث ، والذى يهمنا فى هذا البحث هو بيان هذا الواجب من حيث دعائمه التى يقوم عليها، ومجالاته التى يتسع لها، ولا بد أن يسبق ذلك مفهوم البيئة وبيان أن الأصل فيها هو النظافة ، وعلى هذا فإننا سنقسم القول فى هذا البحث إلى مبحثين :

المبحث الأول : مفهوم البيئة وبيان أن الأصل فيها هو النظافة .

المبحث الثانى : حماية البيئة كواجب فى مقابل التمتع بها كحق .

والله العظيم أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه سبحانه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يرزقنا علما نافعا ، وقلبا خاشعا، ورزقا واسعا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

المبحث الأول
مفهوم البيئة وبيان أن الأصل فيها هو النظافة

أولا : مفهوم البيئة

البيئة : كلمة يرجع جذرها اللغوى إلى مادة " بوأ "، ومنه الفعل الماضى " باء " ، و"تبوأ "، و " استباء "، وهذه المادة تأتى فى اللغة بمعان متعددة ، منها :

- **الرجوع** : يقال باء بالشيئ بوءا وبواء بمعنى رجع ، وفى التنزيل العزيز فى حق بنى إسرائيل قوله تعالى: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ﴾[البقرة:٦١] .

- **الإقرار والاعتراف والتحمل** : ويقال باء به وباء بما عليه بمعنى احتمله وأقر به واعترف ومنه قوله تعالى : " إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾[المائدة:٢٩].

- **التكافؤ والمساواة** : ومنه يقال باء فلان بفلان أى قتل به وهو كفء له، وباوأه كان دمه كفئا لدمه ، ويقال أيضا تباوأ القتيلان فى القصاص أى تعادلا.

- **النزل والإقامة والتهيئة والإعداد** : ومنه يقال بوأ فلانا منزلا ، أى أنزله فيه، وفى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[العنكبوت:٥٨]، وبوأ المنزل له أعده ، وتبوأ المكان أى نزل به وأقام فيه ومنه قوله تعالى : " وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[الحشر:٩]، أى الذين سكنوا وأقاموا بالمدينة من الأنصار ، ومنه قوله تعالى أيضا : ﴿ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[يونس:٨٧]، أى اتخذا بها إقامة وسكنا .

- ومن هذه المعانى الأخيرة جاءت كلمة بيئة بمنى المنزل وبمعنى الحال أيضا، ومنه يقال بيئة طبيعية ، وبيئة اجتماعية وبيئة اقتصادية وبيئة سياسية وغير ذلك[1] ، وفى

(١) المعجم الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية ، باب الباء ، ص ٧٧ .

بعض اللغات الأخرى تعنى كلمة بيئة Environement مجموعة العوامل الطبيعية والثقافية التى يمكن أن تؤثر على الكائنات الحية والأنشطة الإنسانية، ويتخذ بعض الإجراءات لحماية هذه البيئة من التلوث[١] .

وحيث إن علم البيئة قد نشأ فى رحاب العلوم الطبيعية لتنميتها وبيان مدى إمكانية الانتفاع بهـا أولا ، ثم فى رحاب العلوم الإنسانية والفقهية والقانونية لحمايتها وتحريم الاعتداء عليها ثانيا فإن مفهوم البيئة يجب أن يرجع فيه إلى هذه العلوم ، وبناء على ذلك ففى علم البيئة الحديث تعرف البيئة بأنها : الوسط أو المجال المكانى الذى يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها ، وبعبارة أخرى هى : كل ما تخبرنا به حاسة السمع والبصر والشم والتذوق واللمس سواء أكان هذا من خلق الله سبحانه وتعالى " ظاهرات طبيعية " أم من صنع الإنسان " ظاهرات بشرية".

ومع أن مصطلح البيئة قد استعمل اليوم فى كثير من العلوم ، إلا أن العلوم التى تواجه صعوبات عديدة فى تعريفها للبيئة هى العلوم القانونية أو الفقهية الإسلامية ، وترجع هذه الصعوبة إلى أن مفهوم البيئة فى ضوء هذه العلوم هو الذى سيبين مجال تطبيق القوانين الداخلية أو الدولية الخاصة بالبيئة، وبصفة خاصة تطبيق العقوبات التى تلزم من جراء تلويث البيئة أو الإضرار بها عن طريق ما يسمى بجرائم البيئة ، ولذا نلمس تباين القوانين ووجود اتجاهين كبيرين فى تعريف البيئة يتراوحان بين السعة والضيق فى بيان المفهوم القانونى لها ، ومما يمثل هذين الاتجاهين من التعريفات ما يلى :

التعريفات الموسعة

ومنها تعريف المشرع المصرى فى القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بشأن البيئة ، حيث ورد فى المادة الأولى منه تعريف البيئة بأنها: " المحيط الحيوى الذى يشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد وما يحيط بها من هواء وماء وتربة وما يقيمه الإنسان من منشئات"[٢] ، وكذلك تعريف المشرع التونسى فى المادة الثانية من القانون رقم ٩١ لسنة

(1) Le ROBERT : Dictionnaire d aujourd hui , Alain Rey , France loisirs, Paris 1993 , P.368 .

(٢) القانون المصرى رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بإصدار قانون فى شأن البيئة ، ط الثانية ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٣ .

١٩٨٣ حيث عرف البيئة بأنها : " العالم المادى بما فيه الأرض والهواء والبحر والمياه الجوفية والسطحية والأودية والبحيرات وما يشابه ذلك ، وكذلك المساحات الطبيعية والمناظر الطبيعية والمواقع المتميزة ومختلف أصناف الحيوانات والنباتات وبصفة عامة كل ما يشمل التراث الوطنى " ، وبهذا يتضح أن هذا الاتجاه يوسع فى مفهوم البيئة لتشمل الوسط الطبيعى والوسط الصناعى أيضا (١).

التعريفات المضيقة:

ومنها تعريف المشرع الليبى حيث عرف البيئة فى م ١ / ١ من القانون رقم ٧ لسنة ١٩٨٢ بأنها : " المحيط الذى يعيش فيه الإنسان وجميع الكائنات الحية ويشمل الماء والهواء والتربة والغذاء " ، ويتضح من هذا التعريف أنه يميل إلى حصر مفهوم البيئة فى الوسط الطبيعى فقط دون الصناعى (٢) .

ولا تخرج تعريفات فقهاء القانون بصفة عامة وفقهاء القانون الدولى بصفة خاصة عن هذه التعريفات التى تؤكد أن البيئة تشمل العنصر الطبيعى أو الأصيل من ناحية والعنصر الصناعى أو المستحدث من ناحية أخرى (٣)، لكنهم يركزون فى بيان المصطلحات على التفرقة بين مصطلح البيئة ومصطلح الطبيعة حيث لا يتطابق كل منهما مع الآخر تماما ، لأن مصطلح البيئة أوسع من مصطلح الطبيعة ، فإذا كانت الطبيعة

---

(١) وطبقا لهذا الاتجاه أيضا جاء تعريف معجم المصطلحات القانونية ، حيث يرى أن البيئة : " تعنى الوسط الطبيعى والحضرى والصناعى الذى يعيش فيه الإنسان ، والمحمى ببعض التشريعات الوطنية والدولية.
LEXIQUE de Termes Juridiques , 8e Edition DALLOZ , 1980, Raymond Guillien et Jean Vincent , sous La direction de Serge, Guincharo Gabriel Montagnier , P.216 .

(٢) فى أمثلة أخرى عديدة لتعريف البيئة يراجع : د.فرج الهريش ، جرائم تلويث البيئة دراسة مقارنة ، ط الأولى ١٩٩٨ ، ص ٣٥ وما بعدها . ثم يستخدم مصطلح البيئة فى الوسط الدولى إلا لأول مرة فى مؤتمر الأمم المتحدة عن البيئة الذى انعقد فى استكهولم بالسويد فى ٥ ـ ١٦ يونيو ١٩٧٢ بدلا من مصطلح الوسط البشرى الذى استخدم فى مراحل الإعداد لهذا المؤتمر . يراجع د. صلاح عامر ، القانون الدول للبيئة ، مجلة القانون والاقتصاد ، عدد خاص ١٩٨٣ ، هامش ٦٨٢ .

(٣) د. أحمد الرشيدى ، الحماية الدولية للبيئة : الجوانب القانونية والتنظيمية ، السياسة الدولية، عدد ١١٠ ، أكتوبر ١٩٩٢ ، ص ١٣٧

تتضمن فقط العناصر الطبيعية المحيطة بحياة الإنسان ، والتى وجدت دون تدخل منه ، فإن البيئة تشمل بالإضافة إلى هذا العنصر العناصر الأخرى الناشئة من حصيلة التدخل والتفاعل المستمر بين الإنسان والعلم والبيئة ، وهذه العناصر هى العناصر المضافة أو الناجمة عن النشاط الإنسانى كالمنشات الحضرية وغيرها [1]

والذى يهمنا فى هذه الدراسة هى البيئة الطبيعية أو العناصر الطبيعية فى البيئة[2]، تلك العناصر التى ينظر إليها الإسلام على أنها ملكية عامة ، وأن المحافظة عليها ضرورة من الضرورات أو واجب من الواجبات الهامة ، حتى يستمر الوجود ويتمتع بها سائر الكائنات ، ويهتم بها الإسلام اهتماما بالغا سواء فى بعدها الزمانى، الذى يشمل الزمان كله " قُلْ سيرُوا فى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كيفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ ينشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شىَء قَديرٌ﴾ [العنكبوت:٢٠]، أو بعدها المكانى الذى يشمل الأرض كلها " وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيرٌ لكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمنِينَ ﴾[الأعراف:٨٥].

ويركز القرآن الكريم تركيزا شديدا على الصورة الجمالية لهذه البيئة الطبيعية، والتى تعجز البشرية عجزا تاما عن الارتقاء إلى تنظيمها ودقتها ، وبالتالى فلا تملك إلا الإذعان

(١) يراجع فى هذه التفرقة د. محمد حسام محمود مصطفى ، الحماية القانونية للبيئة المصرية دراسة للقوانين الوضعية والاتفاقات الدولية النافذة ، القاهرة ٢٠٠١، ص ٨، وأيضا د. سعيد سعد عبد السلام ، مشكلة تعويض أضرار البيئة التكنولوجية ، دار النهضة العربية، ص١٣ .

والتميز بين البيئة والطبيعة لا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية للبيئة ، فإذا كان الله تعالى قد خلق الطبيعة بمكوناتها المعروفة ، وكان الإنسان هو الذى صنع الجانب الحضرى للبيئة ، فهذا ما يتفق مع تعاليم فكرة خلافة الإنسان فى الأرض ، وتحميله بواجب عمارتها وتحضيرها . يراجع فى ذلك د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص ٢٩ .

(٢) تحدد البيئة الطبيعية بأنها من صنع الله عز وجل ، وتشمل كل ما بثه الله تعالى فى الكون ، وتشكل ذلك الوسط الطبيعى الذى توجد فيه الحياة ، وتسير على نهجها الفطرى ويمكنها من الاستمرار دون تدخل من جانب الإنسان، وتشمل الجبال والأودية والبحار والأنهار وأشعة الشمس والهواء ، وكذلك الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات . يراجع : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص ٢٨ .

لو اجب المحافظة عليها وضرورة حمايتها ، ومن ذلك قوله تعالى : " الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِنْ طِين﴾ [السجدة:٧]، ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِى وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَىْء مَوْزُون﴾[الحجر:١٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوج وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِى وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْج بَهِيج تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْد مُنِيب وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّات وَحَبَّ الحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَات لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الخُرُوجُ﴾[ق:٦-١١] ، وقوله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[عبس:٢٤-٣١] .

وحيث إن البيئة الطبيعية وما يحيطها من غلاف جوى هى محل استخلاف الله للإنسان، فلقد أوجدها الله عز وجل على أحسن حال ، وهيأها على أكمل صورة ، ليتفرغ بعد ذلك للهدف الأول والمهمة الأساسية التى من أجلها خلق ، وهى إفراد الله عز وجل بالعبودية على النحو الذى شرع ، وبالتالى فإن البيئة نظيفة بطبيعتها ، ولا تقتضى من الإنسان إلا حمايتها أو منعها من التلوث .

ثانيا : الأصل فى البيئة النظافة والتهيئة على أكمل وجه :

والمدقق فى حال البيئة من حولنا يستطيع أن يدرك أن الأصل فيها هو النظافة التامة والعناية الفائقة والتهيئة على أكمل وجه ، ليعيش فيها الإنسان ويتمتع بها بوصفه إنسانا فقط دون النظر إلى لونه أو لغته أو جنسه أو دينه ، وذلك لأن البيئة الطبيعية لا تفرق عند

الانتفاع بها بين مؤمن وكافر ولا بين أبيض وأحمر ، كما لا يفرق التلوث أيضا بين الأجناس والألوان والأديان عند حدوثه أيضا [١].

ومما يدل على أن الأصل فى البيئة النظافة والتهيئة على أكمل وجه إيجاد الحماية الطبيعية بها، ووجود التوازن والتقدير الربانى فيها ، والتذليل والتسخير الكامل لها، وذلك على النحو التالى :

(أ) طبيعية الحماية :

ذلك أن الله عز وجل لم يودع فى البيئة كل مقومات الحياة ومتطلبات الإنسان فقط، بل جعل فيها نوعا من الحماية الطبيعية عندما أحاطها بغلاف جوى هائل ، ذلك السياج المنيع أو الدروع الواقية العظيمة التى تقى الأرض إذا ما دهتها الأخطار الممثلة فى الشهب والنيازك والتى يمكن أن تنحرف قليلا عن مسارها وتضر بالكرة الأرضية ، ولعل هذه الدروع الواقية هى التى أشار إليها المولى سبحانه بقوله " وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء:٣٢]، ولعل أهم ما يتضمنه الغلاف الجوى هو طبقة الأوزون الواقية التى تعمل على ترشيح وتنقية ضوء الشمس فتسمح بمرور الأشعة المفيدة وتمنع مرور الأشعة الضارة ، ولعل أهمية هذه الطبقة الواقية تتضح من القلق العالمى الرهيب الذى انتاب العالم عندما اكتشف ما عرف بمشكلة " ثقب الأوزون " [٢].

---

(١) ويلخص البعض ما تتميز به البيئة الطبيعية فى هذا الخصوص ، ويرى أن البيئة الطبيعية كما خلقها الله تعالى تتميز بأمرين أساسيين هما : الأول : أن هذه البيئة مهيئة بكل ما فيها لمصلحة الإنسان ، وخدمة الإنسان ، وتوفير حاجات الإنسان ، وعلى أساس ذلك جعل تربة الأرض خصبة قابلة للزراعة والإنبات ، ثم هيأ الله عز وجل أيضا الماء الذى يحيى الأرض بعد موتها ، وجعله أساس الحياة للإنسان والنبات والحيوان ، ثم سخر له مع ذلك الشمس والقمر وسائر ما فى هذه البيئة الطبيعية . الثانى : أن هذه البيئة كلها بجوانبها المختلفة يتفاعل بعضها مع بعض ، ويتكامل بعضها مع بعض ويتعاون بعضها مع بعض وفق سنن الله تعالى فى الكون . فالشمس فى السماء تعطى الأرض من ضوئها وحرارتها ما لا تقوم الحياة بدونه ، وهى تعطى هذا العطاء بلا توقف ولا من ولا أذى ، وفق نظام لا يتبدل ، وكذلك القمر يعطى نوره للأرض ، كما يؤثر فى ظاهرة المد والجزر ، وكل هذا يثبت أن البيئة الطبيعية مهياة لخدمة الإنسان على أكمل وجه . يراجع فى ذلك د. يوسف القرضاوى ، رعاية البيئة فى شريعة الإسلام ، دار الشروق ، ط الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١ م ، ص ١٢ : ١٤ .

(٢) فى بيان أهمية طبقة الأوزون يراجع : د.عبد الرحمن جيرة ، الإسلام والبيئة ، دار السلام ، ط الأولى ، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م ص ١٠٨ وما بعدها ، وحول مشكلة ثقب الأوزون يراجع أيضا محمد الفقى ، البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث ، مكتبة ابن سينا ، ص ١٦٩ وما بعدها.

(ب) ربانية التوازن والتقدير:

ومما يدل على أن الأصل فى البيئة النظافة أيضا، التوازن العظيم والدقة المتناهية التى أوجدها الله عز وجل فيها ، وهذا ما عبر عنه المولى بقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩]، وقوله تعالى :﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨]، وقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[النمل:٨٨]، وقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾[الحجر:١٩].

وعلى هذا فقد أوجد الله عز وجل البيئة بمعطيات محددة ومقادير معينة بحيث تكفل هذه المقادير القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للبشر وباقى الكائنات التى تحيا على وجه الأرض ، ولذا فإن البيئة على حالتها الطبيعية دون تدخل من البشر تكون متوازنة على أساس أن كل عنصر من عناصر البيئة الطبيعية قد خلق بصفات محددة يكفل للبيئة توازنها، وهذا ما سمى بالتوازن البيئى (١) .

(جـ) كمال التذليل والتسخير:

ذلك أن الله تعالى لما خلق البيئة مهيأة على أكمل وجه للحياة الإنسانية بها، ذللها وسخرها للإنسان تذليلا وتسخيرا كاملا وقد ركز القرآن الكريم على بيان هذا التذليل والتسخير (٢) فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي

---

(١) التوازن البيئى يعنى بقاء عناصر ومكونات البيئة الطبيعية على حالها كما خلق الله تعالى وأى تغيير فيها يعنى اضطراب فى توازنها بحيث تصبح غير قادرة على تقديم سبل الحياة للبشر بشكل عادى . يراجع فى ذلك محمد الفقى، البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث ، مكتبة ابن سينا ، ص ٢٨ ، ٢٩ . كما يراجع : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص ٣٣ . ولعله من عظمة التوازن ودقة التقدير ما أظهرته العلوم الحديثة من أن حجم الأرض وكتلتها وموقعها من الشمس والقمر وانتظام دورتها حول نفسها وحول الشمس وتداول الليل والنهار وتداول الفصول الأربعة وتوازن الحرارة والبرودة فيها، وتوزيع الأقوات والأرزاق بها كل ذلك موزون ومحسوب .

(٢) وتذليل البيئة أوتسخيرها للإنسان يشير إشارة دقيقة إلى حق الإنسان فى التمتع بهذه البيئة الحسنة النظيفة ، وهو حق بالمعنى الواسع ، إذ أنه يشمل إمكانية قيام الإنسان بالبحث العلمى فى خواص البيئة وأسرارها وإمكانية الانتفاع بمواردها المادية وغير ذلك ما يدخل فى كلمة الحق ، وهذا هو ما أقره فرع القانون الدولي للبيئة من حق الإنسان فى بيئة صحية مناسبة . حول هذا الحق يراجع استاذنا د. جعفر عبد السلام ، حق الإنسان فى بيئة=

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠] ، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[إبراهيم:٣٢-٣٣]، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥]، وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الجاثية:١٢] .

ومع أن البيئة قد خلقها الله عز وجل نظيفة مهيأة للحياة الإنسانية على أكمل وجه ، إلا أن القرآن الكريم وهو الكتاب الخالد والمعجز على مر الدهور والعصور يتنبأ بتدخل يد الإنسان فى البيئة وإفساده فيها وتلويثه لها، وذلك على الرغم من حاجته الماسة إلى نقائها ونظافتها وتوافر بعض عناصر الحماية الطبيعية لها.

الإعجاز القرآنى فى التنبؤ بفساد البيئة :

على الرغم من البيئة أن قد خلقت نظيفة ، إلا أننا نعيش اليوم مشكلة التلوث والفساد البيئى، ولا شك أن هذه المشكلة ترجع فى جزء كبير منها إلى التقدم الصناعى والتكنولوجى ، وما استخدمه الإنسان من الأسمدة والمبيدات الكيميائية والآلات الميكانيكية والسيارات والطيارات وغير ذلك مما يبث آلاف الأطنان من الأدخنة والغازات فى الهواء أو يصب المخلفات والنفايات فى مياه الأنهار والبحار أو يدفنها فى باطن الأرض ، ولهذا فإن الاهتمام القانونى الحقيقى بقضايا البيئة لم يكن إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وخاصة بعدما دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى عقد مؤتمر دولى لمناقشة الأخطار المحدقة ببيئة الإنسان ، والذى انعقد فعلا بمدينة استكهولم

= صحية مناسبة ، بحث مقدم إلى مؤتمر الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران ، المنعقد فى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة اليرموك ، الأردن، بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم "الإيسيسكو" فى الفترة ٣-٥ / ٦/ ٢٠٠٣

بدولة السويد فى الفترة من ٥ إلى ١٦ من يونيو عام ١٩٧٢م،[١] ، حتى فى الدول الأكثر تقدما كفرنسا ، فإن أول وزارة للبيئة بها لم تنشأ إلا فى عام ١٩٧٠ ، وكان وزير البيئة يومها يصف نفسه بأنه وزير المستحيل نظرا للصعوبات التى كانت تكتنف العامل بينه وبين الوزارات الأخرى فضلا عن الغموض الذى كان يحيط بأعمال هذه الوزارة[٢] .

إلا أن الإسلام قد اكتشف هذا التدهور مبكرا منذ مجيئه ، ويكفى فى بيان ذلك قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ، والفساد الذى تشير إليه الآية هو الاضطراب والخلل الذى يدخل على الشىء فيغير من خواصه وطبيعته ويجعله غير صالح لأداء وظيفته التى خلق لها ، وبهذا المعنى يكون الفساد شاملا لكل أنواع التعدى على البيئة بكل قطاعاتها المائية

---

(١) يراجع فى ذلك د. ضياء الدين محمد عطية ، مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة ٥، ص ١٨ ، وأيضا :
Jacqueline Morand Deviller : Le droit Francais de l environmnt , P.1 .
بحث منشور فى مجلة القانون والاقتصاد ، السنة الواحدة والخمسون ، ١٩٨١ ، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٣
ومما يدل على أن الوعى البيئى لم يعرف إلا حديثا ما كان يفعله الصليبيون فى العصور الوسطى ، حين كانوا ينهون عن النظافة ، وينظرون بعين الكراهية إلى الاغتسال ، وكان القديسون يفخرون بأن الماء لم يمس أقدامهم ولم يعرفوا طهارة البيئة ونظافتها إلا بعد أن عاشروا المسلمين وعرفوا الإسلام واصطدموا بالأمة الإسلامية التى يتطهر أفرادها فى اليوم خمس مرات، فرجعوا إلى بلادهم ومعهم نور الحضارة الإسلامية ، وقد امتلأت قلوبهم حسرة على ماضيهم الذين عاشوه فى قذارة ودنس . يراجع فى ذلك : د.عبد الرحمن جيرة، الإسلام والبيئة، دار السلام، ط الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ص ١٦، ١٧ .كما يراجع فى حداثة الاهتمام بقضايا البيئة بصفة عامة : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص ١٠ ، وما بعدها ، كما يراجع:
Jean Combacou et Serq Sur : Droit International Publuc , 2e Edition , Montchrestion , Paris 1995 , P.509 .)
46 (- Jacqueline Morand Deviller : Le droit Francais de l environment , P.1
بحث منشور فى مجلة القانون والاقتصاد ، السنة الواحدة والخمسون ، ١٩٨١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ .
(٢) الروم آية رقم ٤١ . ومما يقدمه لنا القرآن أيضا فى مجال التنبؤ بفساد البيئة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

والجوية والبرية ، وسواء تمثل هذا الفساد فى تلويث تلك القطاعات أو فى استنزاف مواردها الطبيعية [1].

والمدقق فى الآية السابقة يشعر بأنها تشير بوضوح إلى ما تعانية البشرية بوضوح اليوم من خلل فى التوازن البيئى " ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ وَالبَحْرِ " ، وأن من وراء هذا الخلل يد قوية تعمل فى الخفاء ، هذه اليد هى يد الإنسان " بِمَا كَسَبَتْ أَيدِى النَّاسِ " ، ولقد ترتب على هذا الضرر إلحاق الأذى بالإنسان وسائر الكائنات التى تعيش معه " لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا " ، وكما تنبأت هذه الآية بفساد البيئة فإنها أيضا تتنبأ بما تحاول البشرية فعله اليوم من إنقاذها وتطهيرها وتنقيتها وذلك هو قوله تعالى: " لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ".

وحيث إن الإسلام هو صاحب التنبؤ بفساد الإنسان للبيئة ، فإن العلماء المسلمين أيضا هم أول من أشاروا إلى ذلك الفساد وأول من حاولوا علاجه، وعلى رأسهم العلامة ابن خلدون حيث يقول فى مقدمته[2]: " .. ثم إن الأهوية فى الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات، والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الثرة الحار الغريزى فى الهضم ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم فى الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثرا ، فكان وقوع الأمراض كثيرا فى المدن والأمصار على قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة .....".

---

(١) يراجع فى ظهور الفساد وبيان أسبابه والتى يجعلها البعض فى تغيير حلق الله والظلم والعلو فى الأرض واتباع الهوى وانحراف الإنسان عن الميزان الكونى والكفر بأنعم الله . . يراجع فى ذلك د. يوسف القرضاوى ، رعاية البيئة فى شريعة الإسلام ، دار الشروق ، ط الأولى ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١ م ، ص٢١٩ وما بعدها

(٢) يراجع : مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مطبوعات مكتبة ومطبعة عبد السلام بن محمد بن شقرون ، مصر ص ٣٦٨ .

وعلى الرغم من أن موضوع البيئة وحمايتها ومنع تلوثها كان يتم التطرق إليه فى كتب الطب الموسوعية الإسلامية التى زخرت بها الحضارة الإسلامية فى عصر التقدم والنهضة ككتاب "القانون" لابن سينا ، إلا أن التراث الإسلامئ زخر أيضا ببعض المؤلفات الخاصة بموضوع صحة البيئة والتى تثبت أن العلماء المسلمين كان لهم السبق فى هذا المجال ، ومن هذه المؤلفات ، كتاب : " نعت الأسباب المولدة للوباء فى مصر وطريق الحيلة فى ذلك ، وعلاج ما يتخوف منه " لابن الجزار أحمد بن إبراهيم القيروانى ، المتوفى سنة ٣٦٩هـ ـ ٩٨٠م ، وكتاب " مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء " لمحمد بن أحمد التميمى، وغيرها من الكتب .

يراجع فى عرض هذه الكتب وغيرها فى : المؤلفات البيئية فى تراثنا العلمى ، أ.م. لطف الله قارى، بحث منشور بمجلة : المنهل، السعودية ـ جدة ، العدد ٥٨٣ شوال / ذو القعدة ١٤٢٣هـ ـ ديسمبر ٢٠٠٢ / يناير ٢٠٠٣م ، ص ٢٣٠ : ٢٤٣ .

المبحث الثاني
حماية البيئة كواجب فى مقابل التمتع بها كحق

إذا كان الله عز وجل قد خلق البيئة الطبيعية نظيفة ، وهيأها لأن يعيش فيها الإنسان سعيدا وهانئا ، بل وبات من أهم حقوق الإنسان اليوم هو حقه فى التمتع بهذه البيئة النظيفة ، فإن هذا الحق لابد وأن يقابله واجب، هذا الواجب هو التزام كل من عدا صاحب الحق بألا يقف فى سبيل التمتع بهذا الحق من ناحية والتزام صاحب الحق نفسه فى أن يكون استعماله لحقه غير مضر باستعمال الآخرين لحقوقهم من ناحية أخرى ، وهذا يعنى أن الإسلام حينما يعطى الإنسان حق التمتع بالبيئة النظيفة ، فإنه يوجب على غيره ألا يحولوا دون هذا التمتع من ناحية ، وألا يكون استعمال الإنسان لهذا الحق حائلا دون تمتع الآخرين بحقوقهم من ناحية أخرى.

وهذه قاعدة عامة فى الفقه الإسلامى [١]، يستوى فيها كل الحقوق سواء أكانت من قبيل الحق العام كالحق فى التمتع بالبيئة النظيفة ، والحق فى المرافق العامة كالمستشفيات أو المدارس ، أم كان من قبيل الحق الخاص كحق الإنسان فى سيارته، أو فى مسكنه أو فى حقله أو فى مصنعه أو غير دلك مما يملكه الإنسان ملكية خاصة [٢].

---

(١) ولقد صاغ بعضهم هده القاعدة بقوله : " ميزان العدل فى الإسلام أن يعطى المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات ، فكل حق يقابله واجب كما يقول الفقهاء، وذلك قوله تعالى : " وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيهِنَّ بِالمَعْرُوف" ويجرى هدا الحكم على كل قضية من القضايا المتعلقة بالحقوق والواجبات" يراجع : د. محمد بكر إسماعيل ، القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه ، دار المنار ، ط الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٧ م ، ص ٣١١ : ٣١٣ .

(٢) وقد بين البعض ذلك ، بضرب أمثلة كثيرة لهذا الحق ، ومنها حق الحياة حيث يوجب على صاحب الحق نفسه ألا يتعرض للهلاك ، فيحافظ على حياته ، كما يوجب على الناس أن يحترموا هدا الحق فلا يعتدوا عليه ، وكذلك حق الحرية الذى يوجب على الدولة والأفراد معا ألا يتدخلوا فى حرية أحد، ما لم تقتض المصلحة او الضرورة دلك ، كما يوجب على صاحب الحق ألا يستعمل حريته فيما يضر بمصالح الآخرين ، وأيضا حق الملك الذى يوجب على الناس أن يحترموا حق المالك ، فلا يعتدوا على ملكه ، بأى نوع من أنواع التعدى كالسرقة والغصب، كما يوجب على صاحب الملك ألا يستعمل ملكه فى الإضرار بالغير . يراجع فى دلك : أ.د. محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الإسلام، ط الثانية ١٣٩٥ هـ-١٩٧٥ م ، ص ١٢ ، ١٣ . وحول نظرية الحق بصفة عامة يراجع : د. محمد سلام مدكور ، المدخل للفقه الإسلامى ، تاريخه ومصادره ونظرياته العامة ، دار النهضة العربية ، ط الأولى ، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩ م ، القاهرة ، ص ٤١٩ ، وما بعدها .

أما أن التمتع بالبيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان فذلك واضح من تسخيرها وتذليلها له ، والآيات التى تشير إلى تسخير هذه البيئة الطبيعية وما فيها من عناصر للإنسان كالماء والهواء والنبات والجماد وغير ذلك من مكونات البيئة ، كثيرة ومتعددة ، ومن هذه الآيات ، قوله تعالى : " هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[النحل:١٠]، وقوله تعالى : "﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:١٤]، وقوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[الأنفال:١١]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦]، وقوله تعالى : ﴿يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:١١]، وقوله تعالى : " وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[ق:١٠-١١]، وقوله تعالى :﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ"﴾[النحل:٨١].

ورغم أن الإسلام قد رسخ بمثل هذه الآيات فكرة الحق فى التمتع ببيئة سليمة على نحو ما تقدم ، إلا أن فقه القانون الدولى العام لم يكن يعترف فى وقت قريب بهذا الحق ، حيث كان البعض ينكر هذا الحق من بين حقوق الإنسان ، وكان أهم ما يستند إليه فى تدعيم ذلك ما يلى :

- غموض هذا الحق وعدم وضوح مضمونه ، ومن أهم جوانب الغموض فيه أنه لم يكن يتضمن بيان المراد بـه، وهل هو يعنى حماية الإنسان نفسه بتأمين وسط طبيعى له ، أم يعنى حماية البيئة ذاتها ، وهل يقصد منه حماية الفرد فقط ، أم حماية المجتمع ككل.
- أنه يؤدى إلى ضياع بعض الحقوق الأخرى التقليدية ، كالحق فى العمل ، حيث إن الحق فى بيئة نظيفة سيفرض قيودا كثيرة على المصانع الملوثة للبيئة، وبالتالى يتهدد حق العمل بها .
- أن البيئة النظيفة مجرد مصلحة لا حق ، والمصلحة عنصر فى الحق وليست الحق ذاته ، ولا تعد حقا إلا إذا ساندها القانون ، ولم تساند كثير من الوثائق القانونية هذا الحق كالإعلان العالمى لحقوق الإنسان ١٩٤٨م، والاتفاقية الأوربية لحقوق الإنسان ١٩٥٠م .

إلا أن التطور القانونى لحقوق الإنسان ، أكد على وجود هذا الحق وأزال غموضه وحدد مضمونه ، وجعله مركزا على حماية البيئة نفسها ومواردها الطبيعية، وأن المستفيد الأول والآخر منها هو الإنسان ، والقول بأنه يهدم بعض الحقوق الأخرى أصبح قولا فاسدا ، لأنه يدعمها ويقويها ، ولا يعصف بها ، كما أن القول بأن الحق فى البيئة السليمة مجرد مصلحة لا حق ، لم يعد له وجود، بعد أن نصت عليه كثير من القوانين والدساتير الوطنية ، فضلا عن الوثائق القانونية الدولية، كالإعلان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة حول التقدم والإنماء فى الميدان الاجتماعى فى ١١ من ديسمبر ١٩٦٩ ، والميثاق الأفريقى لحقوق الإنسان الصادر فى ١٨ يونيو ١٩٨١م، والميثاق العالمى للطبيعة الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٨ أكتوبر ١٩٨٢ م ، ووثيقة إعلان ريو بشأن البيئة والتنمية عام ١٩٩٢م [1] .

---

(١) يراجع فى ذلك د. أحمد عبد الكريم سلامة ، المبادئ والتوجيهات البيئية فى أعمال المؤتمر الدولى للسكان والتنمية ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، المجلة المصرية للقانون الدولى ، العدد الخمسون، ١٩٩٤ ، ص ١٢٢ : ١٢٥، ولسيادته أيضا د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية ، ط الأولى ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص٦٥ ، وما بعدها .كما يراجع أيضا د. أحمد أبو الوفا ، تأملات حول الحماية الدولية للبيئة من التلوث ، مع إشارة لبعض التطورات الحديثة ، المجلة المصرية للقانون الدولى ، العدد التاسع والأربعون، ١٩٩٣ ، ص ٥٢ .
ومن أهم النصوص الواردة فى تلك الوثائق الدولية والمتضمنة هذا الحق ، المبدأ الأول من وثيقة إعلان ريو والذى تضمن " يدخل الجنس البشرى فى صميم الاهتمامات المتعلقة بالتنمية المستديمة ، وله الحق فى أن يحيا حياة =

وأما أن المحـافظة على البيئة وحـمايتها من الـتلوث واجب ، فى مقابل التمـتع بها كحق ، فذلك أمر يقتضى بيان الدعائم التى يقوم عليها على الواجب ، ومجالاته ، وهذا ما بينه فيما يلى :

أولا : دعائم واجب الحماية الدولية للبيئة :

أما أن الحماية الدولية للبيئة الطبيعية واجب، بل من أهم الواجبات فذلك يقوم على دعائم متعددة أهمها :

١ ـ أن الاعتـداء على البيـئة اعـتداء على التـراث المشتـرك للإنسانيـة : إذ أن البيـئة تتضمن بعض العناصر العامة أو ذات الملكية الشائعة كالهواء والماء ، ولا يمكن لأحد أن يتملك مثل هده العناصـر ، لأنها مملوكة للجميع ، ولا يستـأثر بها شعب دون شعب ، أو فرد دون فرد ، ولا تخص جيلا دون جيل ، وهذه هى فكرة التراث المشترك للإنسانية التى اهتـدى إليهـا النظام الإسلامـى مند مجـيئـه ، ويشيـر إليـها قـوله تعالى فى شـأن الماء : ﴿ونَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[القمر:٢٨]، وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَـا فِى الأَرْضِ جَمِيـعًا﴾[البـقرة:٣٩]، وما روى عَنْ رَجُلٍ مِنْ الْمُهَـاجِرِينَ مِنْ أَصْـحَابِ النَّبِى صَـلَّى اللَّهُ عَلَيـهِ وَسَلَّمَ قَال غَـزَوْتُ مَعَ النَّبِى ﷺ ثَلاثًا أَسْـمَـعُهُ يَقُـولُ : "الْمُسْلِمُونَ شُـرَكَاءُ فِى ثَلاثٍ فِى الْكَلإِ وَالْمَاءِ وَالنَّارِ"(١) ، ولعله من الواضح التركـيز فى هده الإشارات القرآنية والنبوية على فكرة القسـمة التى لا تكون إلا فى الأشياء المشتركة أو الشـائعة ، ويؤكـد ذلك قوله " قـسمة " فى الآيـة الأولى ، وقوله " جـميعـا " فى الآية الثانية، وقول الرسول ﷺ " شركاء " فى الحديث.

= صحيـحة ومنتجة بما ينسـجم مع الطبيعة " ، ومـا ورد فى قرار الجمعـية العامة للأمم المتـحدة رقم ٤٥ / ٩٤ لعام ١٩٩٠ أيضا " ... تقرر بان لكل فرد الحق فى أن يعيش فى بيئة تفى بمتطلبات صحته ورفاهه " ، والمبدأ الأول من المبادئ القانونية المقـترحة لحماية البيـئة والتنمية المستديمة التى أقـرها فريق الخبراء فى قانون البيـئة التابع للمؤتمر العالمى للتنمية الاقتصادية والدى تضمن " لجميع البشر الحق الأساسى فى بيئة تليق بصحتهم ورخائهم " .

(١) سنن أبى داود ، كتـاب البيوع ، باب فى منع المـاء ، سنن ابن ماجة ، كـتاب الأحكام ، باب المسلمون شـركاء فى ثلاث ، ومسند أحمد ، كتاب باقى مسند الأنصار ، باب أحايث رجال من أصحاب النبى .

وفى المقارنة بين النظام الإسلامى ونظام القانون الدولى العام ، نجد أن فكرة التراث المشترك للإنسانية فى النظام الأخير حديثة ، ولم يهتد القانون الدولى العام إليها إلا حينما نظر إلى أعالى البحار بوصفها حرة ومفتوحة أمام جميع الدول ، وتتجاوز الاختصاص الوطنى لها ، لكنها اكتسبت بعد ذلك أهمية فائقة ، وأصابت تقدما ملحوظا منذ أن أثيرت أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٦٧ ، ثم حظيت بالعناية أيضا أمام مناقشات لجنة الاستخدامات السلمية بحثا عن نظام قانونى لحكم قيعان البحار والمحيطات فيما يجاوز حدود الولاية الوطنية وهو ما عرف بقرار التجميد رقم ٢٥٧٤، ثم حظيت هذه المسألة باهتمام بالغ مرة أخرى خلال الدورة الثامنة وما تلاها من دورات المؤتمر الثالث للأمم المتحدة ، حتى تم إرساء المبدأ العام فى م ١٣٦ من الاتفاقية الجديدة لقانون البحار ، والتى تقرر أن : " المنطقة ومواردها تراث مشترك للإنسانية "(١).

وعلى ذلك فإن النظرة الإسلامية لأهم عناصر البيئة الطبيعية على أساس أنها ملكية عامة، وتراث مشترك للإنسانية جمعاء ، لا فرق بين جماعة وأخرى ، يؤكد ويصحح ما وصل إليه القانون الدولى العام أيضا من أن التراث المشترك للإنسانية إنما يعود على البشرية قاطبة ، بما فيها الشعوب التى لم تحصل على استقلالها ، وقد بينت ذلك نص م/ ١ من اتفاقية الفضاء الخارجى ، التى تنظم استخدام الفضاء الخارجى وما فيه من قمر وأجرام سماوية والتى تم التوقيع عليها فى ٢٧ من يناير ١٩٦٧ م ودخلت دور النفاذ فى ١٠ من أكتوبر ١٩٦٧ حيث تضمنت أن " لكافة الدول حرية استكشاف واستعمال الفضاء الخارجى ، بما فى ذلك القمر والأجرام السماوية الأخرى ،دون تمييز ، وعلى قدم المساواة وفقا للقانون الدولى " وقد أكد ذلك أيضا نص م ١٤٠ من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار والذى تضمن أن : " ١ ـ تجرى الأنشطة فى المنطقة ، كما هو منصوص

(١) د. صلاح الدين عامر ، القانون الدولى للبحار ، دراسة لأهم أحكام اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام ١٩٨٢ ، دار النهضة العربية ، ط الثانية ، ٢٠٠٠م ، ص ٣٤٨ : ٣٦٠، كما يراجع : د. أحمد عبد الكريم سلامة ، قانون حماية البيئة الإسلامى مقارنا بالقوانين الوضعية، ط الأولى ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، ص ٥١، وما بعدها

عليه بصورة محددة فى هذا الجزء لصالح الإنسانية جمعاء ، بصرف النظر عن الموقع الجغرافى للدول ، ساحلية كانت أو غير ساحلية ، مع إيلاء مراعاة خاصة لمصالح واحتياجات الدول النامية والشعوب التى لم تنل الاستقلال الكامل أو غيره من أوضاع الحكم الذاتى التى تعترف بها الأمم المتحدة وفقا لقرار الجمعية العامة رقم ١٥١٤ "د ١٥" ، وسائر قرارات الجمعية العامة الأخرى ذات الصلة ٢ , ـ تهيئ السلطة لتقاسم الفوائد المالية وغيرها من الفوائد الاقتصادية المستمدة من المنطقة تقاسما منصفا عن طريق آية آلية مناسبة وفقا للفقرة الفرعية " و ـ ١ " من الفقرة ٢ من المادة ١٦٠ "[1].

٢ ـ أن الاعتداء على البيئة فساد فى الأرض : فالاعتداء على البيئة سواء كانت برية أو بحرية أو جوية يعد من الإفساد المنهى عنه شرعا ، ويركز القرآن الكريم على حرمته بصفة خاصة ، ومن دلك قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:٧٤]، وقوله تعالى : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ المُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]، وقوله تعالى:﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾[المائدة:٦٤]، وقوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾[القصص:٧٧] ، وحيث إن إفساد البيئة منهى عنه شرعا بمثل هده النصوص السابقة، فيكون من الواجب المحافظة عليها وحمايتها على أحسن وجه .

٣ ـ الاعتداء على البيئة يحول دون أداء وظائفها على النحو المطلوب: وذلك لأن للبيئة

(١) يراجع د. صلاح الدين عامر ن القانون الدولى للبحار ، دراسة لأهم أحكام اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لعام ١٩٨٢، دار النهضة العربية ، ط الثانية ، ٢٠٠٠م ، ص ٣٦١ ، كما يراجع:
Nguyen quoc dinh, Patrick daillier, Alain pellet : Droit international public, 4e - Edition, LGDJ, Paris 1992 , P.1088 , ...

وظائف متعددة [١]، لعل من أهمها أنها مجال كبير لنظر الإنسان إليها، وتأمله فيها، وإعمال الفكر من خلالها، وذلك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران:١٩٠-١٩١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:١٧-٢١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١].

كما أن للبيئة وظيفة جمالية ترفيهية عظيمة أيضا، ليتمتع الإنسان بأشكالها البديعة وألوانها الزاهية العظيمة، وتنظيمها الرائع الدقيق، وذلك هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:٢٧-٢٨] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٢]، وقوله تعالى: " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق:٦].

هذا بالإضافة إلى وظيفة البيئة الكبرى الحياتية والتي يستفيد منها الناس في حياتهم في ماكلهم ومشربهم وملبسهم، وذلك قوله تعالى: " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ

(١) حول هذه الوظائف يراجع: د. أحمد عبد الكريم سلامة، قانون حماية البيئة الإسلامي، مقارنا بالقوانين الوضعية، القاهرة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ص ٥٧ وما بعدها.

النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران:١٤] ، وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ "﴾[عبس:٢٤-٣٢] .

ولعل الاعتداء على البيئة بتلويثها وطمس معالمها وجمالها ، يعوق التفكير فيها ، والوصول إلى الله عن طريقها، كما يؤثر فى جمالها وصورتها، ويقلل من انتفاع الناس بها، وهذا الاعتداء منهى عنه نهيا جازما بقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة:١٩٠].

٤ - الاعتداء على البيئة يحول دون تمتع الآخرين بها : وذلك لأن الاعتداء على البيئة بتلويثها ، أو باستنزاف مواردها ، أو بالإسراف والتبذير الممقوت فيها يقود إلى نوع أو حالة من الانتحار الجماعى وقتل النفس بغير حق ، وهذا كله لا شك فى تحريمه ، ويدخل فى قول الله تعالى : " أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة:٣٢] .

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نجزم بأن المحافظة على البيئة ومنع تلويثها واجب فى نظر الإسلام ، بالمعنى الاصطلاحى لكلمة واجب ، وبمعنى آخر فإن الاعتداء عليها أو تلويثها يعد حراما بالمعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة أيضا ، وذلك فى مقابل حق الإنسان فى التمتع بها، وهذا ما حاول أن ينتهى إليه فقه القانون الدولى الوضعى أيضا ، حيث تضمن كثير من الوثائق الدولية النص على اعتبار البيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان كما سبق القول ، وتضمنت كثير من الوثائق الدولية أيضا اعتبار أن حماية هذه البيئة النظيفة واجب ، بل ومن أهم الواجبات ، ومن هذه الوثائق مجموعة المبادئ التى أقرها مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة الإنسانية باستكهولم عام ١٩٧٢ وقد تضمن المبدأ الأول: " أن الإنسان يتحمل كافة المسئولية عن حماية وتحسين البيئة من أجل الأجيال الحاضرة

والمستقبلة"، وأيضا الميثاق العالمى للطبيعة الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٨ أكتوبر ١٩٨٢ والذى نص فى المادة الأولى منه على : " وعلى الإنسان واجب مقدس فى حماية وتحسين البيئة للأجيال الحاضرة والمستقبل"، وكذلك مجموعة المبادئ التى تبناها مؤتمر البيئة والتنمية فى ريودى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ ، حيث تضمن المبدأ الثالث " يتوجب إعمال الحق فى التنمية حتى يفى بشكل منصف بالاحتياجات الإنمائية والبيئية للأجيال الحالية والمقبلة"(١) .

والحماية الواجبة للبيئة كما هو واضح من تعريفها فى المادة الأولى من القانون المصرى رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ بشأن البيئة ، هى المحافظة على مكونات البيئة والارتقاء بها ومنع تدهورها أو تلوثها أو الإقلال من حدة التلوث ، وهذا يعنى أن حماية البيئة ومنع تلويثها لا يقتصر على ذلك السلوك السلبى بعدم تدخل الإنسان فى شئون البيئة بالإفساد أو التلوث ، بل تقتضى الحماية أيضا سلوكا إيجابيا ، هو التدخل لتنمية هذه البيئة وتحسينها إلى أقصى حد يمكن أن يقدمه الإنسان ، ولعل هذا هو معنى الارتقاء بالبيئة .

ثانيا : مجالات واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية :

لا شك أن الدعائم السابقة توجب حماية البيئة الطبيعية وقت السلم وهو الأصل فى العلاقات ، لكن لا يقتصر مجال هذا الواجب على وقت السلم فقط ، بل يمتد حتى إلى وقت النزاع المسلح ، كما لا يقتصر مجال هذا الواجب على مجرد حماية كل ما هو موجود فى البيئة الطبيعية ، بل يمتد هذا الواجب إلى ضرورة تنميتها والارتقاء بها أيضا

١- واجب حماية البيئة يقتضى واجب تنميتها :

ويفاد هذا الواجب من تدخل اليد الإنسانية فى البيئة النباتية ، والذى أشار إليه المولى سبحانه بقوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[يس:٣٤-٣٥]، وقوله تعالى أيضا " ثُمَّ

(١) أ.د. أحمد عبد الكريم سلامة ، المبادئ والتوجيهات البيئية فى أعمال المؤتمر الدولى للسكان والتنمية ، القاهرة، ١٩٩٤ ، ص ١٢٦ ، وما بعدها .

جَعَلْنَاكُمْ خَلائفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيفَ تَعْمَلُونَ﴾[يونس:١٤]. هذا بالإضافة إلى الدعوة المستمرة لتعمير الأرض وتنميتها، وبصفة خاصة الثروة النباتية المذكورة فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥]، وتنمية الثروة الحيوانية المذكورة فى قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِى النُّهَى﴾[طه:٥٤]، وتنمية الثروة المعدنية المذكورة فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِى عَزِيزٌ﴾الحديد:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال:٦٠]، وبذلك تقرر هذه الآيات حقيقة أن المحافظة على البيئة تقتضى تنميتها على مختلف الأصعدة، سواء كانت زراعية أو حيوانية أو معدنية أو غير ذلك.

٢- واجب حماية البيئة وتنميتها يمتد إلى وقت النزاعات المسلحة:

ولا يقتصر واجب المحافظة على البيئة فى الإسلام على زمن السلم فقط، بل يمتد هذا الواجب إلى زمن النزاعات المسلحة أيضاً سواء كانت هذه النزاعات المسلحة دولية أو غير دولية.

أما زمن النزاعات الدولية المسلحة ففيها وصية أبى بكر الجامعة، والتى فيها: عَنْ مَالِك عَنْ يحيى بْنِ سَعيد أن أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعَثَ جُيوشًا إلى الشام فَخَرَجَ يمْشِى مَعَ يزيدَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ وَكَانَ أَمِيرَ رُبْعٍ مِنْ تلكَ الأَرْبَاعِ فَزَعَمُوا أن يزيدَ قَالَ لأَبى بَكْرٍ إما أَنْ تَرْكَبَ وَإما أَنْ أَنْزِل فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ إِنِّى أَحْتَسِبُ خُطَاى هَذِهِ فِى سَبِيلِ الله ثُم قَالَ لَهُ إنكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لله فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسيفِ وَإِنِّى مُوصِيكَ بِعَشْرٍ لا تَقْتُلَن امْرَأَةً وَلا صَبِيا وَلا كَبِيرًا

هرمًا ولا تقطعن شجرًا مثمرًا ولا تخربن عامرًا ولا تعقرن شاةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة ولا تحرقن نحلاً ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن "[1]. .

ولا يتعارض أمر المحافظة على البيئة وعدم التعرض لها بالإحراق أو غيره مع قول الله تعالى فى قتال بنى النضير "ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين﴾ [الحشر:٥]، وذلك لأن المسلمين كانوا قد قطعوا نخل بنى النضير وأبقوا بعضه، وتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك، لأنهم منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن هذا الفعل من التخريب والتحريق، فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص، يطمئن القلوب، فنزلت هذه الآية التى تربط الفعل والترك بإذن الله، فهو الذى تولى بنفسه هذه الموقعة وأراد فيها ما أراد وأنفذ فيها ما قدره، وكان كل ما وقع من هذا بإذنه ليخزى بذلك الفاسقين، فقطع النخيل يخزيهم بالحسرة عليه وتركه يخزيهم بالحسرة على فوات الانتفاع منه، وإرادة الله هى التى كانت وراء هذا وذاك[2].

وأما فى النزاعات المسلحة غير الدولية فعدم التعرض للبيئة بالإفساد والإتلاف فيها واجب، من باب أولى، لأن بيئة أطراف النزاع المسلح غير الدولى بيئة إسلامية والأموال فيها وكل ما يتعلق بالبيئة معصوم بعصمة الدار [3]، ومما يدل على ذلك ، أن الإسلام دعا إلى عدم القتال بين المسلمين بصفة عامة وبما يعم أتلافه بصفة خاصة حتى لا يمتد الفساد والإتلاف إلى البيئة وما تتضمنه من عناصر، ومن ذلك ما روى عن عكرمة أن

(١) موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب النهى عن قتل النساء والصبيان فى الغزو. وفى هذا الموضوع يراجع أستاذنا أ.د/ عبد الغنى محمود "القانون الدولى الإنسانى دار النهضة العربية، ١٤١١هـ ١٤٩١م، ص ١٤٨، فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة "العلاقات الدولية فى الإسلام" دار الفكر العربى، ص ٩٩.

(٢) فى ظلال القرآن، السيد قطب، دار الشروق، ج٦، ص ٣٥٢٣، كما يراجع الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، مؤسسة مناهج العرفان، ج١٨، ص ٦.

(٣) حول مفهوم النزعات غير الدولية يراجع رسالتنا للدكتوراة، حماية ضحايا النزعات المسلحة غير الدولية فى القانون الدولى العام للشريعة الإسلامية، رسالة مقدمة إلى كلية الشريعة والقانون بالقاهرة عام ١٩٩٩، ص ١٨ وما بعدها.

على رضى الله عنه حرق قوماً فبلغ ابن عـباس فقال: "لو كنت أنا لم أحرقهم، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «*لا تعذبوا بعذاب الله*»، ولقتلتهم كـما قال النبى ﷺ: «*من بدل دينه فاقتلوه*»"[1].

وهذا الاتجاه يتفق وما يسير عليه القانون الدولى العام، إذ لا يهتـم فقط بحماية البيئة وقت السلم بل يقـرر أن هناك مصلحة عامة عالمية فى الحفـاظ على البيئة وقت النزاع المسلح، وأن هذه المصلحـة فى زمن القتال تعلو مصـالح المتحاربين أنفسهم، وأن عليهم أن يأخذوا هذه المصـلحة العـامة فى الاعـتبـار حـين اختـيار الأسـاليب والوسائل التى يتقاتلون بها، وهذا ما أكـدته قواعد القانون الدولى الإنسانى وخاصة إعلان سان بيـترسبورج عام ١٨٦٨ وبـرتوكولى ١٩٧٧ الملحقين باتفـاقيات جنيف ١٩٤٩[2].

وحيث أن حماية البيئة والمحافظة عليها واجب إسلامى يمتد حتى إلى فترات النزاع المسلح فلقد تضمنت الشـريعة الإسلامية كثيـراً من الضوابط والأحكام التى تعمل على تحقيق هذا الواجب، لدرجة أن معظم العلوم الإسلامـية الأصيلة تشترك فى بيان ضوابط

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، مجلد ٢، ج٤، ص ٧٥.

(٢) دكتور صلاح هاشم جمعه، حماية البيئة من آثار النزاعات المسلحة، المجلة الدولية للصليب الأحمر، عدد ٣٢، السنة السادسة، يوليو - أغسطس ١٩٩٣، ص ٢٥٤، وفى الأعمال والدراسات الحديثة المتعلقة بحماية البيئة فى فترة النزاع المسلح يراجع أيضاً انطوان بوفييه، المجلة الدولية للصليب الأحمر، عدد ٢٨، السنة الخامسة، نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٢، ص ٤٣٤ وما بعدها، كما يراجع:

- Commentaire du protocole additionel aux Convention de Genéve de 12 août 1949. Reatif à la protection des victimes des conflits armès internationux (protocole 1) Claude Pelloud et des autres, Genève 1986 C.I.C.R., P. 679: 682.
- Alexandre Kiss: les protocoles additicnnels aux convetins de Gènve de 1977 et la protection de Biens le l'environnement, Etuds et essais - 1984 P. 181: 192.
- Djamchid MOMTAZ: Les Regles relatives a la protection de l envirenement au cours des conflits armes a l epreuve du conflit entre l Irak et le Koweit , AFDI. 1991, XXXVII, P. 203, ...
- Laurence BOISSON de CHAZOURNES: La Mise en oeuvre du droit international dans le Domaine de la protection de l envirenment : Enjeux et Defis , RGDIP, 1995, Tome IC , Paris P.37, ...

هذه الحماية والرعاية [1]، ولعله من أهم هذه العلم علم القوعد الفقهية أو علم الأشباه والنظائر ، فلقد تضمن كثيرا من القواعد والضوابط التى تعمل على تفعيل واجب الحماية الدولية للبيئة الطيعية ، ومن هذه الضوابط ، ضابط الضرر يزال ، والأمور بمقاصدها، والمشقة تجلب التيسير واليقين لا يزول بالشك وغير ذلك من الضوابط التى اختص بها علم القواعد أو الأشباه والنظائر .

(١) إن حماية البيئة تتصل بعدد من العلوم الإسلامية ، وتكشف هذه الصلة عن أن حماية البيئة ليست مسالة دخيلة على العلوم الإسلامية ، بل هى من صميم التراث العلمى الإسلامى ، ومن هذه العلوم علم أصول الدين ، والذى يعمل على حماية البيئة من حيث كونها من مخلوقات الله سبحانه ، والتى تشترك مع الإنسان فى سجودها لله عز وجل، وتسبيحها بحمده، وعلم السلوك والتزكية والأخلاق والذى يعمل على رعاية البيئة من حيث كون هذه الرعاية تدخل فى دائرة الخلق ، ومن هذه الأخلاق مثلا خلق الإحسان ، والذى يجب أن يتوجه أيضا إلى البيئة بكل عناصرها كالإحسان بالحيوان والإحسان بالنبات والإحسان بالماء والإحسان بالهواء ، وعلوم القرآن والسنة ، وما أكثر الآيات والأحاديث المنثورة فى هذا البحث والتى تشير إلى رعاية البيئة وحمايتها ، ومن دلائل القرآن على رعاية البيئة وحمايتها تسمية عدد من السور القرآنية بأسماء بعض الحيوانات والحشرات والنباتات والظواهر الطبيعية ، كالبقرة والأنعام والفيل من الحيوانات، والنحل والنمل والعنكبوت من الحشرات ، والتين من النباتات، والحديد من المعادن ، والرعد والذاريات والنجم والفجر والشمس من الظواهر الطبيعية، وعلم أصول الفقه والذى يعمل على حماية البيئة من حيث كون حماية البيئة على اختلاف عناصرها تدخل فى مصالح العباد فى المعاش والمعاد وقد بين الأصوليون أن مقاصد الشريعة هى حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال ، وعلم الفقه الإسلامى وقواعده وهو ماسنهتم به فى هذا البحث. يراجع فى ذلك كله د. يوسف القرضاوى ، رعاية البيئة فى شريعة الإسلام ، دار الشروق ط الأولى ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م ، ص ١٩ وما بعدها .

الخاتـمة

وبعد هذه الدراسة الوجـيزة عن واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعيـة فى الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام نستطيع أن نرصد هذه النتائج .

- أن البيئة الطبيعية قد خلقها الله مهيأة على أكمل وجه ، لخدمة الإنسان والاستمتاع بها، وذلك هو الإصـلاح المشـــار إليـه فى قـوله تعـالى: ﴿وَلَا تُفْـسِـدُوا فِى الأَرْضِ بَعْـدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥].

- أن الإسلام قد رسخ فكرة الحماية الواجبة للبيـئة فى مقابل التمتع بها كحق ، وذلك فى ضـوء القاعـدة العامـة التى تشـير إلى أنه يعطى للمـرء من الحـقوق مـثل ما عليـه من الواجـبات ، وهو قـوله تعالى : " وَلَهُنَّ مِـثْلُ الَّذِى عَلَيـهِنَّ بِالْمَعْرُوف" ، أمـا أن التمـتع بالبيئة النظيفة حق من حقوق الإنسان فذلك واضح من تسخيرها وتذليلها له ، وأما أن حمـايتها واجب إسـلامى ، فلأن الاعـتداء عليهـا يمثل اعتـداء على التراث المشـترك للإنسانية ، ويعد فسـادا فى الأرض ، ويحول دون أداء وظائفها على النحو المطلوب ، كما يحول دون تمتع الآخرين بها .

- يتفق الفـقه الإسلامى مع مـا حاول أن ينتهى إليـه الفكر القانونى الدولى من اعتـبار أن البيـئة النظيفة حق من حقوق الإنسـان وأن حمايتها ضرورة من الضـرورات البشـرية ، وتتضمن كثير من الوثائق الدولية هذه النتيـجة ، ومن ذلك مجموعة المبادئ التى أقرها مؤتمر الأمم المتـحدة حـول البيئـة الإنسانيـة باستكهولم عـام ١٩٧٢ ، والميثـاق العالمى للطبيعة الصادر عن الجـمعية العامة للأمم المتحدة فى الشـامن والعشرين من أكتوبر من عام ١٩٨٢ ، وكـذلك مجـموعـة المبادئ التى تبناها مـؤتمر البيـئة والتنمـية فى ريودى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ .

- إن حماية البيـئة الطبيعية تعنى المحافظة على مكوناتـها والارتقاء بها ومنع تدهورها أو

تلوثها ، وهذا يقتضى واجب تنميتها من ناحية ، وامتدادها هذه الحماية إلى وقت النزاع المسلح من ناحية أخرى، وهذا ما اهتمت به الشريعة الإسلامية وحاول أن يصل إليه فقه القانون الدولى العام أيضا .

وإلى جانب هذه النتائج فإننا نوصى : بضرورة مراجعة التشريعات البيئة، ليكون هدفها الإنسان وتوفير الحياة البيئية الصالحة له ،وضرورة التركيز فى حماية البيئة على الناحية الوقائية التى ركز عليها الإسلام كثيرا ، وأن يكون هناك توازن بين سلامة البيئة وضرورات التنمية، وضرورة الاهتمام بالبعد البيئى فى مراحل التعليم المختلفة ، حتى يتعلم ويتدرب الإنسان على السلوكيات البيئية الشرعية الصحيحة، خاصة وأن الضوابط السلوكية الصحيحة لا تعالج فقط التلوث البيئى المادى الخاص بالماء والهواء والجماد والحيوان وغير ذلك ، بل وتعالج التلوث النفسى أيضا الذى يصيب الإنسان من جراء ارتكابه السلوكيات الخاطئة والمعاصى الكثيرة

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الأولين وفى الآخرين ، وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

***

قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد
وتطبيقها فى المجال البيئى

بقلم: د/ على بن عبد الله عسيرى(*)

مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أهمية القواعد الفقهية فى الاجتهاد ومواجهة النوازل المعاصرة عمومًا ونوازل البيئة خصوصًا، من خلال التركيز على قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" بتوضيح معناها، وبيان منزلتها من علم القواعد الفقهية، وذكر شىء من القواعد المتفرعة عنها، وبيان نواحى تطبيقها فى المجال البيئى، وأحوال هذا التطبيق وقيوده، وآثاره. وقد خلصت الدراسة إلى أن قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وما تفرع عنها من قواعد تُعد أساسًا يُرجع إليه فى معظم النوازل البيئية، حيث يُعتمد عليها فى التدليل على مشروعية حفظ البيئة بجميع أشكالها الحيوانية، والنباتية، والأرضية، والمائية، والهوائية، ومنع الإضرار بها، كما إنها تحكم حالات تعارض المصالح التنموية مع المصالح البيئية، وحالات التعامل مع اجتماع المضار البيئية.

(*) رئيس وحدة البحوث - كلية المعلمين - جازان.

قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وتطبيقاتها فى المجال البيئى

الحمد لله الذى خلق كل شىء بقدر، وصلى الله وسلم على خير البشر نبينا محمد وعلى آله وصحبه السادة الغرر، وعلى من تبعهم بإحسان ما اتصلت عين بنظر وأذن بخبر.

أما بعد:

فقد أنعم الله تعالى على الإنسانية بنبراس تهتدى به، وجعله طريقها إلى سعادة الدارين ونيل الحسنيين، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه:١٢٣-١٢٤].

وقد حذر الله -تعالى- بنى آدم من الاعتماد على ما عندهم من علم لم يصدر عن الله تعالى؛ لأن علم البشر قاصر ومحدود، بل ربما قادهم إلى هلاكهم من حيث لا يشعرون.

وأكبر مصداق على ذلك ما تشهده البشرية اليوم من مخاطر غير مسبوقة جرته على نفسها باستخدام ما سخره الله -تعالى- لها للقيام بواجب الخلافة فى الأرض على خلاف ما أمر الله به، فقد أمر تعالى بالعدل، والقسط، ونهى عن الإسراف، والظلم، وغرس فى نفوس المسلمين أن الأهم هو القناعة التى تجلب البركة، وليس المكاثرة التى توجب المحق، لكن جشع القوى المادية فى عصرنا الحاضر حملها على التجاوز فى الكم، والطغيان فى الكيف، فبالغت فى الإنتاج دون أن تفكر أو روية مستنزفة الموارد ومهدرة الطاقات، وأثقلت كاهل هذا الكوكب بالتلوث بأشكاله الصوتية، والكيميائية، والبيولوجية، بل والنووية، فضلاً عن الملوثات الأخلاقية التى لا تقل خطراً. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١].

وقد تنبه عقلاء العالم إلى ما خلقته المادية المحمومة من أزمة تهدد وجود البشرية،

فتنادوا إلى لجم جماح عوامل الإضرار بالبيئة، والحد من آثارها الجسيمة، وعقدت لهذا الموضوع مؤتمرات دولية، حضرها زعماء العالم مثل قمة الأرض، إلا أن الطمع والأنانية منع -حتى الآن- من تنفيذ جميع القرارات الصادرة عن تلك المؤتمرات واتخاذ خطوات مؤثرة لتصحيح الخلل الذى أصاب التوازن الذى وضعه الله -تعالى- فى هذه الأرض.

وفى مواجهة مثل هذه الأزمات التى منشأها غياب الوازع الدينى، والضابط الأخلاقى، يتجلى دور الدين فى قول كلمة الفصل لحمل الناس على الجادة، والله -تعالى- يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[النساء:٨٣].

أهمية القواعد الفقهية فى الاجتهاد فى النوازل المعاصرة

أنزل الله شريعة الإسلام لتكون خاتمة الشرائع، وأعلن إكمالها ورضاه عنها بقوله جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٤].

وتحقيقًا لوعد الله -تعالى- فى إكمال الدين بحيث يجد فيه المسلمون الجواب الشافى لكل ما ألم بهم من قضايا وأحداث، جاءت الشريعة الإسلامية فى شكل أصول وقواعد عامة تستجيب لكل تطور وتحدد حكم كل حادثة، ولم ترد الشريعة فى شكل قوالب جامدة ليحكم عليها بالتخلف عن ركب التقدم والتقهقر أمام مستحدثات الحياة.

وتضمنت الشريعة قواعد كلية ينضوى تحتها ما لا ينحصر من الفروع الفقهية ومن هذه القواعد: (الأمور بمقاصدها) و(اليقين لا يزول بالشك)، و(العادة محكمة) و(المشقة تجلب التيسير)، وقاعدة (لا ضرر ولا ضرار)..

وفائدة هذه القواعد ضبط الفروع، والمساعدة على تنمية الملكة الفقهية، إضافة إلى المساعدة على الاجتهاد فى الفروع المستجدة بحملها على نظائرها وردها إلى أصولها. ومع وقوع الخلاف فى الاستدلال بالقواعد الفقهية لما يرد عليها من استثناءات لعل المرجح أن القواعد الفقهية على نوعين:

١- قواعد هى فى حقيقتها نصوص شرعية

مثل قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»[1]، وقاعدة «الأعمال بالنيات»[2]، فهذه القواعد ينبغى أن لا يكون هناك خلاف فى صحة الاستدلال بها.

٢- قواعد مستقاة من الفروع الفقهية ومستمدة منها

هذا النوع من القواعد يستأنس بها فى حال عدم وجود النص المخالف لها؛ لأنا قد علمنا من عادة الشارع الحكيم أنه يجعل للمسائل المتناظرة حكمًا واحدًا، فكان الأصل اطراد القواعد، أما المستثنيات من القواعد فمرجعها أحد أمرين:

(أ) ورود أدلة خاصة بها

وهذا لا يقدح فى القاعدة؛ لأن كل دليل يُؤسس قاعدة مستقلة.

(ب) تخلف شرط من شروط القاعدة

وفى هذه الحالة أيضًا لا يكون الاستثناء استثناءً حقيقيًا؛ لأن القاعدة لم تكتمل شروطها. وعلى فرض احتمال وجود استثناء، فإن هذا لا يقدح فى الاستثناء بالقواعد إلى حين ثبوت الاستثناء، إذ لو قلنا بالتوقف فى الدليل حتى يُقطع بعدم الاحتمال لوجب التوقف فى جميع الأدلة؛ إذ لا يسلم دليل من وجود احتمال يرد عليه، ومع ذلك يعمل بالدليل حتى يثبت الاحتمال.

ومن هنا تجلى أهمية القواعد الفقهية فى مواجهة النوازل المعاصرة التى تركت كثيراً من الناس فى حيرة من أمرهم، واختلطت عليهم الأمور، وفى رد الفروع إلى قواعدها، والحوادث إلى أصولها ما يعصم من ذلك بإذن الله - تعالى -.

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه من طريق عبادة بن الصامت، وابن عباس مرفوعًا ٢/ ٧٨٤، كما رواه البيهقى فى السنن الكبرى من طريق أبى سعيد الخدرى ٦/ ٦٩.

(٢) الحديث متفق عليه من رواية عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- مرفوعًا حيث رواه الإمام البخارى فى صحيحه ١/ ٣، وكذا رواه الإمام مسلم بلفظ إنما الأعمال بالنية ٣/ ١٥١٥!

وقد جعل الإمام الشاطبي -رحمه الله تعالى- هذه القاعدة أساسًا ينبني عليه الاجتهاد الفقهي فقال: "وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ"[1].

أهمية الاجتهاد في قضايا البيئة خصوصًا

تعد قضايا البيئة من القضايا التي اشتد الاهتمام بها في وقتنا الحاضر، نظرًا لظهور أخطارها وبرزوها للأعيان، وسيطرتها على الأخبار، وما ظاهرتا الاحتباس والحراري وثقب الأوزون -اللتان شغلتا العالم وأهمتا القاصي والداني- إلا أبلغ دليل على مدى ما تشكله هذه القضية من هاجس وما تمثله من خطر.

وإنما برزت أخطار البيئة في هذا الزمن بالذات بسبب ما اكتسبه الإنسان من مدنية، وما منحه الله -تعالى- من وسائل تعامل معها الإنسان باستخفاف ولا مبالاة، وجهها إلى أمور كمالية ورفاهية على حساب بيئته التي هي شرط من شروط حياته.

لقد كان الإنسان في ماضي أيامه محدود الاحتياجات، قليل التأثير على البيئة، أما في وقتنا الحاضر فإن أطماعه لم تقف عند حد، واحتياجاته لا تنتهي إلى سقف، وأصبح الإنسان يستخدم وسائل ينتج عنها مواد دخيلة على البيئة ومهلكة لها، مثل الغازات السامة والمواد الكيماوية القاتلة والنفايات الضارة.

والتوعية بهذه الأخطار وحدها لا تكفي؛ لأن جشع الإنسان وطول أمله ربما تغلب على صوت العقل، ومن أمثلة ذلك رفض أمريكا التوقيع على اتفاقية «كيوتو» للحد من انبعاث الغازات المؤثرة على طبقة الأوزون -تقديمًا لمصالح آنية- رغم أن علماءها هم أول من حذر من هذه الظاهرة.

وهكذا يتضح أنه لم يبق ملاذ إلا الوازع الديني الذي يحكم تصرفات الإنسان الملتزم به ويوجه أعماله.

---

(١) الموافقات: ٤/ ١٤٠.

ولا يمكن للوازع الدينى أن يتحرك إلا فى إطار من الأحكام الشرعية التى توضح حكم كل عمل وكيفية أداء المكلف له، وهذا يحتاج إلى الاجتهاد الفقهى الذى تشكل القواعد الفقهية مفتاحًا هامًا من مفاتيحه وأداة طيعة من أدواته.

وإنه لواجب عظيم على الأمة الإسلامية أن تقدم للبشرية حلولاً لمشكلاتها العصبية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن فى الوحيين ضمانة للأمة من الزيغ والانحراف، وأمان لها من الهلاك.

ومن أهم القواعد التى تضبط أحكام مسائل البيئة قاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد»، التى سوف أحاول -بإذن الله تعالى- فيما يلى عرض ملخص عنها وعن منهجية تطبيقها فى شئون البيئة.

أولاً: معنى القاعدة

الجلب لغة: بمعنى إحضار الشىء والإتيان به.

والمصالح: جمع مصلحة، وتعنى المنفعة والفائدة.

والدرء: يعنى الإزالة والدفع.

والمفسدة: تعنى الضرر والشر.

والمقصود بهذه القاعدة: أن الشرع يتشوف إلى جلب الخير والنفع وتحصيلهما، سواء كانا دينيين أو دنيويين عامين أو خاصين، كما أن الشرع يتشوف إلى دفع الشرور والأضرار والتحصين منها، سواء كانت دينية أو دنيوية، عامة أو خاصة.

وكل ما فى الأدلة الشرعية من: الأمر بالخير، والنهى عن الشر، وطلب إيصال النفع، وكف الأذى والضرر، والأمر بالإحسان، وامتداح المحسنين، والنهى عن الإفساد وذم المفسدين، يندرج فى معنى القاعدة.

ومن العلماء من استعمل للتعبير عن هذه القاعدة لفظ: «جلب المنافع ودفع المضار»، والمعنى واحد.

والمقصود بالمصلحة والمفسدة الدينية أو الدنيوية: من حيث هى بالاعتبار الشرعى، وليس باعتبار أهواء النفوس؛ لأن اتباع الهوى المجرد هو مفسدة بحد ذاته.

وتعلم المصلحة والمفسدة الدينية بالنظر فى الأدلة الشرعية.

أما المصالح والمفاسد الدنيوية فتعلم بتأملها والنظر فيما تؤول إليه، ثم تستقرأ أدلة الشرع وقواعده لمعرفة الوصف الذى تضفيه على الأمر محل النظر.

ثانيًا: منزلة القاعدة من علم القواعد الفقهية

قاعدة «جلب المصالح ودرء المفاسد» من القواعد الكبرى التى يقوم عليها علم القواعد الفقهية، بل إن الشرع كله قائم على هذه القاعدة، قال الإمام العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى-: ".. والشريعة كلها مصالح: إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرًا يحثك عليه أو شرًا يزجرك عنه"[1].

وهكذا تكون كل أدلة الشريعة شاهدة لهذه القاعدة، فكل الأوامر المقصود منها جلب مصالح دينية أو دنيوية عاجلة أو آجلة، وكذلك كل المناهى مقصودها درء مفاسد دينية أو دنيوية، عاجلة أو آجلة، وكل حث على خير وإحسان وعدل هو حث على جلب المصالح، وكل زجر عن شر وإفساد وظلم هو درء لمفاسد.

ومن هذه الأدلة من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[البقرة:٢٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[الأعراف:١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[النحل:٩٠]. وقال النبىﷺ: «*لا ضرر ولا ضرار*»، وقال ﷺ: «*إن الله كتب الإحسان فى كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة*»[1].

---

(١) قواعد الأحكام: ١/ ٩.

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن شداد بن أوس -رضى الله عنه- مرفوعًا: ٣/ ١٥٤٨.

ثالثا: القواعد المرتبطة بها والمتفرعة عنها

قاعـدة "جلب المصالح ودرء المفـاسد" قاعـدة كلية، تتصل بهـا العديد من القـواعد الفقهية، وهذا الاتصال على وجهين:

(أ) الوجه الأول: الاتصال بطريق العموم والخصوص

وذلك بأن تنصب القاعدة بقاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد على جانب مما تناولته القاعدة، ومن أمثلة هذه القواعد ما يلى:

١- قاعدة "الضرر يزال"

وهذه قاعدة كلية عظيمة، يتفرع عنها ما لا يحصى من الفروع الفقهية، وهى مأخوذة من الحديث النبوى الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»، الذى يعد أصلاً لهذه القاعدة، ولقاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد، إلا أن الأخيرة أعم؛ لأنها تشمل التنصيص على جلب المصلحة وإضافة إلى درء المفسدة.

٢- قاعدة "تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة"

وهذه القاعـدة تتناول جانبًا خـاصًا مما تناولته قـاعدة جلب المصالح ودرء المفـاسد، وهو يتعلق بالإجراءات التى يتخذها الإمام لجلب المصالح ودرء المفاسد.

(ب) الوجه الثاني: أن توضح القواعد المرتبطة بالقاعدة أحوال تطبيقها

هذا النوع من القواعـد يوضح كيفية تـطبيق قاعدة "جلب المصـالح ودرء المفاسد"، ومن أمثلة هذا النوع:

١- قاعدة "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

٢- قاعدة "المفسدة تدرأ بقدر الإمكان".

٣- قاعدة "إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما".

٤- قاعدة "يتحمل الضرر الخاص لإزالة الضرر العام".

٥- قاعدة "الدفع أسهل من الرفع".

٦- قاعدة "متى أمكن الدفع بأسهل الوجوه لم يعدل إلى أصعبها".

رابعًا: منهج تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" فى مجال البيئة

(أ) السعى إلى تحقيق جميع المصالح ودفع جميع المفاسد

هذا هو الأصل والمبدأ العام الذى يسير عليه التشريع الإسلامى، فهو يسعى إلى حفظ جميع المصالح، ودفع جميع المفاسد.. فجميع المصالح مطلوبة الحفظ، وجميع المفاسد مطلوبة الدفع، لكن تتنوع درجة هذا الطلب وجوبًا وندبًا وتحريمًا وكراهية حسب درجة المصلحة أو المفسدة.

(ب) تحقيق المصالح ودفع المفاسد يكون بقدر الإمكان

ما ورد فى الفقرة السابقة يشكل المثل الأعلى والهدف الأسمى، وما ذُكر فى هذه الفقرة يعنى الواقعية فى التطبيق العملى، باعتبار ضعف الإنسان، وعجزه عن تحقيق جميع المصالح ودفع جميع المفاسد، إذ (المفسدة تُدرأ بقدر الإمكان) و(الميسور لا يسقط بالمعسور).

(جـ) فى حالة عدم إمكان رعاية جميع المصالح ودرء جميع المفاسد يقدم الأهم فالأهم

إذا لم يمكن تحقيق جميع المصالح ودرء جميع المفاسد، وعملاً بما ورد فى الفقرة السابقة تُقدم المصلحة الأعلى، وتدفع المفسدة الأشد، وتختلف درجات المصالح والمفاسد من ثلاث نواحى:

١- من ناحية رتبتها:

تنقسم المصالح والمفاسد تبعًا للأثر المترتب عليها إلى أقسام ثلاثة:

* الضرورى: ويعنى بهذا القسم المصالح والمفاسد المتعلقة بضرورة من الضرورات الخمس وهى: (الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال)، بحيث يترتب على عدم مراعاتها فساد الدين أو الدنيا أو كليهما.

ومن أمثلة هذا القسم فى المجال البيئى التخلص من النفايات النووية، فإنه أمر ضرورى لحفظ النفس والعقل والمال، إذ يترتب على التقصير فى ذلك هلاك الأنفس، والتشوهات والإعاقات، وإفساد الأموال.

* الحاجى: وتعنى المصالح والمفاسد التى يفتقر إليها العباد فى دنياهم وأخراهم، بحيث يترتب على عدم رعايتها العنت، والمشقة، والضيق، المنفية شرعًا، ومن أهم أمثلة هذا القسم فى المجال البيئى: مكافحة الآفات التى تصيب الثروات النباتية أو الحيوانية.

* التحسينى: ويراد بهذا القسم المصالح والمفاسد التى يترتب على رعايتها الرفاهية والجمال، ومن أمثلة هذا القسم فى المجال البيئى: الحفاظ على البيئة جميلة نظيفة، وإزالة التشوه عنها، وتبعًا لهذا التقسيم وتطبيقًا لمبدأ تقديم الأهم والأهم: تقدم رعاية المصالح والمفاسد الضرورية على الحاجية، والحاجية على التحسينية.

وتطبيقًا لذلك، إذا اجتمعت مخاطر بيئية من شأنها القضاء على حياة البشر كالملوثات النووية، ومخاطر تهدد الثروة الحيوانية، ومخاطر تهدد جمال البيئة، ولم يمكن دفع هذه المخاطر جميعًا فى وقت واحد، قُدم إزالة المخاطر النووية؛ لأن إزالتها من قبيل الضرورى، ومن ثم المخاطر التى تهدد بهيمة الأنعام؛ لأنها من قبيل الحاجى، وبعد ذلك يأتى دور تحسين البيئة وتجميلها.

٢-من ناحية تحقق وقوعها

تختلف المصالح والمفاسد من حيث تحقق وقوعها إلى ثلاثة أقسام:

* مقطوع بها: بمعنى أن يجزم بالمصلحة أو المفسدة يقينًا، وهذا النوع قليل الوجود بالنسبة إلى النوعين التاليين.

* مظنونة: بمعنى أن تكون المصلحة أو المفسدة راجحة الحصول، وهذا هو أغلب أنواع المصالح والمفاسد، على أن رتب الظنون تتفاوت والحكم لأعلاها فى نظر المجتهد.

* موهومة: بمعنى أن تكون المصلحة أو المفسدة مرجوحة، وهذه الرتبة لا اعتبار لها فى الغالب إلا من باب الاحتياط.

وتبعًا لهذا التقسيم تقدم رعاية المصالح والمفاسد المقطوع بها، ثم المظنونة، ثم الموهومة، وعليه فالواجب مكافحة الأضرار الواقعة أو المحققة الوقوع، ثم المتوقع حدوثها، فبدلاً من الانشغال بنيزك يسبح على بعد ملايين السنوات الضوئية، وحساب احتمال اصطدامه بالأرض خلال مئات الآلاف من السنين، يجدر الاهتمام بالمخاطر الجسيمة التى تتهدد وجود البشرية حاليًا مثل مشكلات: التصحر، وشح المياه، والأمطار الكبريتية، وانتشار الأوبئة المستعصية على العلاج ونحوها.

٣- من ناحية العموم والخصوص

هناك مصالح ومفاسد عامة، وهناك مصالح ومفاسد خاصة، وعموم المصالح أو المفاسد وخصوصهما يكون باعتبار ما يلى:

* **العموم والخصوص باعتبار الأشخاص:** حيث تكون المصلحة أو المفسدة عامة بهذا الاعتبار إذ نالت أعدادًا غير محصورة من الأشخاص، وتكون المصلحة أو المفسدة الخاصة التى تطال فئة مخصوصة منهم.

وقد سبق أن من القواعد: «يُتحَمل الضرر الخاص لإزالة الضرر العام»، وتطبيقًا لذلك يمكن إغلاق مصنع يلوث البيئة دفعًا للضرر العام، ولو على حساب ملاك المصنع والعاملين فيه؛ لأن الضرر الواقع عليهم ضرر جزئى خاص، والضرر الخاص بالتلوث ضرر كلى عام.

* **العموم والخصوص باعتبار الزمان:** على هذا الاعتبار تكون المصلحة أو المفسدة المؤقتة متصفة بالخصوص، أما المصلحة أو المفسدة الدائمة فهى تتصف بالعموم. وتطبيقًا لذلك تقدم المصلحة أو المفسدة الدائمة على المصلحة أو المفسدة المؤقتة.

(د) فى حال تساوى المصالح والمفاسد يقدم درء المفاسد

قد تتساوى المصالح والمفاسد فى الدرجة وبالذات فى المجال البيئى، كما لو أُريد إنشاء سد لرى جانب من المزروعات، ولكن يترتب عليه هلاك جانب مماثل منها، ففى هذه الحال يُلجأ إلى درء المفسدة لأنه الأسلم؛ ولأن المفسدة تعتبر بمثابة المحققة، أما المصلحة فقد لا تتحقق لوجود مانع من تحقيقها، كما لو هاجمت المزروعات آفة من الآفات فى المثال السابق.

(هـ) جلب المصلحة ودرء المفسدة بأيسر الطرق الممكنة

هذا من يسر الشريعة الإسلامية، والنبى ﷺ قال: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»[1]، وتطبيقًا لذلك وأخذًا من قاعدة "الدفع أسهل من الرفع"، فإن الاحتياط بمنع الكوارث البيئية قبل وقوعها قدر الإمكان هو أولى من انتظار وقوعها ثم محاولة إزالة آثارها.

خامسًا: مجالات تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" فى شئون البيئة

(أ) السعى لصالح البيئة

القاعدة عامة فى جميع المصالح الدينية والدنيوية، ولا شك أن الحفاظ على البيئة من الأمور المطلوبة دينيًا ودنيويًا، ويكفى للدلالة على مشروعية الاهتمام بالبيئة أن النبى ﷺ عد أحد مظاهره من شعب الإيمان حيث قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[2]. وامتثال قاعدة جلب المصالح يجعل المسلم حريصًا على المبادرة إلى تحصيل ما يصلح البيئة، بدلاً من انتظار حصول المخاطر البيئية ثم محاولة مكافحتها بعد ذلك.

---

(١) الحديث متفق عليه من رواية أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها-، حيث رواه البخارى فى صحيحه: ٦/ ٢٤٩١، وكذلك رواه مسلم فى صحيحه: ٤/ ١٨١٣.

(٢) الحديث متفق من رواية أبى هريرة -رضى الله عنه- مرفوعًا، حيث رواه البخارى فى صحيحه: ٢/ ٨٧١، وكذلك رواه مسلم فى صحيحه: ١/ ٦٣.

(ب) الوقاية مما يضر بالبيئة

سبق بيان المنهج الشرعى فى تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد"، وأن ذلك يكون بحسب الوسع وبأيسر الطرق، ولاشك أن الوقاية من أضرار البيئة أيسر من مكافحتها بعد وقوعها، والقاعدة الفقهية تقضى بأن: "الدفع أسهل من الرفع".

(جـ) إزالة ما يضر بالبيئة

تطبيق قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" يقتضى إزالة كل ما يلحق الضرر بالبيئة، للأمر بدرء المفاسد والنهى عن إيقاعها.

(د) الموازنة بين حفظ البيئة والتنمية

يُعد تعارض المصالح البيئية مع المصالح التنموية من أكبر المعضلات التى تواجه المهتمين بشأن البيئة فى المجتمعات المعاصرة، فكيف يمكن الحفاظ على البيئة دون الإضرار باحتياجات الناس ورفاهيتهم، وما الذى يمكن احتماله من المضار البيئية، وما الذى يمكن الاستغناء عنه من الأنشطة المضرة بالبيئة.

والقاعدة تقضى بحفظ جميع المصالح، ودرء جميع المفاسد، لكن قد لحظ علماء الشريعة أن المصالح والمفاسد لا تتمحض إلا نادرًا، والغالب احتواء كل مصلحة على نوع مفسدة، واحتواء كل مفسدة على نوع مصلحة؛ لذلك استنبط فقهاء الشريعة قواعد شكلت منهجًا للموازنة بين المصالح والمفاسد، وهذه القواعد تصلح للتطبيق فى مجال البيئة للموازنة بين المصالح البيئية والاحتياجات الإنسانية.

وقد سبق ذكر شىء من هذه القواعد التى يقتضى تطبيقها تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، سواء كان العموم: باعتبار الأشخاص، أو باعتبار الأوقات، إذ تغلب المصلحة المستمرة على المصلحة المؤقتة، وتحتمل المفسدة المؤقتة لدفع المفسدة الدائمة.

كمـا سبق تقديم درء المفسدة على جلب المصلحـة فى حال التسـاوى فى الدرجة، وفى حال الاختلاف ترتكب المفسـدة الأخف لدفع المفسدة الأعلى، أو تهـمل المصلحة الأدنى لحفظ المصلحة الأعلى.

لكن ينبغى التنبه إلى أن هذه الموازنة بين المصالح والمفاسد يجب أن ينبرى لها علماء متخصصون فى المجالات الشرعيـة والبيئية، حتى يمكن أن يعطوا لكل جانب حقه، وأن يصلوا إلى الاجتهاد الصائب بإذن الله -تعالى-.

(هـ) كونها مرجعية للتنظيمات البيئية

تُعـد الأنظمة من أقـوى الوسائل المعـتمـدة للحـفاظ على البـيئـة؛ نظرًا لأن تغليب المصلحة الفردية ربما شجع على التساهل فى شئون البيئة، مما يستلزم سن الأنظمة الكفيلة بالمحافظة على البيئة من الانتهاك.

وتمثل قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" أساسًا مناسبًا تنبنى عليه الأنظمة الرامية إلى إصلاح البيئة ودفع الفساد عنها.

بل إن من العلماء من عـد المصلحة بشروطها -من عدم مـعارضتهـا بنص، وكونها محققة، وكونهـا ملائمة للمصالح التى شهد لها الشرع بالاعتبـار-- دليلاً يعتمد عليه فى إثبات الأحكام الشرعية فى غير وجود نص.

ومن القواعـد المقررة أن: "تصرف الإمـام على الرعية منـوط بالمصلحة"، وهذا يعنى أن على الإمام أن يراعى فـيما يقدم عليـه من تصرفات مصلحـة من هو مولّى عليهم، فـيحق للإمام المنع من التـصرفات التى تضـر بالبيئة تحـصيلاً لمصلحـة حفظ البيئة، كـما أن له أن يلزم من تحت ولايته باتباع إجراءات تصلح شأن البـيئة انطلاقًا من هذه المصلحة أيضًا.

(و) المحافظة على البيئة فى النزاعات والحروب

تطورت وسـائل الفتك والتـدمـير فى هذا العـصر تطـورًا مذهلاً بحيـث أصبـحت

تشكل تهديداً مباشراً للبيئة فى حال استخدامها، بحيث يمتد تدميرها لأجيال، ولابد من وجود ضابط يمنع من الوصول بالحرب إلى مرحلة لا تهلك بالحرث والنسل فقط، بل تمحو الحياة عن المناطق المبتلاة بها.

ويمكن اعتبار قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" مع قول النبى ﷺ: «لا ضرر ولا *ضرار*» ضابطًا يمنع من استخدام أسلحة الدمار الشامل؛ لأن الحديث يمنع الإضرار ابتداء كما يمنع المجازاة على الضرر بالضرر، فالأصل أنه لا يجوز القصد إلى تدمير البيئة عند الحرب، بل يكون الهدف درء مفسدة العدو بأقرب الطرق وأسهلها، مما يعنى محاولة إلحاق أقل قدر ممكن من الضرر بالبيئة.

والخلاصة

أن الاجتهاد فى شئون البيئة من الأمور الدقيقة التى تحتاج إلى مختصين فى العلوم الشرعية وفى العلوم التجريبية؛ لتوزن كل حالة بوزنها وتفرد بحكمها، وأن قاعدة "جلب المصالح ودرء المفاسد" وما تفرّع عنها من قواعد تُعد أساسًا يُرجع إليه فى معظم النوازل البيئية، حيث يُعتمد عليها فى التدليل على مشروعية حفظ البيئة بجميع أشكالها: الحيوانية، والنباتية، والأرضية، والمائية، والهوائية، ومنع الإضرار بها، كما أنها تحكم حالات تعارض المصالح التنموية مع المصالح البيئية، وحالات التعامل مع اجتماع المضار البيئية.



إشكالية البيئة والتنمية فى العالم الإسلامى

(رؤية اجتماعية)

بقلم: أ.د/ نبيل السمالوطى(*)

تحتل قضايا البيئة وما لحقها من مشكلات أهمية كبرى سواء على مستوى البحث العلمى، أو على مستوى القرارات والمعاهدات السياسية، أو على مستوى الفكر والتنظيمات الاقتصادية ومختلف مؤسسات المجتمع المدنى.

وقضايا البيئة متنوعة وتهتم بها العلوم الاجتماعية والإنسانية كما تهتم بها العلوم الطبيعية. ويمكن إيجاز أهم قضايا البيئة ومشكلاتها فيما يلى:

أولا: الحفاظ على التوازن البيئى. فقد خلق الله سبحانه وتعالى الأرض وما عليها من نبات وحيوان ومناخ وثروات وغازات.. بشكل يلائم تماما حاجات الإنسان، وبشكل متوازن. يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية:١٣]. لكن تدخل الإنسان سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الدولى والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية وتنظيمات المجتمع المدنى، هذا التدخل أخل كثيرا بتوازن البيئة. فقد أزالت بعض الدول أجزاء من الغابات وأحلت مدن مكانها، وقامت دول بردم أجزاء من البحار لتوسيع رقعة اليابس فى الدولة، وهناك دول قامت بإقامة بحيرات صناعية ذات ثقل كبير. كل هذا من شأنه أن يخل بالتوازن الإلهى للكرة الأرضية عليها بسبب اختلال التوازن فى الثقل على الأرض، وبسبب الاختلال بين البحار واليابس، واختلال الغازات المحيطة بالكرة الأرضية...الخ.

ثانيا: مشكلة التلوث بكل أبعادها ـ سواء بسبب الغازات الضارة المنبعثة من المصانع وأجهزة الاحتراق المختلفة أو بسبب العوادم الصناعية والبشرية، ولعل أخطر أنواع التلوث التلوث الإشعاعى، ودفن النفايات النووية تحت الأرض وفى قاع البحار. ويشمل التلوث هنا، تلوث الهواء، وتلوث الماء، وتلوث التربة. وهناك

(*) أستاذ علم الاجتماع بجامعة الأزهر، مقرر لجنة المؤتمرات والندوات برابطة الجامعات الإسلامية.

التلوث السمعى والبصرى والشمى.. كل هذه الأنواع تضر بصحة الإنسان وتحدث آثارا مدمرة للتوازن الكونى. هنا تأتى مشكلة ثقب الأوزون ضمن القضايا التى احتلت مساحات واسعة من الاهتمام خلال عام ٢٠٠٢م، لما تسببه من آثار مدمرة للحياة على كوكب الأرض بشكل مباشر. وقد بلغ اتساع هذا الثقب فوق القطب الجنوبى مساحة قياسية هائلة وصلت إلى ٣٠ مليون كيلو متر مربع. وقد بشر بعض المشتغلين بقضايا البيئة أخيراً، بأن طبقة الأوزون تتجه حاليا إلى تجديد نفسها، بعد إن سجل هذا الثقب انكماشا خلال السنوات الأخيرة.

ثالثا: مشكلة الاستغلال المسرف لثروات الأرض[١] الذى يعد أحد الأسباب الرئيسية المدمرة للبيئة فقد أوضح العلماء أن معدل استغلال الإنسان بعض المنتجات والثروات البيئية بشكل يفوق قدرة الأرض على تجديدها بنسبة ٢٠٪ سنويا.

وقد حذر الصندوق الدولى للحياة البرية من عواقب هذا الإسراف البيئى، وقال إنه فى حالة استمرار معدلات الاستهلاك العالية للإنسان، ستصل نسبة عجز الأرض عن تجديد مصادرها البيولوجية والطبيعية إلى ٢٢٪.

وقد ثبت أن التغيرات المناخية المستمرة التى تؤدى إلى زيادة استهلاك الإنسان للغاز والفحم والنفط، هى أساس انبعاث غاز ثانى أكسيد الكربون وغيره من الغازات الملوثة للجو.

هذه المشكلة أدت إلى مشكلة أكبر وهى ظاهرة الانبعاث الحرارى (ظاهرة الصوبة الزجاجية) التى يعانى العالم منها اليوم. هذه المشكلة تؤدى إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض. وهذه الظاهرة الأخيرة تؤدى إلى اختلال بيئى آخر يتمثل فى ذوبان جبال جليد فى القطب الجنوبى، تهدد بارتفاع منسوب مياه البحار. هذه النتيجة الأخيرة تهدد بغرق الكثير من مناطق اليابس بما عليها من مجتمعات وحياة بشرية وحيوانية ونباتية.

رابعا: مشكلة انقراض بعض الثروات الحيوانية فى العالم. فقد أعلن[٢] خلال عام

(١) جيلان الحميل: البيئة وسوء الاستغلال: الأهرام - أول يناير ٢٠٠٣م ص٧.
(٢) المصدر السابق.

٢٠٠٢م أن أكثر من (١١) ألف نـوع من الحيوانات مهددة بالانقـراض فى العالم حـلال السنوات المقبـلة. ولاشك أن الإنسان هو المتـهم الأول فى هذا الانقـراض نتيجة لعمليات الانتـهاك المستمر للبيئة الطبيعيـة بإزالة بعض الغابات والبحيرات واستعمارها وإحلال غابات من الأبنية الخرسانية مكانها.

خامسا: مشكلة تناقص الميـاه العذبة النقية فى العالم. فـالانخفاض[1] فى معدلات مياه الأمطار تؤدى ببعض المناطق إلى التصحر، لكن المشكلة أكـبر من هذا بكثير. فقد ثبت أن نصف أنهار العالم تقـريبا تعانى تلوثا شديدا، وانخفاضـا شديدا أيضا فى مستوى مياهها. كذلك فـقد ثبت أن بعض بلدان الشرق الأوسط ومناطق مختلفة من الهند والصين وآسيا الغربية والاتحاد السوفيتى سابقا تعانى من تناقص مستوى المياه الجوفية بمعدلات عاليـة. وقد أكدت بعض الدراسات العلمية أنه بحلول عام ٢٠٢٥م سوف يعانى فردان من كل ثلاثة، من قصور شديد فى المياه.

سادسا: مشكلات تآكل التـربة، وهى من المشكلات الكبرى المدرجـة على أجندة العالم سنة ٢٠٠٣م نتيـجة للنمو الديمـجرافى المتسـارع الذى يشكل ضغطا كبـيرا على مساحات كبيرة من الأرض الزراعية الخصبة. وهذه المشكلة تعانى منها المجتمعات كثيفة السكان ذات المعدلات العالية من النمو السكانى، والتى تعيش على الزراعة فى مساحات محددة مثل المجتمع المصرى حيث تتآكل الأراضى الزراعية القديمة الخصبة بسبب بناء المساكن وتبوير الأرض وإدخال أجزاء منها فى كردونات المدن والقرى. هذا بالطبع فضلا عن التجمعـات السكنية العشوائية التى تصل فى مصر إلى الآلاف، وهى كلها أو أغلبها على حساب الأرض الزراعية.

سابعا: المشكلات الخطيرة التـى تهدد الإنسان بسـبب اختلال التـوازن بين الغازات على سطح الكرة الأرضـية، خاصـة فى المناطق السكنيـة كالمدن. فـقد حذرت منـظمة الصـحة العـالميـة فى تقريـرها لسنة ٢٠٠٢م من تزايد انبـعاث غـاز ثانى أكـسيـد

(١) جيلان الحميل: البيئة وسوء الاستغلال: الأهرام ـ أول يناير ٢٠٠٣م ص٧.

الكربون عالميا بنسبة ٤٠٠ مليون طن عن معدلاته السابقة. ونبه التقرير إلى أن نصف سكان الأرض معرضون لتلوث الهواء نتيجة حرق الوقود الصلب المتمثل فى الأخشاب والفحم لاستخدامه فى أعمال الطهى والتدفئة داخل منازلهم. كل هذا يسبب مشكلات صحية خطيرة فى الجهاز التنفسى ويؤدى إلى العديد من الأمراض مثل حساسية الصدر وأمراض الرئة.

ثامنا: الكوارث البيئية بسبب إهمال المسئولين والفنيين مثل كارثة التلوث الإشعاعى التى نجمت عن مفاعل تشرنوبل خلال فترة الاتحاد السوفيتى ومثل الكوارث البحرية الناجمة عن غرق ناقلات البترول والمواد الكيميائية والمشعة فى البحار والمحيطات. وتشير التقارير إلى أن أخطر الكوارث البيئية البحرية سنة ٢٠٠٢م كانت غرق ناقلة النفط (برستيج) أمام الشواطئ الأسبانية بعد انشطارها إلى نصفين فى المحيط الأطلنطى. وقد قدرت منظمات البترول كميات النفط المتسربة بحوالى ٢٠ ألف طن، مما يسجل أعلى نسبة تلوث فى مياه البحار. وقد كان من نتائج مثل هذه الكوارث المتعددة انهيار الحياة تحت سطح الماء وموت العديد من الثروات السمكية.

تاسعا: الكوارث الناجمة عن الحروب العالمية والإقليمية ولعل المثال الأشهر استخدام القنابل الذرية من جانب أمريكا فى ضرب هيروشيما ونجازاكى فى اليابان فى الحرب العالمية الثانية. وهناك العديد من الحروب المحلية والإقليمية التى تستخدم الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية، مما يتسبب فى العديد من الكوارث.

عاشرا: الكوارث البيئية الناجمة عن الإرهاب المحلى والدولى. والمشكلة أن المنظمات الإرهابية أصبحت تستخدم غازات سامة كما حدث فى اليابان، وأسلحة بيولوجية ـ مثل (الجمرة الخبيثة) وغيرها من أسلحة محرمة دوليا. وهذه يذهب ضحيتها ملايين الأبرياء سنويا.

حادى عشر: الكوارث البيئية الناجمة عن البحوث العلمية غير المرشدة، وغير المنضبطة

بالضوابط الأخلاقية أو الدينية ـ مثل إجراء التجارب النووية، والتفجيرات الملوثة للهواء والماء والتربة، ودفن النفايات النووية فى الأرض أو البحار والمحيطات، مما يسهم فى إلحاق أفدح الأضرار بالبيئة ومواردها الطبيعية، والحياة البحرية والبرية والإنسان والنباتات...الخ.

ظهور علم لدراسة البيئة

ظهر علم دراسة البيئة سنة ١٨٦٠م أى منذ حوالى ١٤٢ سنة لدراسة الظواهر المختلفة المحيطة بالإنسان. أما الاهتمام العالمى بقضايا البيئة فلم تظهر إلا فى أواخر الستينات من القرن العشرين، عندما ظهرت مشكلة عانت منها مجموعة الدول الاسكندنافيه (السويد والنرويج)، وهى مشكلة تلوث البحيرات ونفوق الأسماك بها. هنا لجأت هذه الدول إلى الأمم المتحدة لبحث القضية، وبالفعل عقد مؤتمر لدراسة هذه الإشكالية. ومن هذا التاريخ ظهر الاعتراف الدولى بقضايا البيئة لدى الأجهزة الدولية[1]. وهذا ما سوف نعالجه فى الفقرة التالية.

حداثة الجهود الدولية فى مناقشة ومواجهة مشكلات البيئة

إن التعدى على البيئة، وعلى نظمها المتوازنة والمتكاملة والمتناغمة التى خلقها الله عليها، أمر قديم يرجع إلى وجود الإنسان على وجه الأرض، ذلك الإنسان الذى قالت عنه الملائكة قبل ظهوره، وبمجرد أن نبأهم الله بخلقه أنه سوف يفسد فى الأرض. ومازال لأن الله أعلمهم هذا وبسبب عوامل وتفسيرات متعددة ذكرها المفسرون، قال تعالى" ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠].

وقد اتخذ هذا التعدى على النظام البيئى Ecosystem عدة صور منذ ظهور الإنسان مثل تلوث الهواء بعد اكتشاف النار وحرق الأخشاب للطهى والتدفئة.

(١) ضياء الدين عطية: مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة: رابطة الجامعات الإسلامية ٢٠٠٠م ص١٨.

لكن الجهود المنظمة لحماية البيئة والحفاظ عليها لم تظهر بشكل منظم إلا فى القرن التاسع عشر، فى شكل تنظيم مجارى مياه الأنهار والبحيرات الذى بدأ مع إعداد معاهدة باريس ١٨١٤م لتنظيم استخدام مياه الأنهار الراين بين الدول التى يمر بها النهر [١]. كذلك فقد عقدت العديد من المعاهدات والاتفاقيات منذ ١٨١٥م لتنظيم حقوق الصيد والرقابة الملاحية فى الأنهار الدولية، ومناطق المياه العذبة التى توجد على الحدود بين الدول.

هذا إلى جانب الاتفاقيات المتصلة بالحفاظ وحماية الحياة الفطرية والطيور النافعة للزراعة. على أن الاهتمام الجدى بحماية البيئية بشكل متكامل لم يبرز بشكل واضح إلا خلال النصف الثانى من القرن العشرين، فقد تم عقد بعض الاتفاقيات الدولية، مثل اتفاقية لندن سنة ١٩٥٤م التى تتعلق بمنع تلوث مياه البحر بالزيت أو النفط، واتفاقيات لاحقة[٢].

ولم تصدر جهود دولية لحماية البيئة ومكافحة إفسادها إلا حديثا. فبعد ظهور العديد من التعديات الدولية على مكونات النظام البيئى دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٦٨م إلى مؤتمر دولى لمناقشة الأخطار التى تهدد النظم البيئية. ولم يعقد أول مؤتمر دولى إلا سنة ١٩٧٢م فى بنكهولم بالسويد المؤتمر الدولى الثانى حول البيئة إلا بعد عشرين عاما من المؤتمر الأول فى لديودى جانيرو بالبرازيل فى يونيو سنة ١٩٩٢م. وقد صدر قرار عن الأمم المتحدة رقم ٥٥/ ١٩٩ بإعداد تقرير كل عشر سنوات عن التقدم الذى يتم إحرازه فى مجال تنفيذ قرارات وتوصيات المؤتمر الدولى الأول سنة ١٩٩٢م، يعرض فى مؤتمر دولى. يعد عشر سنوات من المؤتمر الدولى فى جوها نسبرج بجنوب أفريقيا. وبالفعل عقد هذا المؤتمر فى الفترة من ٢٦ أغسطس إلى ٤ سبتمبر سنة ٢٠٠٢م تحت عنوان (القمة العالمية للتنمية المستدامة)[٣].

---

(١) فاروق العادلى: الصياغة الاجتماعية لعلاقة الإنسان بالبيئة فى مصر: دراسات اجتماعية فى البيئة: جامعة الملك عبد العزيز. سهير عبد العزيز: دراسات اجتماعية فى البيئة: جامعة الأزهر ٢٠٠٢م ص٥.

(٢) راجع أحمد سلامة: التلوث النفطى وحماية البيئة البحرية: المجلة المصرية للقانون الدولى ١٩٨٩م: وراجع أيضا أحمد سلامه: قانون حماية البيئة: عمادة شئون الطلاب: جامعة الملك سعود - الرياض ١٤١١/ ١٩٩١م. وراجع كذلك ضياء عطية: مصدر سابق.

(٣) الإيسيسكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: ٢٠٠٢م: تقرير حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١ ص٩ وما بعدها.

وقد جاء مثل الاجتماع الدولى فى شكل مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية فى لديو سنة ١٩٩٢م، حدثا دوليا مهما فى طريق زيادة الاهتمام بقضايا البيئة والتنمية والحفاظ عليها فى توازنها وتكاملها ومنع أو تقليل الاعتداءات الصارخة عليها بكل الإشكال. وكان الهدف من هذا ضمان تحقق الرخاء الاقتصادى والاجتماعى والبيئى للأجيال الحاضرة والقادمة.

وقد كان من أهم نتائج ما أطلق عليه قمة الأرض فى (لديو) سنة ١٩٩٢م أن قادة العالم حددوا وتبنوا جدول أعمال واضح للتنمية المستدامة أطلق عليه (الأجندة ٢١)، وهو (إعلان لديو للبيئة والتنمية)، وإعلان المبادئ غير الملزم قانونا بشأن اجتماع دولى حول التدبير والمحافظة والتنمية المستدامة لجميع أنواع الغابات والاتفاقيات المرتبطة بمؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية سنة ١٩٩٢م.

وكان من بين الأهداف متوسطة المدى التى حاول هذا المؤتمر تحقيقها، تحقق التنمية، تفعيلا للتوازن بين أمرين وهما: الأول إشباع حاجات الإنسان الاقتصادية والاجتماعية من جهة، والثانى مراعاة قدرة موارد الأرض والأنظمة البيئية على إشباع هذه الحاجات الإنسانية للأجيال الحالية، والأجيال المستقبلة أيضا [1].

وبالرجوع إلى المرصد العالمى للبيئة سنة ٢٠٠٢م نجد أن حالة العالم بالنسبة للتنمية وسلامة البيئة، حالة ليست جيدة. ورغم المبادرات التى قامت بها الحكومات والمنظمات الدولية وأوساط الأعمال والمجتمع المدنى والأفراد لتحقيق التنمية المستدامة، فإن معدلات تحقيق الأهداف المخططة كانت بطيئة جداً بالنسبة لما هو متوقع. وفى بعض المجالات صار الأمر أكثر سوءا مما كان عليه قبل عشر سنوات أى قبل سنة ١٩٩٢م.

وقد جاء بتقرير الإيسيسكو، أنه بينما ازداد الوعى بقضايا البيئة (وتم تحقيق تقدم تحقيق تقدم واضح فى مجالات محددة مثل الطاقة الريحية، والزراعة

(١) الإيسيسكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: ٢٠٠٢م: تقرير حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١ ص١٤.

العضوية، فإن جميع المؤشرات البيئية تقريبا تتقدم فى الاتجاه الخاطئ (المرصد العالمى للبيئة سنة ٢٠٠٢م).

أن حالة البيئة العالمية لا تزال هشة، ولا تزال الإجراءات الرامية إلى حمايتها غير كافية. ففى أغلب مناطق العالم النامى تم فى أحسن الأحوال تحقيق تقدم فى التخفيض من معدلات الفقر. كما تم تحقيق بعض التقدم فى المجالات الصعبة، إلا أن مشاكل أخرى برزت، مثل فيروس فقدان المناعة المكتسبة ـ الإيدز (الأمم المتحدة ٢٠٠٢م)[١].

ويشير تقرير الإيسيسكو حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١، إلى أنه (على الرغم من التقدم الذى تم إحرازه فى مجال تطبيق مبادئ التنمية، هناك تحديات رئيسية يتعين مواجهتها. فآثار العولمة لم تناقش على الإطلاق فى قمة لديو. ويتعين على الدول الفقيرة والفنية معا بذل المزيد من الجهود لجعل التنمية المستدامة فى صميم أهداف سياساتها على جميع المستويات، ولتنفيذ المخططات التى تم الاتفاق بشأنها من قبل.

وتقرير الإيسيسكو يؤكد الحاجة إلى التعاون بين كل دول العالم لتحقيق أهداف التنمية المستدامة. وهنا يذكر التقرير (أن الدول الفقيرة بحاجة إلى الموارد والتكنولوجيا والأسواق والإدارة الجيدة حتى تتقدم نحو التنمية المستدامة. وسيتعين على الدول الغنية إظهار التزام حقيقى لتغيير أنماط الاستهلاك والإنتاج غير المستدامة ولتحقيق فعالية أكبر فى استخدام الموارد. ويعد عمل المجتمع المدنى والقطاع الخاص أساسيا لتلبية هذه الحاجيات... ويتعين على المخلوقات أن تظهر التزاما أكبر وتخلق أو تسمع بخلق مناخ يسمح بالتغيير)[٢].

وقد جاء بتقرير الإيسيسكو حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١، إنه على الرغم من أن لكل إقليم خصوصياته وأولوياته المرتبطة بالتنمية المستدامة، فإن المجالات التالية تشكل قضايا تحظى باهتمام

---

(١) الإيسيسكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: ٢٠٠٢م: تقرير حول جهود تنسيق التحضير للقمة العالمية الثانية حول التنمية المستدامة وتنفيذ الأجندة ٢١ ص١٥.

(٢) المصدر السابق ص١٦ وما بعدها.

مشترك من الجميع. هذه المجالات تتركز فى مجالى التنمية المستدامة والحفاظ على البيئة، ومن ثم يجب التركيز عليها فى قمم البيئة المختلفة:

أولا: تنفيذ مبادئ قمة الأرض فى لديو، خاصة فى مجال مواجهة كل الاعتداءات على البيئة بسبب التلوث فى الدول المتقدمة صناعيا، وفى مجال إقرار مبدأ المسئوليات المشتركة والمتباينة فى مجال الحفاظ على البيئة، وفى مجال التنمية.

ثانيا: العولمة. فهناك جهود لجعل العولمة منصفه، وتوظيفها فى خدمة التنمية المستدامة ومواجهة مشكلات الفقر والتخلف فى قطاع كبير من دول العالم.

ثالثا: القضاء على الفقر. فهناك خطط لخفض الفقر بنسبة النصف بحلول ٢٠١٥م، وتعزيز الروابط الموجودة بين التنمية والفقر والتجارة والأمن البشرى.

رابعا: الاستهلاك والإنتاج المستدامان، من خلال آليات مثل الرفع من فعالية الطاقة، والفصل بين النمو الاقتصادى والضغوط الممارسة على البيئة والموارد الطبيعية الرئيسية.

خامسا: تدبير الموارد الطبيعية، كالمياه العذبة. والتطهير ومواجهة التصحر، وتوفير المعادن والغازات وتنقية الهواء.

سادسا: الفلاحة والأمن الغذائى. ومن الأهداف المرجوة مضاعفة الإنتاج الفلاحى فى أفريقيا خلال خمس سنوات وتشجيع ما يسمى بالفلاحة المستدامة والتنمية الريفية.

سابعا: الطاقة يجب على القمم إيجاد وسائل لتشجيع الدول على الحصول على الطاقة، والقيام بمبادرات لاقتسام الطاقة المتجددة والسهلة المنال.

ثامنا: المياه العذبة والتطهير. والمطلوب هنا تحقيق هدف إعلان الألفية الخاص بالحصول على المياه وخدمات التطهير وتدبير موارد المياه.

تاسعا: الاستيطان البشرى المستدام. من خلال خلق وتنظيم المدن وحل مشكلات المدن الضخمة.

عاشرا: الصحة. تحسين الخدمات كجانب من استراتيجيات مواجهة الفقر.

حادى عشر: التنمية البشرية: فى مجال التربية والتعليم والتشغيل وإدماج قضية النوع البشرى وتنمية الشباب.

ثاني عشر: تمويل التنمية المستدامة، من خلال تعبئة جميع مصادر التمويل، ودعوة الدول المتقدمة بتخصيص ٠,٧٪ من الناتج القومى الخام للمساعدة الإنمائية الرسمية للدول المحتاجة. هذا إلى جانب استخدام آليات إلغاء ديون الدول الأكثر فقرا، وإيجاد مصادر جديدة للتمويل عن طريق المؤتمر العالمى لتمويل التنمية.

ثالث عشر: التجارة وولوج الأسواق: السماح لمنتجات الدول النامية لدخول أسواق الدول الأكثر تقدما، خاصة فى مجالات الفلاحة أو المنتجات الزراعية، والنسيج، وإلغاء المساعدات وإجراءات تشجيع التصدير التى تضر بالأسواق، والتخفيض من المساعدات التى تضر بالبيئة.

رابع عشر: نقل التكنولوجيا وبناء القدرات. فقد طولب مؤتمر القمة الثانى للبيئة الذى عقد فى جوهانسبيرج فى نهاية ٢٠٠٢م تعزيز خلق وسائل فعالة لتسهيل نقل التكنولوجيا، وإجراءات تشجيع بناء القدرات.

خامس عشر: إرساء الإدارة الجيدة، والبنية المؤسسية للتنمية المستدامة. فقد طالب الإيسيسكو بأن تناقش القمة الثانية للبيئة سبل تحسين الإطار المؤسسى للتنمية المستدامة على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية. ويركز البعض على تفعيل الإدارة الوطنية، وخلق الشراكات الفاعلة. وقد تم تحديد السلم والأمن كشرط رئيسى للتنمية.

سادس عشر: متطلبات صنع القرار والإعلام. كل هذا يتطلب تطوير سياسات واستراتيجيات مدروسة وفعالة لتحقيق التنمية المستدامة، وتحقيق المشاركة بكل أشكالها وآلياتها ـ شعبية ـ حكومية ـ إقليمية ـ دولية... وتطوير الإجراءات لمراقبة التنمية المستدامة.

سابع عشر: الحفاظ على السلم والأمن كأولويات وشروط مسبقة لتحقيق التنمية المستدامة والحفاظ على البيئة، خاصة فى المنطقة العربية والإفريقية. وهذا ما أكدته اللجنة، والإعلان المشترك لمجلس الوزراء العرب المسئولين عن البيئة، ومجلس وزراء البيئة الأفارقة. والأمن هنا يمتد ليشمل القضاء على الفقر ومواجهة مشكلات تدهور المياه والأرض.

ثامن عشر: تحرص منظمة المؤتمر الإسلامى من خلال الإيسيسكو على إدراج الجانب الأخلاقى للتنمية المستدامة فى إعلان وزراء البيئة بالدول الإسلامية، من أجل إضفاء الطابع الإنسانى على التنمية المستدامة. وخططت الإيسيسكو استنادا إلى إعلان جدة ٢٠٠٠م، وإعلان طهران ٢٠٠١م لمناقشة الوصول إلى قانون أخلاقيات عالمى لقيادة التقدم والتنمية والحوار بين الحضارات استنادا إلى قيم الإسلام وتعاليمه فى مجال التنمية والبيئة.

البيئة: المفهوم والتطور والأخطار

تعامل الإنسان الأول بشكل مباشر مع البيئة دون اعتداء عليها خلال مراحل كثيرة من حياته. فمنذ اكتشاف النار والزراعة واستئناس الحيوان، واكتشاف بعض الموارد الطبيعية كالمعادن بدأ التطور فى العلاقة بين الإنسان والبيئة.

وقد تعقدت هذه العلاقة مع تطور الفكر والممارسة الإنسانية، فمع دخول الإنسان فى عصر الصناعة وبناء المدن وتحويل المواد الطبيعية إلى مواد مصنعة، ازداد ضغط الإنسان على البيئة. فقد تحولت البيئة من بيئة طبيعية إلى بيئة مصنعة من جانب الإنسان. فقد استغل الإنسان البيئة باستنزاف الموارد من أجل الطاقة والسكن والصناعة والاستثمار وتحسين مستويات المعيشة، وأصبح يلقى فيها فضلاته المنزلية والصناعية، ويلوث أجواءها ومياهها. ومن هنا بدأت تظهر مشكلات البيئة وتتعقد، مع تعقد المستوى العلمى والتكنولوجى والاقتصادى للإنسان والمجتمعات والأمم.

هذه المشكلات والأزمات البيئية التى خلقها الإنسان لم تعد ذات طابع محلى أو حتى إقليمى، ولكن تفاقمت لتصبح ذات اهتمام دولى. وما زالت مشكلات البيئة - الماء - والجو - والتربة ذات طبيعة مجاوزة للحدود السياسية الدولية. ومثال هذا تلوث الأنهار المشتركة بين عدة دول، وتلوث الهواء والبحار والمحيطات التى يشترك فيها مجموعات كبيرة من الدول، ومثل تراكم ثانى أكسيد الكربون فى الجو واختلال طبقة الأوزون التى تهدد بارتفاع حرارة كل

الأرض، وغرق العديد من المناطق، وإصابة سكان الأرض بالعديد من الأمراض الفتاكة...الخ.

إذا كانت الدول الأكثر تقدما هى الأكثر إفسادا للبيئة، فإن الدول الفقيرة هى الأكثر تضررا لعدم توافر الإمكانات الكافية لا على صعيد الوقاية، ولا على صعيد العلاج من آثار هذه الكوارث البيئية.

وقد كانت البيئة تعرف بأنها منظومة تتألف من مكونات مادية غير حية، ومكونات حية، والعلاقة بين هذه المكونات المادية والبيولوجية. لكن الأمر قد اختلف الآن كثيرا بعد أخذ البعد البشرى فى الاعتبار. ذلك لأن هذا البعد أفسد كثيرا فى توازنات البيئة، وتسبب فى تلوثها واختلال مكوناتها الطبيعة التى خلقها الله عليها.

وقد تزايدت أهمية العامل البشرى عند مناقشة مفهوم وقضايا البيئة بعد مؤتمرين مهمين حول البيئة.

الأول: مؤتمر ستوكهلم الذى نظمته الأمم المتحدة بالسويد فى الفترة من ٥-١٦ يونيو ١٩٧٢م حول البيئة البشرية، وكان من أوائل المنتديات الفكرية التى يطرح فيها المكون البشرى كأحد المكونات المهمة فى تحديد مفهوم البيئة.

الثانى: مؤتمر تبليس الذى عقدته منظمة اليونسكو فى جمهورية جورجيا داخل الاتحاد السوفيتى السابق، وذلك بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة فى الفترة من ١٤-٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٧م، حول التربية البيئية. وهو من أوائل المؤتمرات الذى أدخل فيه البعد البشرى ضمن المعالجات الشمولية لمفهوم البيئة(١١).

ولذا نجد أن مفهوم البيئة أصبح الآن يتسم بالاتساع والشمول ليشمل كل الأبعاد البيولوجية، والمادية، والبشرية والجغرافية من أرض وجو وماء...الخ. إلى جانب كل العوامل الأخرى التى تلعب دورا هاما فى تحقيق التوازن للمنظومة الكلية التى تضم كل هذه العناصر.

---

(١) الإيسيسكو: دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية، وخصوصيات العالم الإسلامى: الإيسيسكو: العالم الإسلامى: الإيسيكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: مصدر سابق: ص٥١-٥٣.

ولعل العامل الحاسم فى هذه المنظومة هو النشاط البشرى الذى يظل محتفظا بتوازن البيئة وتكاملها، أو يخل بهذا التوازن.

التنمية البيئية فى العالم الإسلامى

التنمية كعملية وكسياسة وكخطط وكبرامج تستهدف تحسين نوعية حياة الإنسان، والانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب فى الوصول إليها. وبما أن التنمية ترتبط بإشباع حاجات الإنسان الفطرية والمكتسبة والمتجددة، وهذه الاشباعات لا حد لها، تظل عمليات التنمية الاقتصادية تعنى زيادة كم وكيف الإنتاج أو الناتج القومى، وتعنى تحديث الصناعة والإنتاج وزيادة القدرة على استخدام واستغلال الموارد، وعلى المنافسة، وعلى التصدير، وعلى تلبية مطالب المجتمع وأبنائه... والتنمية الاجتماعية تعنى بتحسين نوعية حياة الأفراد ورفاهيتهم من خلال توفير خدمات السكن الجيد والطاقة والماء والصحة والتعليم والعمل والتربية والرعاية...الخ.

والتنمية الثقافية تعنى بتحسين نوعية وكمية المنتج الثقافى من خلال التعليم ومحو الأمية وحرية الفكر والإبداع وتنمية المواهب وتنوع الثقافات والفنون والآداب والإعلام. فالتنمية تنطلق من الإنسان ويتحقق من خلال تطوير فكر وحياة وأداء الإنسان، وتستهدف تحسين نوعية الإنسان، سياسيا (حرية الرأى والديمقراطية وحرية التعبير والمشاركة فى اتخاذ القرار، وحرية النقد والتجمع والحق فى الانتماء إلى مؤسسات المجتمع المدنى وتفعليها فى خدمة المجتمع)، وثقافيا، واجتماعيا، واقتصاديا...

والتنمية ترتبط بالموارد البيئية وأساليب توظيفها، وهذه الموارد تضع حدودا أمام عملية التنمية. على أن استمرار التنمية تتطلب حسن استخدام وتوظيف الموارد وعدم إهدارها، أو تلويثها، أو سوء استخدامها. والاتجاه فى علاقة البيئة بالتنمية، أن الإنسان يسعى باستمرار إلى استثمار البيئة، وقد يصل هذا إلى حد الاستنزاف والإخلال بها.

والبيئة لها القدرة باستمرار على امتصاص وتجاوز هذه الاختلالات التى يحدثها الإنسان، ما لم تتجاوز هذه الاختلالات قدرة البيئة على الاحتمال. وفى هذه الحالة الأخيرة تصبح التنمية عاملا هداما مدمر لمكونات البيئية. ومنذ دخول الإنسان عصر

الصناعة لم يتوقف إخلال الإنسان بتوازنات البيئة، وذلك على العكس من الحال خلال فترة سيادة المجتمعات البدائية الأولية. فى هذا العهد الأول كان التوازن كاملا بين الإنسان والبيئة. وبشكل عام فإن الإنسان مطالب بالتوفيق بين أهداف التنمية وضرورات حماية البيئة، وذلك من خلال إعادة النظر أو مراجعة أنماط التنمية التى سار عليها الإنسان حتى اليوم.

هذه الأنماط التى كانت فى غالبية الأحوال فى مواجهة مستمرة مع البيئة.

وإذا كان الإفراط فى الاستهلاك لموارد البيئة فى الدول الغنية والمتقدمة اقتصاديا وتكنولوجيا عاملا أساسيا من عوامل تدمير البيئة، فإن الفقر والأمية يسهمان كذلك فى تخريب البيئة فى الدول النامية، ومن بينها دول العالم الإسلامى. ففى البيئات القروية والبدوية، وفى ظل ضعف الإمكانات، قد تحدث عمليات تسهم فى تدمير البيئة مثل حرائق الأدغال، واستصلاح الأراضى، وإزالة الغابات، والرعى المفرط، والتعرية، والتصحر، وإنهاك التربة نتيجة لزراعة نوع واحد من الزراعة، واستغلال الأراضى الهامشية[1].

وكما تشير دارسة الإيسيسكو فإن هذه المشكلات تزيد حدة وخطورة عندما يصاحبها ظروف مناخية سيئة، وعندما يزامنها تبنى بعض الدول الإسلامية نماذج للتصنيع ثبت خطورتها وفشلها فى دول أخرى. فقد تكون هذه النماذج الصناعية مهدرة للطاقة، أو ملوثة للبيئة، أو مدمرة لصحة الإنسان...الخ.

وإشكالية تدمير البيئة فى الدول الإسلامية لا تقتصر فقط على سلوكيات أبنائها، وعلى النمو السكانى المتسارع فيها فحسب، وإنما يسهم فى أحداثها مشروعات الدول الصناعية المتقدمة داخل هذه الدول. فالغابات الاستوائية داخل العالم الإسلامى يتم تخريبها بمعدل (٢٥) مليون هكتار سنويا بواسطة المستثمرين الأجانب بسبب نمط المعيشة التى تقوم على التبذير لديهم. وهكذا لا يكون هذا الوجود والاستثمارات

(١) الإيسيسكو: دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية، وخصوصيات العالم الإسلامى: الإيسيسكو: العالم الإسلامى: الإيسيكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: مصدر سابق: ص٥٦-٥٧ .

الأجنبية داخل العالم الإسلامى عاملا من عوامل النمو، بقدر ما يكون عاملا من عوامل تدمير الثروات الوطنية فيها. وهذا يؤثر على مستقبل الجيل الحالى والأجيال المقبلة. وعلى الرغم من كل هذا تقع هذه الدول الإسلامية فى شرك المديونية والتبعية واختلال الميزان التجارى لصالح الدول المتقدمة.

كل هذا يعنى أن تدمير موارد العديد من الدول الإسلامية، والاعتداء على البيئة فيها لا يرجع كله إلى تصرفات أبناء هذه الدول، ولكن يرجع إلى استنزافات تاريخية ومعاصرة لدول أجنبية من جانب الدول الصناعية الغربية.

هذه الأخيرة كانت هى الدول المستعمرة، ثم أصبحت لها حق استثمار الثروات فى بعض هذه الدول دون رقابة فعالة من الحكومات المحلية لانعدام الوعى وانعدام القدرة. كما تشير دراسة الإيسيسكو فإن (البيئة فى الدول الإسلامية تعانى من ويلات التأخر فى عين المكان، ومن تأثيرات التنمية فى العالم المتقدم. فى عين المكان يعد الفقر والأمية والجهل والأحوال الاقتصادية والبيئية والنمو الديمجرافى من أهم أعداء البيئة، بينما عن بعد تأتى التنمية الاقتصادية للدول الغنية التى غالبا ما تملى على الدول الفقيرة بكيفية غير معلنة طريقة استغلال بيئتها[1].

وإشكالية لامبالاة سكان الدول الإسلامية تجاه قضايا البيئة، وانخفاض وعيهم بأهمية هذه القضايا وتأثيرها المدمر عليهم وعلى الأجيال القادمة، يرجع إلى عدة عوامل متكاملة. وأهم هذه العوامل نسبة الأمية الهجائية العالية التى تصل إلى ٥٠٪، فضلا عن الأمية العلمية أو الثقافية أو الدينية. وحتى لدى المتعلمين والمثقفين، فإن قضايا البيئة عادة ما لا تكون واضحة لديهم. كذلك فإنها غالبا ما تنحصر فى مسائل التلوث والنظافة وغرس الأشجار. وغالبا ما يناقش المثقفون فى العالم الإسلامى مشكلات البيئة فى ضوء التقدم الصناعى والتكنولوجى، متجاهلين أثر الفقر والتخلف على تدمير البيئة وهو أمر شائع فى العالم الإسلامى.

(١) الإيسيسكو: دراسة عن التنمية المستدامة من منظور القيم الإسلامية، وخصوصيات العالم الإسلامى: الإيسيسكو: العالم الإسلامى: الإيسيكو: العالم الإسلامى والتنمية المستدامة: مصدر سابق: ص٥٨ .

ويضاف إلى هذا كله أن غالبية سكان الدول الإسلامية لا يعرفون معنى وجود مشكلات بيئية، فالوعى البيئى لديهم فى أدنى درجاته. وهم غالبا ما يرجعون ما يصيبهم من مشكلات ناجمة عن البيئة، إلى القضاء والقدر. ولعل عدم ظهور الآثار المدمرة للبيئة إلا بعد وقت طويل، هو السبب فى عدم استجابة قطاعات كبيرة من سكان العالم الإسلامى للمشاركة الإيجابية فى حملات ودعوات حماية البيئة. والكثير من الدول الإسلامية لا يتوافر لها معايير محددة بسلامة الإجراءات أو السلوكيات أو انحرافها من منظور البيئة. كذلك لا يتوافر الرقابة الكافية على سلوكيات الناس، والمزارعين، والقطاع الخاص، والاستثمارات الأجنبية...وهكذا تصبح غياب المعايير، وغياب الرقابة عاملا جوهريا فى سيادة اللامبالاة إزاء قضايا البيئة. وإذا كان انعدام الوعى واللامبالاة من عوامل انتهاك البيئة فى الدول النامية والإسلامية، فإن القصور التشريعى عامل آخر مهم. وإذا وجدت بعض التشريعات، فإنها غالبا ما لا تكون مناسبة للواقع الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، أو منقول من دول أخرى، الأمر الذى يجعل هذه التشريعات تولد ميتة لعدم مراعاتها للواقع الثقافى للمجتمع.

تحديات التنمية البيئية فى العالم الإسلامى:

أولا: التحدى الثقافى المتمثل فى الجهل والأمية والفقر الثقافى وانعدام الوعى البيئى. هذا إلى جانب عدم كفاءة نظم التعليم فى هذه الدول كما وكيفا، وعدم قدرة التعليم - ما قبل الجامعى وما بعده على تنمية الوعى البيئى على المستويات الثلاثة للوعى - المعرفة، والاعتقاد، والسلوك لدى منتجات هذه النظم التعليمية.

ثانيا: المشكلات البيئية مشكلات عابرة للحدود وللدول وللقارات، ولعل أكبر هذه المشكلات هى:

أ- مشكلة التغيرات المناخية. وتتحمل الدول الصناعية المتقدمة المسئولية الأولى عنها. فصناعة هذه الدول الضخمة بإفرازاتها المختلفة أدت إلى تهتكات فى ثقب الأوزون، وانبعاث ثانى أكسيد الكربون بنسب كبيرة، وإلى ارتفاع معدل حرارة الكرة الأرضية ودول

العالم النامى والإسلامى، خاصة فى أفريقيا هى الأكثر تضررا على الرغم من أنها ليست السبب فى هذه الكارثة. هذه الدول لا تملك الإمكانات والوسائل على المستوى الوقائى أو العلاجى. وأبرز النتائج لهذه الكارثة البيئية: اختلال الدورة المائية، مما نتج وينتج عنه الشح فى توافر مياه الشرب والزراعة والصناعة فى العالم الإسلامى.

ثالثا: تعد الدول الإسلامية من أكثر الدول تأثرا وتضررا من التراجع البيولوجى والتصحر. فالتنوع البيولوجى من أهم عوامل تحقيق التوازن فى البيئة. هذا بالطبع إلى جانب كونه من أهم عوامل التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الدول. ولعل من أهم الأمثلة على هذا التراجع البيولوجى، انقراض العديد من الأسماك والحيوانات أو قلة عددها وضعف نموها. كذلك من الأمثلة انهيار الغابات نتيجة الحروق والإزالة، وبالتالى انهيار ثروات نباتية هائلة. أما إشكالية التصحر نتيجة لقلة المياه قد أصابت العديد من دول العالم الإسلامى، وما تزال تهدد العديد من دوله. والتصحر يعنى فقدان ثروات نباتية ومائية شاسعة، كان يمكن استثمارها فى التنمية الزراعية والسياحية والبنية التحتية للدول.

رابعا: إشكالية عولمة الاقتصاد. فتحرير التجارة والاقتصاد وإزالة الحواجز الجمركية سيكون لها انعكاساتها على قضايا البيئة لجميع الدول. فالدول النامية والفقيرة ومنها الدول الإسلامية ملزمة بمراعاة معايير الجودة للسلع المصدرة للخارج. وفى مقدمة هذه المعايير مراعاة عدم تلوث البيئة أو الاعتداء عليها خلال عملية الإنتاج. ولهذا سوف تحرم الدول الإسلامية من تصدير الكثير من منتجاتها الزراعية والصناعية لعدم توافر هذه المعايير (الأسمدة، والكيماويات، والمبيدات، وعمالة الأطفال...الخ).

ولتجاوز هذه المعوقات تحتاج الدول الإسلامية لرؤوس أموال وخبرات وتكنولوجيات وأساليب إدارة وإنتاج تعجز عنها ميزانياتها المثقلة.

* * *



تنمية البيئة وحمايتها من منظور إسلامى تربوى

بقلم: أ.د/ مصطفى محمد رجب(*)

لقد خلق اللـه الدنيا بما فيـها من منافع وثروة وخيرات، وسخـرها جميـعًا تسخـير تمكين وانتفاع، واقتـضت حكمته تعالى أن يخلق فيهـا من يستعمرها ويفيـد من خيراتها ويحافظ على نعم الله فيها، فلابد أن يتق الله فيما أنعم عليه، ويشكره بالحفاظ على نعمه الكثيرة، ويلتزم بمنهج الإسلام فى حماية البيئة.

المبحث الأول

الإنسان ومسئولية الخلافة فى الأرض

أولاً: تكريم الإنسان واستخلافه

خلق الله الإنســان فى الأرض ثم استعـمره فيـها، قـال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١]. فى حين يشارك الإنسان علـى هذه الأرض مخلوقات وكائنات أخرى من حيوانات ونباتات وغيرها، غير أن الله -سبحانه وتعالى- فضّل الإنسان على سائر المخلوقـات، وسخـرها لخدمـته، ومكنه من الانتـفاع بهـا. قال تعـالى: ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[الإسراء:٧٠].

وحتى يتـمكن الإنسان من الانتـفاع من هذه المخلوقات فـقد[١] أوجدها الله على هيئة من التوازن، بحيث لا يطغى بعضها على بعض، ولا يدمر بعضها بعضًا، الأمر الذى قد يحـول بين الإنسان والانتفـاع بها، أو قد يحـيل بعضها إلى مـصادر ضرر عليـه. قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[الحجر:١٩].

وقد فتح الله للإنسان أبواب الـعلم على مصارعها؛ لعمارة الأرض التى استخلفها للإنسان؛ ليكون معمرًا لها غير أنه اكـتشف تفتيت الذرة، فصنع منها القنابل، وخرب بها الديار، وقـضى على الإعمـار، وخلق بعـد ذلك مئـات الألوف من المشـوهين والعجـزة الذين يرون بطن الأرض خير من ظهرها[٢].

(*) أستاذ بكلية الشريعة - جامعة اليرموك.

(١) زيد محمد الرمانى، "المنظور الإسلامى لمشكلة البيئة"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٥٩ ديسمبر ١٩٩٥م، ص٤٢.

(٢) عاصـم محمـد بهجـت البيطار، التلوث أولاً، التلوث ثانـيًا، التلوث دائمًـا"، مجلة الفـيصل، العـدد ٢٢٠ يناير ١٩٩٦م، ص ١٠٠-١٠١.

ولكن معالم الرسالة الإسلامية فى المحافظة على ما استخلف فيه الإنسان[1] تنبعث من القرآن الكريم حيث قال الله -تعالى-: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]. وقد نبه الله فى الآية والآيات السابقة على إعمار الأرض وعدم الإفساد فيها، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١] ، وقال أيضًا: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود:٨٥] .

لذا فإن الإنسان مقيد بمراعاة الاعتدال وتجنب الإسراف والبطر والتجبر، وكل ما من شأنه الإخلال بالتوازن البيئى. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧] .

إن كل مكونات البيئة فى هذا الكون الفسيح قد أعدها المولى سبحانه وتعالى لاستقبال الحياة، ولكفالة الأحياء، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠] .

ثانياً: الحكمة من خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض

إن الحكمة من خلق الإنسان واستخلافه على الأرض، وتسخير الكون، أدركها المسلمون وفسرها العلماء؛ لهذا تعامل المسلم مع بيئته بصورة متطورة، وحرص على استغلال المحيط الذى سخره الله بالعلم والوعى، فكان التغيير الذى عرفه المجتمع الإسلامى، ثم بوتيرة سريعة أفادت وأذهلت العالم. أمة انطلقت من صحراء قاحلة جرداء استطاعت فى ظرف وجيز أن تسيطر على بيئتها وتتحكم فيها بطرق ووسائل مبتكرة، واستغلت الموارد الطبيعية والبشرية لخدمة التنمية الشاملة.[1]

ومما ورد فى كتاب "فى ظلال القرآن الكريم"، للشيخ سيد قطب فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠] .

(١) راغب محمد السعيد، "الإنسان والكون فى القرآن الكريم"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٣٩ إبريل ١٩٩٤م، ص٤٧.
(٢) الزبير مهداد، "العمل فى الفكر الإسلامى"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٤٢، يوليو ١٩٩٤م، ص٧٣-٧٤.

".. وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم...".

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠]

يوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام بصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق، أو من مقتضيات حالة على الأرض، وما يجعلهم يتوقعون ويعرفون أنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء.. "لقد حفيت عليهم المشيئة العليا في بناء الأرض وعمارتها وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها على يد خليفة الله في أرضه"(١).

ثالثاً: الإسلام والاهتمام بالإنسان جسمياً وعقلياً وروحياً

التعليم الإسلامي لم يكن أبداً جانباً في الاقتصاد فقط، بل كان الوسيلة لإنشاء الفرد المسلم المستوعب للقيم الدينية، المتشبع بها، فاعتبر المسلمون التكوين المهني جزء من عمل المؤسسة التعليمية الإسلامية، التي من أهدافها تربية الناشئة تربية شاملة تحقق الكمال الإنساني الديني والعقلي والبدني.

يقرر ابن سينا (ت: ٤٢٩هـ) أن توجيه الطفل نحو التكوين المهني يجب أن يتم بعد انتهاء الطفل من تعلم القرآن الكريم، ومعرفة الدين الإسلامي، وحفظ أصول اللغة العربية، بعد ذلك ينظر إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجهه لطريقه(٢).

ويشترط ابن سينا لمؤدب الطفل إذا أراد توجيهه إلى صناعة ما أن يزن طبعه ويختبر ذكائه، وعلى ضوء نتائج هذه الفحوص والاختبارات يختار له الصناعة الملائمة.

---

(١) سيد قطب، "في ظلال القرآن الكريم"، المجلد الأول، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٠م، ص٥٦-٥٧.

(٢) الزبير مهداد، "الإسلام والتربية العقلية"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٤٢، يوليو ١٩٩٤م، ص٧٤.

... إلى جانب التكوين المهنى الخاص السليم والشامل، يجب توجيه الاهتمام إلى صحة الإنسان النفسية؛ لضمان سلامة نموه العقلى والنفسى، وتحقيق تكيف ذاتى واجتماعى متوازن؛ لأن السبيل نحو سلامة المجتمع يمر حتمًا عبر سلامة الأفراد.

لكى تصبح التربية العقلية قدرات ومهارات فعلية لابد لها من حافز يخرجها من حيز العلم والمعرفة إلى تجربة عملية ينتفع بها الفرد والمجتمع(١).

كما أكسب الإسلام التربية العقلية هذا الحافز عندما فرّق بين الذين يعملون والذين لا يعملون، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩] . وقال ﷺ: «من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة..» (رواه مسلم عن أبى هريرة).

رابعًا: الشريعة والبيئة والإنسان

إن الشريعة الإسلامية- ومن خلال القرآن الكريم والسنة النبوية- وضعت تصورًا شاملاً للبيئة شمل الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، والماء، والهواء، وجعل الإنسان مكرمًا على سائر المخلوقات، وسخرت له انطلاقًا من قاعدة الاستخلاف.

لقد أسست الشريعة الإسلامية مبدأ سد الذرائع إلى الفساد أيًا كان نوعه؛ تفسيرًا للتعامل مع البيئة بما يدرأ عنها المفسدة إبان التصرف السيىء فى المباحات أو الحقوق، فضلاً عن المجاوزة والعدوان. إن الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التى حرص عليها الرسول الكريم ﷺ، وأوحى بها إلى المسلمين إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان، والحق أن إفساد البيئة وتلويثها المضنى لها إنما يبدأ من تلويثها اليسير أو عدم الالتزام بالنظافة وإماطة الأذى عن البيئة(٢).

---

(١) محمد السيد المليجى، "الإسلام والتربية العقلية"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٦٥، يونيو ١٩٩٦م، ص٢٦.

(١) زيد محمد الرمانى، "المنظور الإسلامى لمشكلة البيئة"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٥٠، ديسمبر ١٩٩٥م، ص٤٣.

وقـد قال الرسـول ﷺ: «*إن الله طيب يحب الـطيب، نظيف يحب النظافـة، كـريم يحب الكرم، فنظفوا أفنيتكم ولا تتشـبهوا باليهود*»(رواه الترمذي). وقد عنى الإسلام عناية خاصة بنظافة البيئة باعتبارها المحل الذى يقيم فيه الإنسان، ويحصل فيه على احتياجاته، ويمارس فيه عـبادته لربه، وأعماله التي تعينه على مـواجهة متطلبات الحيـاة، كما ترتبط نظافة البـيئـة فى الإسلام ارتباطًا مـباشراً بالـطهارة، والطهارة فى اللغـة هى: النزاهة من الأقذار، وفى الشرع تعنى: "رفع ما يمنع الصلاة من حدث أو نجاسة"[1].

(١) محمد الـسيد أرناؤط، "التلوث البيئى وأثره على صحـة الإنسان"، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتـبة الدار اللبنانية، ١٩٩٧م، ص٢٢٨-٢٣٧.

المبحث الثاني

الإسلام ودعوته إلى الحفاظ على البيئة ومواردها

إن موارد البيئة هى من أجل نعم الله على البشر، وأن الله قد أعطانا جميعًا حق الانتفاع بها، فلا يحق لطائفة الاستئثار بها دون غيرها، والإنسان وصى على البيئة؛ لأنه خليفة الله فى الأرض، ووصى على البيئة وليس مالكًا لها، فعليه من هذا المنطلق أن يأخذ منها بقدر مع أداء حق هذه النعمة وشكرها بالمحافظة عليها، وبإعطاء حق الله فيها للمحتاجين.

أولاً: دعوة الإسلام إلى المحافظة على نعم الله

إن شكر النعمة عامل من عوامل استدامتها. قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾[إبراهيم:٧]. وكفران النعمة مدعاة لزوالها. قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[النحل:١١٢].

إن المحافظة على مكونات البيئة جزء من عقيدة المؤمن. قال ﷺ: «*الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق*»(رواه البخارى ومسلم).

ويجب علينا أن نتعامل مع البيئة من منطلق القواعد الفقهية الأصولية العامة، مثل درء المفاسد مقدم على جلب المصالح (ولا ضرر ولا ضرار)(١).

ثانيًا: حرص الإسلام على حماية البيئة

لقد حذر الإسلام من كل تغيير كمى وكيفى فى مكونات البيئة الحية وغير الحية؛ لأن ذلك سوف يؤدى إلى عدم مقدرة الأنظمة البيئية على استيعابها دون أن يختل توازنها، وبالتالى حدوث التلوث البيئى، ولقد خلق الله -سبحانه وتعالى- الكون وفيه

(١) عبدالحكم عبد اللطيف الصعيدى، "البيئة فى الفكر الإنسانى والواقع الإيمانى"، الطبعة الثانية، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٦، ص١٤٩.

توازن بيئى متكامل بين الكائنات الحية وغير الحية[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

كما أن السنّة المطهرة تذخر بما يؤكد هذا التصور الإسلامى بين الإنسان وما تحتويه بيئته من موجودات حية وغير حية، فقد كان رسول الله ﷺ يقول عن جبل أحد وهو يدلله تدليل الصديق: «هذا جبل يحبنا ونحبه». ومن البين أن افتقاد البشرية لهذا البعد الإيمانى، والشعور النفسى القائم على المعرفة الصحيحة لطبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة[2]؛ لذا يجب علينا اتباع المنهج الإسلامى فى تحقيق الأمن البيئى.

ثالثاً: مراقبة الله والحفاظ على جمال البيئة

لـمّا كان الجمال مقصوداً قصداً فى خلق الكون، وكان البعد الجمالى ضروريًا فى علاقة الإنسان بالبيئة، فإن ما يحدث فى عصرنا فى علاقة الإنسان بالبيئة، وما يحدث فى عصرنا من أشكال التلوث البيئى المختلفة يجب النظر إليه على أنه اعتداء أثيم على توازن البيئة المحكم، وتشويه متعمد لشكلها الجمالى الذى جعلها الله عليه، ومن ثم يكون العمل على حماية البيئة من مختلف أشكال التلوث والفساد والإبقاء على الجمال فى صفحات الكون مطلبًا إسلاميًا تستحث لأجله الهمم، وتُستثار العزائم[3].

رابعاً: حرص الرسول ﷺ على النظافة وحماية موارد البيئة

يأمر الرسول ﷺ -حفاظًا على البيئة وعلى الإنسان- أتباعه بالنظافة البدنية، ونظافة المسكن، ونظافة الشوارع والساحات العامة المحيطة بالبيوت؛ لأن نظافة المسكن من نظافة ساكنيه، ونظافة المدينة من نظافة أحيائها، فالقمامة المتراكمة تجذب الحشرات الناقلة للمرض، فالذباب المنزلى، وذبابة اللحم تنقل أمراضًا متعددة[4].

---

(١) حمدى عبد العزيز السعداوى، "التلوث البيئى والإعجاز العلمى فى القرآن الكريم"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٨٠، أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٧م، ص٥٢.

(٢) أحمد فؤاد باشا، "البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامى"، مجلة الأزهر، الجزء السابع نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٦، ص١٠١٩.

(٣) أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص١٠٢٠.

(٤) أحمد فؤاد باشا، المرجع السابق، ص١٠٢٠.

ولم يفت المصطفى ﷺ أن يوصى الإنسان بأمن بدنه نظافته لحمايته من الأوبئة والأمراض. عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «*من بات وفى يده ريح غمر فأصابه فلا يلومن إلا نفسه*» (١).

وكان ﷺ أحسن الناس مظهراً وأجملهم ثياباً، وكان يحث أصحابه على نظافة ملابسهم، فقد رأى ﷺ رجلاً عليه ثياب متسخة فقال: «*أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه*»(رواه أبو داود). فالرسول بقوله هذا يدعو المسلمين إلى عدم تقليد هذا الرجل بترك ملابسهم متسخة، وقد جعل الإسلام طهارة الثياب شرطًا لصحة الصلاة(٢).

ونظافة المكان دليل على الإيمان، فقد حث الرسول ﷺ على نظافة البيوت فقال: «إن الله طيب يحب الطيب جواد يحب الجواد، كريم يحب الكرم، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود»(رواه أبو الترمذى).

خامساً: الاقتداء بالسنة النبوية يحفظ الإنسان من خطر التلوث

ولم يفت المصطفى ﷺ أن يوصى الإنسان بأمن بدنه ونظافته لحمايته من الأوبئة والأمراض. عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «*من بات وفى يده ريح غمر فأصابه فلا يلومن إلا نفسه*» . وريح الغمر أثر الأطعمة والدهون العالقة بيد الإنسان، وهنا يأمرنا الرسول ﷺ بالنظافة لحماية بيئتنا الذاتية الشخصية الخاصة بكل فرد منا، فهناك العديد من الحشرات التى تمرح ليلاً باحثة عن طعامها، وتجذبها رائحة الدهون والفضلات، ولعل من أهم هذه الحشرات الصراصير والجراد والبراغيث، فالصراصير التى ترد على القاذورات وتلوث أطعمتنا وبعض أجزاء من جسمنا هى خير ناقل ميكانيكى لكثير من الطفيليات البدائية والترشيحات (الحمى الراشحة).(٣).

---

(١) عواد جاسم الجدى، "الأمن البيئى من منظور إسلامى"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٥٠ شوال ١٤١٥، ص٧١.
(٢) محمد السيد أرناؤوط، "التلوث البيئى وأثره على صحة الإنسان"، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الدار اللبنانية، ١٩٩٧م، ص٢٢٨-٢٣٧.
(٣) المرجع السابق.

لايزال التاريخ يحتفظ بسجلاته عن كوارث الطاعون، ذلك الوباء الخطير، ولا تزال فى الذاكرة حوادث انتشار الطاعون فى الهند فى الأعوام السابقة، حيث عزلت عن العالم.، وأوقفت كافة الخطوط الجوية العالمية رحلاتها إلى هناك، وقد قال الرسول ﷺ عن الطاعون: «*الطاعون بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارًا منه، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها*» (رواه البيهقى والترمذى). فى هذا الحديث الشريف إشارة واضحة ودليل قاطع على الاحترام والمحافظة على البيئات النظيفة الخالية من الأمراض والتلوث، وحصر البلاء والوباء فى بيئة المنشأ؛ لكى لا ينتقل إلى البيئات الأخرى.

سادسًا: الإسلام والبيئة والتربية الجمالية

لا شك أن الإسلام يدعو إلى الجمال فى كل شىء؛ ولذا قال المولى -تبارك وتعالى-: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١]. ففى هذه الآية حث على التزين والجمال عند الذهاب إلى المسجد، وحث على النظافة لأنها دليل الإيمان. التربية الجمالية تعبير يقصد به الجانب التربوى الذى يوافق وجدان الفرد[١] وشعوره، ويجعله مرهف الحس مدركًا للجمال، فيبعث ذلك فى نفسه السرور والارتياح، ويرتقى وجدانه، وتتهذب انفعالاته، وكل هذا يساعد على قوة الإرادة وصحة العزيمة، ومن هنا نقصد بذلك دعوة القرآن الكريم للنظر والتدبر فى آيات الكون ومفردات الطبيعة، والانفعال بها؛ لأن ذلك يربى عند الإنسان شعوراً جماليًا يتمثل فى الانسجام الدافئ بينه وبين الطبيعة يقوده من خلال جمالها إلى معرفة جلال الله -تعالى- إلى إدراك وحدانيته سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[الزمر:٢١].

---

(١) محمد السيد المليجى، "الإسلام والتربية الجمالية"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٧٤، فبراير ١٩٩٧، ص٧٦-٧٧.

والتربية الجمالية تدعو أيضًا إلى المحافظة على الأشجار وتحث على زرعها؛ لأن ذلك يؤدى إلى تحسين البيئة وجمالها لأن "... الأشجار والنباتات ليست فقط مصدر للغذاء، وإنما تشكل مخزون للطاقة التى تنطلق عند تحلل المواد العضوية المعقدة أو عند احتراق أعشابها أو عند التغذية على ثمارها، كما أن الأشجار والنباتات منظومة أخذ وعطاء مع الهواء والأرض، فهى تمتص أكاسيد الكربون وتطلق غاز الأكسجين فى الهواء، وتنبت التربة وتحميها من التصحّر منها العناصر المعدنية وتنقل إليها المواد الأزوتية العضوية"[1]؛ لذا يجب المحافظة على الأشجار والدعوة إلى التشجير.

***

(١) جهاز شئون البيئة، "البيئة علم وسلوك"، القاهرة، دار إلياس العصرية، ١٩٩٤م، ص١٢.

المبحث الثالث

التلوث البيئى ودور الإسلام فى الوقاية منه

أصبحت قضايا ومشكلات البيئة محل اهتمام مكثف على مختلف المستويات، فهى موضوع الساعة فى الوقت الحالى، بعد أن تبين للعالم أنها ذات تأثير عظيم الخطر على بنى الإسلام أينما وجدوا، ليس فقط فى الحاضر، وإنما أيضًا فى المستقبل، والإسلام بدعوته يقوم على وجوب المحافظة على البيئة وجمالها التى خلقها الله -سبحانه وتعالى-؛ لكى ينعم الإنسان بجمالها ويستفيد من خيراتها، ولكى يشكر الإنسان ربه عظيم الشكر على ما أنعم عليه. ويجدر بنا أن نخص هذا العنصر بمزيد من الاهتمام والتوضيح والتفصيل وذلك من خلال العناصر الآتية:

أولاً: النظافة أولى خطوات حفظ البيئة

الالتزام بنظافة البيئة من الأمور الأساسية التى حرص عليها الرسول ﷺ، وأوصى بها إلى المسلمين، إذ نص أكثر من حديث على أن النظافة من الإيمان، والحق أن إفساد البيئة إنما يبدأ من تلوثها اليسير أو عدم التزام النظافة، فعن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «*اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد، وقارعة الطريق، والظل*»، هذا الحديث الشريف قاعدة عظيمة وقانون من قوانين الأمن البيئى؛ حيث تسعى الأمم المختلفة اليوم جاهدة لسن المزيد من هذه القوانين، فى حين أشار الرسول ﷺ إلى ذلك منذ زمن بعيد، كما أشار إلى الموارد المائية والنباتية حيث يعتبر المورد المائى اليوم من الموارد الهامة التى تعرضت للتلوث.

ثانياً: التلوث البيئى والإعجاز العلمى للقرآن الكريم

لقد نهــانا القرآن الكريم عن الإخلال بالنظام البــيئى[1] وإحداث خلل فى التكامل البيئى الذى خلق الله الكون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١١-١٢].

لعل الإعجاز العلـمى للقرآن الكريم فى هذا المقام يتمـثل فى التنبؤ بظاهرة التلوث البيئى ثم بيان أسبابه حينما ينبهنا المولى -عز وجل- إلى أن التلوث يكون نتيجة لإخلال الإنســان للنظم البـيئـية المتكامـلة التى خلق الله الكون عليـها، وفى الـنهاية حـذرنا الله سبحـانه وتعـالى من العبث بـقانون التكامل الـبيـئى، ولقـد أدرك الإنسان هذه المعـانى الكريمة فى الآونة الأخيرة، وقامت الحملات، وعقدت المؤتمرات الدولية التى من شأنها التحذير من تدخلات الإنسان.

لقد أدرك الإنسان مـعانى القرآن الكريـم، وأنه صالح لكل زمـان ومكان، وأنه خالد لتوجيه وإرشـاد الناس إلى كل خير وإلى ما فيه صلاح حـالهم؛ ولذلك قامت الحملات وعقدت المؤتمرات الدولية التى من شأنها التحذير من تدخلات الإنسان للإخلال بالنظم البيئـيـة، ومن الآيات التى حذرت الـناس من إهدار البيـئـة بتلويثـها وإتلاف مـواردها الطبيـعية. قـال الله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس: ٢٤].

ثالثاً: ملوثات البيئة وآثارها الحضارية

من الجدير بالذكر أن تـأثير الإنسان على توازن البيئـة بدأ منذ ظهوره على الأرض، ولقد مـر ذلك بمراحل مختلفـة، فالإنسان البـدائى من القناص والصيـاد، وحتى الراعى والزارع، كان تأثـيره على البيـئة بسيطًا، شأنه فى ذلك شـأن الكائنات الحية الـتى كانت

(١) حمدى عبد الـعزيز السعداوى، "التلوث البيئى والإعجاز العلمـى فى القرآن الكريم"، مجلة الوعى الإسلامى"، العدد ٣٨٠، أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٧م، ص٥٢ بتصرف.

تعتبر منافسة له، وكان سلوك الإنسان وتأثيره جزئى بنظام البيئة. ولكن إشعال الحرائق فى الغابات لايزال يستخدم كوسيلة للصيد تعمد إلى ذلك مجتمعات بدائية لإكراه الحيوانات على الفرار مما يسهل صيدها.

وأضيف إلى الحرق قطع الأشجار وأكل الجذور وقطع الثمار؛ لتجعل كل هذه الأشياء حياة الإنسان ممكنة فى هذه العصور القديمة.

وفى بداية عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى كانت هناك مناطق شاسعة غير مستعملة عمليًا، غير أن هذه الحالة لم تستمر وفى أقل من مائتى عام عمدت الدول الاستعمارية الأوروبية، -وكانت تملك وسائل قوية للتدمير- إلى استخدام سياسة حرق الأرض ودون أن تنتبه إلى الآثار البيئية التى يمكن أن تحدث نتيجة لاستخدام تلك السياسة[١].

ومن الآثار السلبية للتلوث فقد "كثر التلوث الذى تعرضت له مياه سانت لورانس والبحيرات العظمى فى أمريكا الشمالية[٢]؛ وذلك بسبب النفايات الصناعية التى طالما ألقيت ومازالت تلقى فى تلك المياه، فقد دلت الإحصاءات الكندية مؤخرًا أن هذا التلوث قد بطش بحيتان تلك المياه إن لم يدمر حياتها تدميرًا".. "كما وصل التلوث فى بعض البحيرات (بحيرة ايريا)[٣] التى تساوى مساحتها مساحة إقليم بريتانى الفرنسى إلى درجة جعلت السلطات المسئولة تمنع الاستحمام فيها وتعلن محذرة أن الواجب يقضى تلقيح كل من يسقط فيها بمصل التيتانوس".

رابعًا: التلوث بالمبيدات الحشرية وخطره على صحة الإنسان

تستخدم المبيدات الزراعية لحماية الإنتاج الزراعى فى مختلف الآفات بهدف زيادة الإنتاج، وتتواجد متبقيات المبيدات فى معظم أنواع الخضر والفاكهة ودهون اللحوم والطيور والأسماك والألبان، والأحشاء الداخلية، وبعض الغدد الغنية بالدهن.

---

(١) إبراهيم سليمان عيسى،، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعى الإسلامى"، العدد ٣٤٩، رمضان ١٤١٥هـ ص٦٦.

(٢) "سلامة البشرية فى سلامة البيئة"، مجلة العربى، العدد ٣٥٧، أغسطس ١٩٨٨م، ص١٢٩.

(٣) إبراهيم سليمان عيسى،، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعى الإسلامى"، مرجع سابق ص٦٤.

ترجع خطورة هذه المبيدات إى أنها تؤثر على الجهاز العصبى بصفة خاصة وتحدث خللا فى وظائف أعضاء الجسم المختلفة مثل: الكبد، والكلى، والقلب، وأعضاء التناسل، بل يسرى التأثير إلى أهم مكونات الخلية، حيث تحدث تأثيرات وراثية أو سرطانية أو تشوه خلقى فى المواليد، وخطورة هذه المبيدات ليس فقط فى إحداث التسمم الحاد الذى قد يؤدى إلى الوفاة، وإنما إلى حدوث سمية مزمنة من خلال تناول الأفراد جرعات ضئيلة ولفترات طويلة من حياتهم.

ومن أسباب التلوث بالمبيدات الإسراف والاستخدام السيئ لها خلال إنتاج وتجهيز وتناول الغذاء، ويزيد من خطورة المبيدات الكيماوية عدم الإلمام بكيفية التخلص أو التقليل من بقاياها بالأغذية المختلفة[1].

ولابد من وضع برنامج للحد من هذه المشكلة وذلك عن طريق:

١- تحديد المشكلة ووضع ضوابط لها لمنع الأخطار البيئية والتأكيد على النواحى المرتبطة بالصحة.

٢- تنمية المهارات فى متابعة القضايا البيئية والتنبؤ بما قد يحدث من مشكلات.

٣- تنمية الوعى وتكوين الاتجاهات الخاصة بالعناية بالبيئة وحمايتها.

٤- تشجيع إجراء البحوث المتعلقة بختلف النواحى البيئية.

خامساً: التلوث وتأثيره على طبقة الأوزون

لم يقتصر عبث الإنسان بالتوازن البيئى إلى حد التأثير على الظروف المناخية للأرض، بل إن الأمر وصل إلى حد التأثير على طبقة الأوزون، فالأوزون هو شكل من أشكال الأكسجين موجود فى الطبقات العليا من الجو، يحول دون وصول كميات كبيرة من الإشعاع الذى تبثه الشمس على الموجات فوق البنفسجية، فإذا فسد أو قضى عليه

(١) جهاز شئون البيئة، "الأسرة والغذاء والتلوث"، القاهرة، مطابع الأهرام بكورنيش النيل، ١٩٩٤م، ص٧-٩.

فإن الأرض تصبح عندئذ معرضة لمزيد من الأشعة الضارة، مما يؤثر على حياة كل الكائنات الحية[1].

هناك مؤشرات عديدة تؤكد أن حزام الأوزون يتعرض للدمار والتحليل نتيجة لتدخل الإنسان والإخلال بنظام التكامل البيئي، فالنفايات التي تخرج من مداخن المصانع والمواد الكيماوية المستخلصة من الفلور كربونات مثل الأيروسول وغاز الفريون وغيرها من الملوثات.

من الآثار الضارة الناتجة عن الغازات السامة مثل غاز أول أكسيد الكربون، فقد يتعرض الفرد العادي للإصابة بتسمم غاز أول أكسيد الكربون، نتيجة لتسرب الغاز من الأنابيب الناتج من إحراق الفحم المستخدم في التدفئة، أو من مواقد الغاز، وكذلك في الحمامات، وذلك لعدم وجود تهوية جيدة كافية، وأكثر ما تحدث الإصابة إذا أدرت محرك السيارة وبخاصة إذا كان حظيرة السيارة مغلقة[2].

كما يحتل التحطيب مكانًا بارزًا من بين مشاكل البيئة جميعها، فتقطيع الأشجار لاستعمال خشبها وقودًا للطبخ والتدفئة هو الذي يقضي على غابات العالم فيؤدي إلى تلف الأوزون وهو الذي يتسبب في تعرية التربة بحيث تفقد القدرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار[3].

سادسًا: أثر تلوث المياه على البشرية

يعتبر الماء من أساسيات الحياة على الأرض وكل مخلوق عليها، وقد أصبحت البحيرات والأنهار مستودعًا كبيرًا لنفايات بعض أكثر المواد ضررًا على الإطلاق،

---

(١) حمدي عبد العزيز السعداوي، "التلوث البيئي والإعجاز العلمي في القرآن الكريم"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٨٠، أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٧م، ص٥٣.

(٢) أحمد عبد المنعم عربود، "التسمم بأول أكسيد الكربون"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٦٧، أغسطس ١٩٩٦م، ص٤٢.

(٣) "سلامة البشرية في سلامة البيئة"، مجلة العربي، العدد ٣٦١، ديسمبر ١٩٨٨م، ص٣٠.

والنفايات الأشد سمية التى يمكن التخلص منها فى المجارى المائية تشمل النسبة الكبرى من الـ ٧٠ ألف مادة كيميائية تركيبية تكرر فى بيئتنا، فتسمم مجارى المياه الطبيعية ويدمر النظم البيئية التى تعتمد عليها حياتنا نحن بنى البشر.

يلاحظ أن مياه البحيرات تتلوث وتتحول إلى بحيرات سامة بسبب الأسمدة التى تزيد من تكاثر الطحالب.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن نسبة الأكسجين انخفضت فى بعض البلدان، ويلاحظ أن البحر المتوسط يتعرض لخطر التلوث والتسمم خلال الخمسين سنة القادمة؛ لأنه أقل اتساعًا من المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى(١).

ومن مصادر تلوث المياه أيضًا "الزراعة: ثمة مصادر ثلاثة للتلوث الزراعى، وتتمثل فى المبيدات والأسمدة الكيماوية والأسمدة الحيوانية، فبقايا المبيدات التى تترشح إلى المياه الجوفية تقوم بتسميم مصادر المياه الصالحة للشرب، وتصبح مركزة فى السلسلة الغذائية، وتساهم الأسمدة الفسفورية والنيتروجينية فى عملية التفاعل فى المجارى المائية، حيث يؤدى تزايد الإنتاج النباتى إلى استنفاد موارد الأكسجين(٢).

ومن مصادر تلوث المياه.. المجارى. إن مياه الصرف الصحى التى تعتبر أشهر أنواع الملوثات المائية تتألف من النفايات الحضارية والصناعية.

سابعاً: التلوث السمعى وآثاره الضارة

التلوث كما عرّفه العالم هو: أى تغيير فيزيائى أو كيميائى أو بيولوجى مميز، ويؤدى إلى تأثير ضار على الهواء أو الإضرار بالعملية الإنتاجية كنتيجة للتأثير على حالة الموارد المتجددة، إذن من خلال التعريف نجد أن من أنواع الملوثات هو الضوضاء التى تؤثر على الإنسان وهو التلوث السمعى(٣).

(١) عصام الشيخ قاسم، "أزمة تلوث المياه فى العالم"، مجلة الكويت، العدد ١٤٣، سبتمبر ١٩٩٥م، ص٨٢.
(٢) إبراهيم سليمان عيسى، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعى الإسلامى"، العدد ٣٤٩، فبراير ١٩٩٥م، ص٦٤.
(٣) منى قاسم، "التلوث البيئى والتنمية الاقتصادية"، الطبعة الثانية، القاهرة، الدار اللبنانية المصرية ١٩٩٧م، ص٤٨.

والضوضاء لها نتائج خطيرة وهى: الإرهاق السمعى، والصمم المهنى، والصدمات السمعية، وإن الإرهاق السمعى يتسم بزيادة مؤقتة فى قوة السمع، وهو يبدأ من ٩٠ ديسيبل، وأن الإحساس لضوضاء معينة يقل بتأثير ضوضاء أوضح وأقوى.

وهناك نتائج أخرى قد تكون أكثر خطورة مثل الخلل فى العصب السمعى الناتج عن الضوضاء (اضطرابات سمعية) الذى يتميز بفقدان القدرة على السمع، وقد ترجع أسباب الضوضاء إلى الانفجارات.

وهناك نتائج نفسية للضوضاء[(١)]، وتظهر بصفة أساسية فى الأحلام والآلام فى الرأس، وفقدان الشهية، والشعور بالضيق والتعاسة، وبالنسبة للعمل والمهام الذهنية والعقلية والفكرة نجد أن للضوضاء آثارًا ضخمة، ولقد لاحظنا فروقًا محسوسة فى الإنتاج بين العمل الذى يؤدى فى جو هادئ والعمل الذى يؤدى فى جو كله ضوضاء، ومن الثابت أن الضوضاء تسبب ٥٠٪ من الأخطاء فى العمل.

ثامنًا: الرسول هو القدوة الحسنة فى عدم الضوضاء ومراعاة شعور الآخرين

أمرنا الرسول ﷺ أن نقدم كل ما هو خير للمسلمين؛ لأنهم أخوة فى الله، وقد نهانا عن إيذاء الناس فى أحاديث كثيرة منها ما ورد عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ها هنا...»[(٢)].

اتصف ﷺ بحسن معاملته لكل من خالطه ليستوى فى ذلك الخادم والسيد، والفقير والغنى، والمرأة والرجل، فيروى أنه ﷺ ما نهر خادمًا وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يكون جهادًا فى سبيل الله، قال أنس -رضى الله عنه-: "خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط ولا قال لشىء صنعته لما صنعته، ولا لشىء تركته لما تركته"[(٣)].

---

(١) روبرت لافون، "التلوث"، ترجمة: نادية القبانى، جنيف (سويسرا)، ١٩٧٧م، ص٩٥.

(٢) الإمام النووى، "رياض الصالحين"، القاهرة، دار النيل، ص٩٥.

(٣) عبد العظيم سيد الطنطاوى، "خصائص الأخلاق فى الإسلام وغاياتها"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٥٠، مارس ١٩٩٥م، ص٦٦.

كما أن القرآن الكريم نهى عن الجلبة والضوضاء فى آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[لقمان:٨]. وقال أيضًا فى سورة الحجرات نهيًا عن رفع الصوت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾[الحجرات:٢].

تاسعًا: حل مشكلة التلوث البيئى للمحافظة على البيئة ومواردها

خلال العقود الأخيرة تعالت صيحات التحذير من أخطار التلوث البيئى التى تصيب الحرث والنسل، فى عام ١٩٨٨م أعلن العلماء فى مؤتمر عقده برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة أنهم يتوقعون لمستوى البحر الأبيض المتوسط أن يرتفع بسبب تزايد سخونة الجو، بما يتراوح بين ٥٥ ,١٣ سم قبل حلول عام ٢٠٢٥، وأن يرتفع بحدود ٢م خلال قرنين من الزمان، ويغمر أغلب المدن الساحلية[1].

ولم يعد موضوع تلوث البيئة مشكلة إقليمية محسورة فى منطقة دون أخرى، وعلى العالم كله السعى لمعالجة الآثار السلبية المترتبة عليها، ويعتبر موضوع تلوث البيئة من قضايا الساعة التى تواجه البشرية جمعاء، وعلى كل البشرية أن تجد وتجتهد حتى تجد خلاصًا من هذه المحنة، ولحل هذه المشكلة يجب اتباع الآتى:

١- يجب الاهتمام بالاستثمارات لحل هذه المشكلة فى علاج المخلفات بأنواعها، ودراسة الآثار الاقتصادية لعمليات إعادة الاستخدام لما لذلك من أثر إيجابى من حيث درء مشاكل التلوث من ناحية، وإيجاد عوائد مادية للمشروع من جهة أخرى نتيجة إعادة تصنيع المخلفات.

٢- يجب العمل على القضاء على ظاهرة المقالب المفتوحة (القمامة) لما لها من آثار ضارة سواء على صحة الإنسان أو الحيوان.

---

(١) أحمد فؤاد باشا، "البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامى"، مجلة الأزهر، الجزء السادس، أكتوبر/ نوفمبر ١٩٩٦، ص٨٦١.

٣- إنشاء هيئات متخصصة للتعامل مع القمامة من الجمع والنقل، أو التخلص، على أن تكون مستغلة، وإنشاء إدارة مركزية تشرف على متابعة هذا الموضوع.

٤- التوسع فى إنتاج أكياس القمامة، والعمل على تخفيض أثمانها عن طريق استخدام مخلفات البلاستيك.

٥- حث الناس على الإقلاع عن التدخين، لما له من آثار ضارة على الصحة والبيئة.

عاشراً: المنهج الإسلامى للإصلاح البيئى

إن المنهج الإسلامى فى التعايش السلمى مع البيئة منهج شامل، فهو كلٌ لا يتجزأ ووحدة متماسكة، والإسلام يضع لكل تصرفات الإنسان الضوابط والقيود التى تحد من طغيانه وطموحه، ففى الحديث: «نعم المال الصالح للعبد الصالح» ففى نماء ثروة الأفراد ونقائها نماء لثروة الأمة ونفعًا لأبناء الكون كافة؛ ولهذا فقد حرّم الإسلام الإسراف والتبذير وجعل المبذرين إخوان الشياطين، كما نبه الإسلام إلى النظافة وعدم الإفساد بالبيئة، ومن الأدلة القرآنية على عدم إفساد البيئة قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة:١٩٥].

والرسول ﷺ له أحاديث كثيرة ينهى فيها عن الإضرار بالغير وعدم الإفساد بالبيئة؛ لأنها نعمة من الله يجب الحفاظ عليها، وواجب على من يرى ذلك أن يمنع هذا الضرر، فقال ﷺ: «*من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان*»(١)، وقد نهى الله -سبحانه وتعالى- فى آيات كثيرة عن الإفساد فى الأرض فقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٦].

ومن خلال ما تقدم يجب وضع حلول للوقاية من هذه المشكلة، ومن هذه الحلول:

١- تنمية الوعى البيئى، وإيجاد حلول للمشكلات البيئية، والحث على عدم إقامة مشكلات بيئية جديدة، وتقدير عظمة الخالق فى الكون.

٢- وقاية المجتمعات البشرية من التأثيرات الضارة لبعض عوامل البيئة، ووقاية البيئة من النشاط الإنسانى الضار، وتحسن نوعية البيئة وتطويعها لصحة الإنسان ورفاهيته.

المبحث الرابع
دعوة الإسلام إلى العمل وتنمية الموارد وعمارة الأرض

إن العمل غاية إنسانية وواجب اجتماعي ووسيلة لتحقيق الرخاء البشري، وتلبية حاجات الناس، وهو في الإسلام من القيم الدينية التي ترقى إلى مستوى العبادة؛ لأنه يحقق الحكمة من خلق الإنسان ووجوده على الأرض.

أولاً: العمل في الفكر التربوي الإسلامي

التربية الإسلامية عملية إعداد للإنسان بتثقيفه ورعايته وإصلاح شأنه، وتعهده ليكون شخصية إسلامية مهتدية، قادرة على القيام بمسئولية الاستخلاف على الأرض بالالتزام بالمسئوليات والواجبات التي حددها الله -تبارك وتعالى-.

العمل وسيلة لتفتيح شخصية الإنسان وتهذيبها وصياغتها بما يتفق وما جاءت به العقيدة الإسلامية من تشريعات وآداب[1]. وقد حث القرآن الكريم على العمل في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص:٧٧].

ولما كان الإسلام يريد تحرير الإنسان من الداخل، بمعنى أن يشعر بعزته وكرامته معتمداً على نفسه، كان نظام المكاتبة حيث يكاتب العبد سيده على جعل يؤديه إليه في مدة زمنية، فإذا وفى بعهده يكون قد اكتسب مهارة وقدرة على الاعتماد على النفس، فإذا كان وقت عتقه كان حراً من الداخل.[2]

ثانياً: أهمية العمل في الإسلام

اهتم الإسلام بالعمل وأعلى من قيمته في المجتمع؛ لما له من دور هام في بناء الأمة الإسلامية، وتحقيق نهضتها بين الأمم والمجتمعات المعاصرة. العمل في الإسلام يقصد

(١) الزبير مهداد، "العمل في الفكر الإسلامي"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٤٢، يوليو ١٩٩٤م، ص٧٢-٧٣.
(٢) حيدر قفه، "معالجة الإسلام للبطالة والفقر"، مجلة منار الإسلام، العدد العاشر، فبراير ١٩٩٨م، ص٧٣.

به الكسب فرض عين على المسلم؛ لأن إقامة الفرائض تقتضى حتمًا قدرة بدنية ونفسية وهذه لا تتأتى إلا بطعام ونفقة.(١)

هناك أدلة على أهمية العمل فى الإسلام، منهـا قول الرسول ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل» (رواه أحمد عن أنس بن مالك).

العمل والتنمية وجهان لعملة واحدة، فالعمل طريق للتنمية، والتنمية نتيجة للعمل؛ ولذا "..... إن إحداث التنمية والتقدم ورفع مستوى معيشة المجتمع ومواجهة القضايا الجوهرية، والاستخدام الأمثل للموارد هى المعايير التى ينطلق منها التاريخ فى إصدار أحكامه الموضوعية والقطعية على مجتمع من المجتمعات، وتقرير ما إذا كان هذا المجتمع على مستوى تحديات عصره ومتغيرات زمانه أم إنه كان مجتمعًا قاعدًا قانعًا بدور المشاهد لفصول الحياة، مفضلاً ذلك على أداء دور فاعل يكفل له المنزلة والمكانة على المسرح الدولى"(٢).

إن العمل لا يقتصر على المتمتعين بالصحة، وإنما يشارك المعوقون بقدر المستطاع فى العمل؛ وذلك لرفع روحهم المعنوية، وإشعارهم بوجودهم وإفادتهم لأنفسهم ومجتمعهم؛ ولذا حددت الأمم المتحدة فى قرارها خمس أهداف رئيسية:(٣)

١- مساعدة المعوقين على التكيف الجسمانى مع المجتمع.
٢- تشجيع كل الجهود المبذولة على الصعيدين الوطنى والدولى.
٣- تشجيع مشاريع الدراسة والبحث الرامية إلى تيسير مشاركة المعوقين فى الحياة.
٤- تثقيف الجمهور وتوعيته بحقوق المعوقين.
٥- تشجيع اتخاذ تدابير فعالة للوقاية من العجز، وإعادة التأهيل.

---

(١) السيد أحمد المخزنجى، أهمية العمل فى الإسلام"، مجلة الأزهر، العدد الخامس، أكتوبر ١٩٩٦م، ص٦٧٢.
(٢) عبدالرحمن بن سبيت السبيت، "القوى البشرية والمسئولية الوطنية"، مجلة كلية خالد العسكرية، العدد ٤٣، ربيع وصيف ١٩٩٤م، ص١١.
(٣) أحمد خليفة المهدى - محمد توفيق أحمد، "المعوقون بين مطرق الحياة وسندان المجتمع"، مجلة الضياء، العدد ٤١، فبراير ١٩٩٦م، ص٤٢.

ثالثا: الإسلام ومعالجته للبطالة والفقر:

إن مشكلة البطالة والفقر ليست مشكلة حديثة تعانى منها مجتمعات اليوم، بل هى مشكلة قديمة قدم التاريخ، وبرزت مع الإنسان منذ الخليقة، إلا أنها تظهر بوضوح فى مجتمعات أو بيئات وتستتر فى أخرى.

مما لا شك فيه أن الحضارة والتقدم زاد هذه المشكلة[1] بروزًا ووضوحًا؛ وذلك لأن البطالة -على سبيل المثال- لم تكن ظاهرة فى المجتمعات الرعوية ولا فى المجتمعات الزراعية فيما بعد، بيد أنها تظهر مع ظهور المجتمعات الصناعية، وازدادت أكثر فى المجتمعات المدنية التى نال أفرادها حظًا من التعليم.

ومن المفارقات العجيبة أن يكون التعليم أحد أسباب البطالة؛ ذلك لأن الذى نال حظًا من التعليم يرفض العمل الذى لا يتوافق مع الدرجة العلمية التى وصل إليها، وكلما صعد فى مدارج الشهادات المكتسبة قلت فرص العمل أمامه؛ لفارق المستوى بين الواقع والمفترض المتخيل، ولكن على الشباب الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش بأى عمل مناسب.

الإسلام تصدى لمشكلة البطالة لأنها يتولد عنها الفقر[2] ويتولد عن هذا الثنائى المتلازم سلوك معوج يؤدى إلى الجريمة، ومن فضل الله أن الجريمة الناشئة عن ذاك الثنائى -بطالة وفقر- قليلة النسبة فى معظم المجتمعات، فالجريمة ليست نتيجة مطلقة تتولد عن البطالة والفقر، وقد حث الإسلام على العمل فى قول المولى -عز وجل-: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:١٠٥].

رابعًا: الإسلام والعمل يحرران الإنسان من الداخل

رسّخ الإسلام فى نفس المسلم عقيدة أن الرزق من الله، فهو الرزاق ذو القوة المتين،

(١) حيدر فقه، "معالجة الإسلام للبطالة والفقر"، مجلة منار الإسلام، العدد العاشر، فبراير ١٩٩٨م، ص٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص٧٤.

وأن لكل نفس منفوسة رزقها، ولن تموت حتى تستوفى هذا الرزق بكامله، ولا يملك أحد منع الرزق عن صاحبه إن أراد الله ذلك، ولا أن يأتي به أحد إن حجبه الله -تعالى، كما أن الخلق كلهم -مهما علا شأنهم- لا يملكون الرزق لأحد، فإن جاء رزق على يد[1] واحد منهم فهو من الله -سبحانه وتعالى-، وما الناس في ذلك إلا وسائل ووسائط ليس إلا، فالله تعالى يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:٢٢-٢٣].

وقد وردت أحاديث وآيات قرآنية تدل على فضل العمل، وأن العمل وسيلة وسبب في الرزق، وفي هذا يقول المولى -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨]. ويقول الرسول ﷺ: «*يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم*»[2].

ويقول الرسول ﷺ في حديث نبوي: «*إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله*»[3].

خامسًا: حث الإسلام على العمل وعدم التواكل

إذا كان الرزق من الله -تعالى- وهو متكفل به، وإن النفس لن تموت حتى تستوفي رزقها، وأن الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، إلا أن هذا الرزق غيب محجوب عن العبد؛ ولذا لا يعلم العبد ما هو رزقه، فترتب على ذلك السعي من أجل هذا الرزق، فالرزق سيأتي سيأتي ولكن يحتاج إلى وسيلة، ولابد أن تكون وسيلة شريفة، ومن هنا كره الإسلام الكسل والاتكالية، وحضّ على العمل والسعي.. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥]. وهنا

(١) حيدر قفه، "معالجة الإسلام للبطالة والفقر"، مرجع سابق، ص٧٤.

(٢) رواه ابن ماجه، واللفظ له، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، الترغيب والترهيب.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والطبراني، "منار الإسلام"، ص٧٤.

ربط عجيب بين أمور أربعة: تذليل الله للأرض، وجعلها سهلة حض المسلم على الحركة، والدعوة للمشى فى مناكبها مقاومة للكسل والخمول، والأكل من رزق الله الذى ينتج عن هذه الحركة، ثم التذكير باليوم الآخر لاستقامة الوسيلة.

قال رسول الله ﷺ: «*ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده*»[1]. وكان من دعائه: «*اللهم بارك لأمتى فى بكورها*»[2]، وكان عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول: "لا يعقد أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة وأن الله -تعالى- يرزق الناس بعضهم من بعض"، وكان يقول أيضًا: "إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة فإن قالوا: لا. سقط من عينى".

(١) رواه البخارى فى "الترغيب والتهذيب"، جـ٢، ص٥٢١، رقم(١).
(٢) رواه النسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود وابن حبان، "منار الإسلام"، ص٧٤.

المبحث الخامس

استراتيجية إسلامية للتنمية الاقتصادية

كيف نصل إلى استراتيجية إسلامية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية؟ وما هي وسائل تحقيق هذه الاستراتيجية؟ وكيف يمكن تحقيق أهداف هذه الاستراتيجية؟ تشكل الإجابة عن هذه الأسئلة هدف هذه السطور والتي تتركز حول الوصول إلى استراتيجية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ضوء الإسلام ومبادئه وأصوله.

أولاً: المبادئ الإسلامية لتحقيق التنمية[1]

المبدأ الأول: الاستعانة بالمبادئ الإسلامية

الاستعانة بالمبادئ الاقتصادية الإسلامية، فقد ثبت بالدليل القاطع أن الإسلام دين ودنيا وسلوك وعمل وأداء للتواصل والتقدم المنشود، فلابد من تكثيف الجهود من أجل الكشف عن الأصول والمبادئ الاقتصادية الإسلامية بلغة العصر.

المبدأ الثاني: وعي الفرد بدوره في صنع المستقبل

إن وعي الفرد بدوره في صنع المستقبل، فلابد من تحقيق الثقة للفرد، وتوفير المناخ الملائم لكي يبذل كل جهد نافع، فالاهتمام بالفرد كشريك أساس في العملية الإنتاجية من أثمن ما يملكه الوطن.

المبدأ الثالث: تطوير وسائل الإنتاج

فالإسلام وضع ضوابط للإنتاج بالمال والملكية، وتوزيع الدخل واستخدام عناصر الإنتاج المتاحة للمجتمع، وترك لنا أن نستخدم عقولنا في تطوير وسائل الإنتاج لنصل إلى الصيغ التي تتفق مع الدين.

المبدأ الرابع: تطوير الفكر الاقتصادي

إننا نحتاج إلى تطوير كامل للفكر الاقتصادي للوصول إلى التنمية[2].

---

(1) حمدي الحلواني، "استراتيجية إسلامية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٣٤٨، يناير ١٩٩٥م، ص٥٧.

(2) المرجع السابق، ص٤٧.

ثانيا: حث الإسلام على تنمية الثروة النباتية

لقد أنعم الله على الإنسان بنعم كثيرة منها أن سخر له الأرض ليقوم بزراعتها والاستفادة من خيراتها ومحاصيلها، ومن أهم هذه النعم محاصيل البقوليات، ولهذه الزراعة أهمية كبرى حيث أنها تمثل زاد التربة، ولحم الفقير، وأهمية البقوليات كثيرة منها: أن للبقوليات مكانة هامة فى سلم التنوع البيولوجى لما لهذه المجموعة النباتية من مميزات بيئية واقتصادية[١].

والثروة الخضراء التى أحدثتها العلوم والتكنولوجية فى الزراعة خلال فترة الستينات والسبعينات من هذا القرن، بدأت تواجه خطر الثورة المضادة بدعوة جديدة للعودة إلى الطبيعة وإقامة أنظمة زراعية بيئية تحاكى الطبيعة، وتدعو إلى التعلم من الفلاحين طرق الإنتاج التقليدية[٢].

النظام البيئى القائم فى التربية يعتبر نظامًا أيكولوجيًا متوازنًا قوامه الأجزاء الثلاثة للتربة: الصلب، والسائل، والغازى، وتكمن الفكرة الأساسية وراء الثورة الزراعية الجديدة بتصميم نظام زراعى بيئى يحاكى هياكل ووظائف أنظمة البيئة المحلية الطبيعية، وعلى الصعيد الاقتصادى والاجتماعى تركز الثورة الجديدة على المزارعين، وبهذا الأسلوب تصبح الزراعة الجديدة متوافقة ثقافيًا؛ لأنها تبنى مشروعاتها على أساس الجمع بين المعرفة التقليدية للمزارعين وعناصر العلوم الزراعية[٣].

ثالثا: دعوة الإسلام إلى تنمية الثروة المائية والحيوانية

إن نظافة المياه من أهم وسائل الحفاظ على الصحة؛ ولذلك لما كان الماء أصل الحياة فى الكون كله حيث يقول الله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فإن المحافظة على نظافته من التلوث والفساد تعد أساس المحافظة على الحياة بأشكالها

(١) عواد جاسم الجندى، "البقوليات زاد التربة ولحم الفقير"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٦ يونيو ١٩٦٦، ص٥٨.
(٢) سيف الدين الاتاسى، "فى بعض الرجوع تقدم بيئى"، مجلة العربى، العدد ٤٤٢، يناير ١٩٩٩، ص١٥٠-١٥١.
(٣) المرجع السابق نفسه.

المختلفة، وتحفل الشريعة الإسلامية بنصوص كثيرة تحث على حماية الماء من التلوث، فعن جابر رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «*لا يبولن أحدكم فى الماء الراكد، ثم يغتسل فيه*»، وقوله ﷺ: «*أوكئو قربكم واذكروا اسم الله وغطوا آنيتكم واذكروا اسم الله*»[١].

والثروة المائية وما تحتويه الأنهار والبحيرات من أسماك مختلفة، لذا يجب علينا تنمية هذه الثروة المائية بشتى الطرق؛ وذلك لأن "الماء يعتبر من أساسيات الحياة على الأرض، وكل مخلوق عليها، فمن الإنسان حتى أصغر الكائنات الحية لا تعيش بدون الماء، وفى عالمنا هذا كميات وافرة من المياه تتركز معظمها فى البحار والمحيطات، والماء كمصدر طبيعي متوفر مباشرة للاستهلاك البشرى"[٢]، لذا يجب علينا تنميته والحفاظ عليه.

الثروة الحيوانية عنصر هام من عناصر الإنتاج القومى، فالإسلام بدعوته الصريحة إلى العمل والكسب الحلال يحثنا على بذل قصارى جهدنا للاعتماد على النفس، ومن وسائل هذا الإنتاج الحيوانى تربية الماشية بأنواعها المختلفة، لما تحتوى عليه من بروتينات وفوائد تعطى الإنسان المسلم القوة لكى يعمل ولكى يقوى على عبادة ربه سبحانه وتعالى.

رابعاً: التربية الاقتصادية وترشيد الاستهلاك

يجب تشجيع الفرد على الأخذ بأسلوب وأسباب التنمية فى الدول النامية مثل مصر، كما يجب تفهم عوامل البناء الاقتصادى مثل الادخار والاستهلاك والترشيد فى الاستخدام، والاستثمار الطويل المدى والقصير المدى، والتدريب على الإنتاج وتأصيل روح الخدمة والنظافة، وتشجيع الابتكار والادخار، وفى حديث رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رفع الكفاءة مطلوب فى هذه الفترة وذلك بالتربية السليمة منذ الطفولة[٣].

---

(١) محمد السيد أرناؤوط، "التلوث البيئى وأثره على صحة الإنسان"، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الدار اللبنانية، ١٩٩٧م، ٢٣٧.

(٢) عصام الشيخ قاسم، "أزمة تلوث المياه فى العالم"، مجلة الكويت، العدد ١٤٣، سبتمبر ١٩٩٥، ص٨٠.

(٣) حسين كفافى، "رؤية عصرية لخريطة مصر"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م، ص١٨٥.

وبالنسبة للتصنيع فهو عامل هام من عوامل زيادة الاقتصاد والإنتاج، "والصناعة وتطوير الزراعة وتنويع الإنتاج تشكل الجوانب الأساسية لكل جهد يرمى إلى تنمية سريعة لقوى الإنتاج، فإن شكل التصنيع ومعدلاته ومداه وطبيعته أمور تتوقف كلها بالنسبة لكل بلد على ظروفها المحددة وطبيعة موارده الزراعية والمعدنية والمالية، وعدد سكانه، وثقافته، ولكن التصنيع يظل دائمًا شرطًا ضروريًا للتنمية الاقتصادية"[٢].

إن الكفاية الإنتاجية تستخدم فى تنمية الثروة القومية وزيادة الدخل القومى، فإنها أيضًا من العوامل الهامة فى تمكين العمال من الحصول على مستوى أعلى فى الدخل، ورفع مستوى المعيشة وزيادة قدرتهم على شراء ما يحتاجونه من سلع وخدمات، ومنحهم أكبر قسط من الرعاية الاجتماعية والصحية، وبمعنى آخر تعد الكفاية الإنتاجية دعامة هامة من الدعامات التى تبنى عليها أسباب السعادة لبنى البشر وتحقيق الرفاهية.[٣]

خامسًا: استهلاك المياه وآثارها المدمرة ودور الإسلام فى الحفاظ على المياه

هناك آثار مدمرة ناشئة عن الإسراف فى استهلاك المياه، حيث يؤدى إلى إفساد عذوبتها، ومع استمرار الاستهلاك الزائد للموارد المائية تصبح عرضة للندرة؛ مما يؤدى إلى مشكلات لا حصر لها على المستويين الداخلى والخارجى، ويكفى أن ندرة المياه والصراع عليها كانت السبب فى تفجر معظم المشكلات التى ظهرت فى التسعينات[٣]، ويمكن أن يقوم الإعلام بدور فعال فى التوعية فى استهلاك المياه، والحرص على استغلالها الاستغلال الأمثل الذى يحقق الفائدة دون إسراف، وإعلامنا المصرى يقوم بهذا الدور الفعال الذى يثمر نتائج تفيد المجتمع كله من حيث توفر المياه الكافية لإقامة المشروعات الجديدة واستصلاح الأراضى الصحراوية مثل مشروع "توشكى" الذى

---

(١) شارل بتليم، "التخطيط والتنمية"، ترجمة: إسماعيل صبرى عبد الله، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦، ص٢٤٦.
(٢) سعد عبد السلام حبيب، "مجتمعنا الجديد"، القاهرة، مطابع الدار القومية، ١٩٦٣م، ص١٧٨.
(٣) بركات عبد العزيز، "الإعلام الإسلامى ومشاكل البيئة"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٥٨، فبراير ١٩٩٥م، ص ٦٠.

سوف ينهض بمصر زراعيًا واقتصاديًا، ويحقق الاكتفاء الذاتى الغذائى.. لابد من توافر الوعى لدى المجتمع من حيث المحافظة على الأراضى الزراعية وعدم البناء عليها؛ لأن ذلك يهدد الثروة الزراعية، ويعتبر هذا إهدار لنعمة كبرى منحها الله -سبحانه وتعالى- للمجتمع.

سادسًا: دعوة الإسلام إلى عدم الإسراف فى المأكل والمشرب

دعا الإسلام إلى التنعم بنعم الله -سبحانه وتعالى- من مأكل ومشرب، ولكن هذه الدعوة كانت تتصف بالتوسط والاعتدال وعدم الإسراف؛ لذا يقول المولى تبارك وتعالى فى محكم التنزيل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١]. وفى هذه الآية تناول فضيلة من فضائل الإيمان وهى الاقتصاد فى المعيشة بعيدًا عن سفه الإسراف وحماقة الشح، وهو خلق نبه عليه الإسلام مما يدل على ما يتسم به من سلوك المسلم الملتزم من حكمة وبصيرة فى التعامل مع المال وغيره.[١]

سابعًا: الإسلام وضرورة تطوير القوى البشرية

يرتبط تقدم الأمم والشعوب ارتباطًا وثيقًا بالمسيرة التطويرية لأبنائها، فتتوقف مسيرتها عند مستوى ما يحمله هؤلاء فى صدورهم من إيمان، وفى رؤوسهم من علوم، ويرتبط حركتهم إيجابًا وسلبًا بما يدخرونه من معارف فى عقولهم، ومن ثم يظل الإنسان مهما مدت له الحياة مُطالبًا بتطوير علومه وإثراء معارفه؛ ليدفع حركة التقدم ويعزز قدرتها على الاستمرار.

إن أحداث التقدم والتنمية ورفع مستوى معيشة المجتمع، أو مواجهة القضايا الجوهرية والاستخدام الأمثل للموارد هى المعايير التى ينطلق منها التاريخ فى إصدار أحكامه الموضوعية والقطعية على مجتمع من المجتمعات، وتقرير ما إذا كان هذا المجتمع على مستوى تحديات عصره ومتغيرات زمانه، أم أنه كان مجتمعًا قاعدًا قانعًا بدور المشاهد من فصول الحياة.[٢]

(١) السيد رزق الطويل، "الوسطية وموقعها فى القرآن"، مجلة منبر الإسلام، العدد ٥٠، أكتوبر ١٩٩٦، ص٢٢.
(٢) عبد الرحمن بن سبيت السبيت، "القوى البشرية والمسئولية الوطنية"، مجلة كلية خالد العسكرية، العدد ٤٣، ربيع وصيف ١٤١٥هـ ص١١.

إن الحصول على نتيجة أفضل يتطلب بالطبع سياسات وبرامج قومية أفضل للتنمية الريفية -فى مصر خاصة- مما عليه الآن؛ لأن الهدف من التنمية هو توسع نطاق النظام الريفى بزيادة حجم العناصر القائمة، وتقوية الروابط الراهنة، وإدخال آلات حديثة حتى تصل إلى درجة عالية من التطور والتنمية.

إن الزراعة المعتمدة على الأيدى العاملة[1] تميل إلى الأسلوب التقليدى، وهى زراعة جامدة وليس ثمة شك فى أن تحديث الأساليب الزراعية بالميكنة ضرورى.

* * *

(١) لورانس هيوز، "التنمية الريفية"، ترجمة: نور الدين الزرارى، القاهرة، مؤسسة التعاون للطبع والنشر، ١٩٨٢م، ص٢٣٥.

المبحث السادس

دور المؤسسات التربوية والدينية والإعلامية في تنمية موارد البيئة والحفاظ عليها

أولاً: دور المدرسة في الوعي البيئي

للمدرسة دور فعال في المحافظة على موارد البيئة وتنميتها "وذلك حينما يشارك التلاميذ في العمل الميداني في البيئة المحلية، ويدركون آثار التفاعل بين الإنسان والبيئة، وكيف استطاع الإنسان أن يبذل جهوداً متواصلة من أجل استغلال موارد البيئة ومن أجل تطوير حياته وحياة الأجيال التالية"[١].

والمدرسة لها دور في إعداد التلميذ ليكون مواطناً مستنيراً ومشاركاً بفاعلية في تنمية وتطوير مجتمعه وبيئته، ومساعدته على إدراك وفهم ما له من حقوق وما عليه من واجبات تجاه مجتمعه، ومساعدته على فهم ما يدور في بيئته من مشكلات.

وللمدرسة دور في تزويد التلاميذ بالقدر الضروري من المعارف والمهارات التي تمكّنهم من أن يكونوا مواطنين منتجين في مجتمعهم وبيئتهم، ومشاركين في ميادين التنمية الشاملة المستديمة التي تضع في اعتبارها صيانة البيئة وحمايتها.

كما أن للمدرسة دور في التنمية الريفية وذلك في "التعليم العام الأساسي، ويشمل محو الأمية والحساب ومبادئ أولية في العلوم عن بيئة الطالب من أهداف المدارس الابتدائية والثانوية.. وأيضاً التعليم المهني وهدفه تنمية بعض أنواع المعرفة والمهارات ذات الصلة بأنشطة اقتصادية مختلفة"[٢].

كما لا يكفي أن تعمل الدولة على محو الأمية[٣] من الريف، بل يجب أن يدرك

---

(١) أحمد حسين اللقاني، فادعه حسن محمد سليمان، "التدريس الفعال"، الطبعة الأولى، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨٥م، ص١١٤.

(٢) فيليب هـ كومبز، منظور أحمد، "مكافحة الفقر في الريف"، ترجمة: إلياس إسكندر، القاهرة، مؤسسة التعاون للطبع والنشر، ١٩٧٧م، ص٣٩.

(٣) فتحي عبد الفتاح، "القرية المصرية"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص٤٦٣-٤٦٤.

الفلاحـون أن محو أميـتهم مسألة ضـرورية للحفاظ على مـصالحهم وحقـوقهم، بل إن عليـهم ألا ينظروا دائمًـا إلى ما تقـدمه إليـهم أجـهزة الدولة المخـتلفـة، بل يقومـون هم بأنفسهم بمبادرات ذاتية سواء فى محو الأمية وإنشاء النوادى.

ثانيًا: دور الجامعات في تنمية الوعى البيئى

للجامعة دور فعال وهام فى التنمية بشـتى أنواعها، وأيضًا فى التوعية والمحافظة على البيئة ومـواردها؛ ولذلك تتيح الجامعة الفرص أمام طلابهـا للحصول على قدر كـاف من الوعى والمعرفـة والثقـافة العـامة والـتدريب على مـهن كثـيرة فى كليـات الجامـعة، من أجل التنمـية، ومن أجل تحقـيق الرخاء للوطن، ويمكـن تلخيص دور الجامعة فى أربعة وظائف هى:

١- الثقافة العامة

عندما نتحدث عن الثقافة العامة نقصد حـالة عقلية معينة، إلى جانب كونها حصيلة من المعرفة، فـهى ترمى إلى تحرير الفرد المتـعلم من الخزعبلات والجـهل، وفى نفس الوقت تمنحه الإمكانات والقيم التى يتفاعل معها فى محاولة لأن يبدأ فى لعب دوره فى مجتمعه.

٢- مد المجتمع بالأفراد المتخصصين

تمد الجامعة المجـتمع بالأفراد المتخصـصين فى شـتى المجالات والمناشط لإعداد أفراد قادرون بعد دراستهم الجامعية أن يعاونوا فى تسـيير دفة الأمور فى المجتمع لخدمة أفراده، فلن تشق طرق بدون مهندسين، ولا يجـد المرضى من يصف لهم الدواء بدون أطباء، بل لن يجدوا مستشفى ما لم تُبنَ لهم...[1].

٣- الدراسات العليا والبحوث

الدراسات الـعليا والبـحوث تسـعى باستـمرار إلى توسـيع آفاق المعـرفة البشـرية، فالإنسـان بطبيـعته يحب الاسـتطلاع، ويتميـز العالم بروح وثابة للكشـف عن الغامض والتعرف على المجهول.

---

(١) مصطفى رجب، "أهداف التعليم الجامعى"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٤٤، سبتمبر ١٩٩٤م، ص٢٨ .

٤- الخدمة العامة

أصبحت الجامعة مركزًا للمعلومات، ومدت أذرعها فى مراكز بعيدة تعلم كما نتعلم مسهمة فى الإثراء العلمى للأفراد والجماعات، صار إذًا تراوح بين الفكر والعمل لتحقيق أهداف المجتمع ككل، وتقدم الجامعات اليوم خدمات عامة على مستويات شتى لترضى رغبات عديدة للمواطنين.(١)

ثالثًا: دور المؤسسات الدينية فى التوعية البيئية

المسجد أول مدرسة فى الإسلام تبنى الأجيال وتصنع الأبطال، وتعدهم خير إعداد، وعن طريقه يقوم كيان الأمة الروحى، كما أنه الأساس الذى يدعم وجودها المادى، وفى المسجد يتدارس المسلمون كتاب الله ويتلونه، ويؤدون الشعائر الدينية بإقامة الصلاة وذكر الله، وتبصير المترددين على المسجد فى شئون الدين والدنيا، وصبغهم بالصبغة الإسلامية؛ لتكون لهم سلوكًا فى حياتهم، وحتى لا يجرفهم تيار الرذيلة فيقضى عليهم.(٢)

فرسالة المسجد على هذا تعليمية، تخلص الإنسان من عار الجهل، وتخلع عليه لباس الفضيلة من الرذيلة، وهنا ندرك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت:٤٥]. إذن فالصلاة والخطب المنبرية تدعو الإنسان إلى الالتزام بالضوابط الدينية التى تنهى عن الفحشاء وعن إيذاء ا لناس، وعن الإضرار بالبيئة، وتدعو أيضًا إلى النظافة وإلى التنمية بجميع أنواعها، وإلى العمل الذى يحقق الحرية للإنسان، وأيضًا إلى الوعى البيئى الصحيح.

رابعًا: دور الإعلام الإسلامى فى تزويد المجتمع بالمفاهيم والتوعية البيئية

إن الإعلام النابع من الإسلام الملتزم بتعاليمه يطوع التكنولوجيا الحديثة، وكذلك أساليب الأداء فى ضوء تعاليم الإسلام وتصوراته وحدوده فى التخطيط والتنفيذ والمتابعة، سواء أكان ذلك على مستوى النظام الاقتصادى ككل أو على مستوى كل

(١) المرجع السابق، ص٢٧ .

(٢) جاد الحق على جاد الحق، "المسجد: إنشاء، ورسالة وتاريخًا"، هدية مجلة الأزهر، رمضان ١٤١٦هـ ص١٢-١٣.

عنصر من عناصر العملية الاقتصادية..."[1]، ويتميز الدور الدينى للإعلام بقوة مصداقيته وسرعة تأثيره وفاعليته؛ لأنه يجمع بين العمل الدينى والإعلامى معًا، كما يحشد الجهد إلى التعليم ومحو الأمية..[2].

يمكن للإعلام الإسلامى أن يسلط الأضواء على الإمكانات غير المستغلة ويوجه أنظار أصحاب الرأى إلى مزايا وكيفيات استغلالها الاستغلال الأمثل، وأن يبذل الإعلام فى سبيل ذلك جهودًا منظمة لإقناع الناس خاصة الشباب بالانتقال إلى المجتمعات والمدن الجديدة، التى بدأت العديد من الدول الإسلامية فى إنشائها بتخفيف الضغوط على المدن الكبيرة الذاخرة بالمشاكل خاصة التلوث بأوسع معانيه.[3]

..كما أن الإعلام الإسلامى باعتباره دين العقل والعلم يجب أن يكون كجسر رابط بين العلماء والمتخصصين وصانعى القرار؛ للاستفادة من القاعدة العلمية المستمدة من البحوث والدراسات البيئية بحيث توضع موضع التنفيذ، ثم تأتى المرحلة الأخيرة من الجهود البحثية متمثلة فى توصيل النتائج بما فيها من دلالات للرأى العام..[4]، وذلك لأن الإعلام الإسلامى يهتم بالأخبار بشرط الواقعية والصدق فيها، ثم الفائدة العائدة على الناس من وراء نشر هذه الأخبار[5].

.. وقد أصبحت مشكلة التلوث الشغل الشاغل لجهات أجهزة علمية كثيرة، وأخذت الاهتمام الكبير فى معظم صحف ومجلات العالم، وأقيمت الكثير من المؤتمرات والندوات بهدف توعية الإنسان فى كل مكان بأبعاد وحجم مشكلة التلوث، ووضع القيود والقوانين التى تهدف إلى المحافظة على البيئة.[6]

❊ ❊ ❊

(١) بركات عبد العزيز، "الإعلام الإسلامى ومشاكل البيئة"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٥٨، فبراير ١٩٩٥م، ص٥٩ .

(٢) جلال حمام، "كيف يكون الإعلام سبيلاً لتحقيق الأمن"، المجلة العربية، العدد ٢٤٧ ديسمبر ١٩٩٧م، ص٨٤ .

(٣) بركات عبد العزيز، مرجع سابق، ص٦٠ .

(٤) المرجع السابق، ص٥٨ .

(٥) حسن عى محمد، "الإعلام الإسلامى"، هدية مجلة الأزهر، شعبان ١٤١٨هـ ص٢٢ .

(٦) إبراهيم سليمان عيسى، "تلوث البيئة أهم قضايا العصر"، مجلة الوعى الإسلامى، العدد ٣٤٩ فبراير ١٩٩٥م، ص٦٣ .

ملوثات البيئة الفكرية

(رؤية إسلامية)

بقلم: د/ عمار جيدل (*)

مقدمة

البيئة الفكرية من حيث هي ليست سوى الوسط الفكرى الذى تتحرك فيه الأفكار، وتتفاعل مع الواقع المعيش بجميع مكوناته، أما من حيث المتعلّقات، فهى ذلك العامل المؤثر فى صياغة الأفكار وتحديد المواقف من الحياة ومشاكلها على تنوع مناحيها وموضوعاتها، سواء كان هذا الموقف متصلاً بالواقع أو منفصلاً عنه وفق ما أملته تصورات هذا الإنسان أو ذاك.

ولهذا ستبقى البيئة الفكرية أهم عناصر تهيئة الظروف الموضوعية لإنشاء الأنموذج الاجتماعى المطلوب فى إطار أنموذج الإنسان المتوخى، من خلال المنظومات القانونية المجسّدة فى التربية والتعليم، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والثقافة، وسائر دواليب الحياة.

من هذا المنطلق، تظهر أهمية الحديث عن ملوثات البيئة الفكرية وفق الرؤية التوحيدية، بوصفها نظرة شاملة ومتكاملة تخضع لها جميع أفعال الإنسان السليم، فى إطار تناغم جميع مكونات الكون معها.

ستبقى تلك البيئة صالحة لتحقيق ما جعلت له، إذا تفاعل معها المسلم وفق ما تقتضيه طبيعتها التى خلقها الله عليها، بشرط أن تكون بيئة سالمة من التلوث.

يتبادر إلى الذهن فى هذا المقام مجموعة من الأسئلة تعبّر فى إطارها الكلى عن الإشكال المركزى فى هذا البحث.

كيف يكون الإنسان -من حيث هو- فى الرؤية التوحيدية عنصراً مهمّاً من عناصر التأسيس للبيئة الفكرية وحائلاً دون تلويثها.

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر.

وبالإضافة إلى ما سلف، كيف يمكن أن يكون الإنسان عنصراً من عناصر البيئة؟ بينما الشائع هو أن البيئة هى العناصر المادية المحيطة بالإنسان؟

وفى ضوء السؤالين السابقين يطرح السؤال الآتى: هل للرؤية التوحيدية تصور خاص لأصل البيئة التى خلق عليها الإنسان؟ وما هى أهمية تلك البيئة فى تحقيق الغاية من وجود الإنسان؟ بل وما هو دورها فى تهيئة الظروف البيئية فى جانبها الفكرى.

تمهيد

يريد الإسلام من خلال نظرته التوحيدية لتأسيس بيئة فكرية تساعد على تثمين استعدادات- البيئة الفطرية فى جوانبها المتعددة[1]- الإنسان المتنوعة والمختلفة، وتتوخى تحقيق مقاصده وفق خطة تجعل الغاية النهائية -عبادة الله تعالى- محركًا رئيسيًا فى بناء الحضارة الإنسانية الراشدة، وقد جعلت من غايتها النهائية فى الدنيا تحقيق إنسانية الإنسان، فكان من مقاصد دور الإنسان، وفق النظرة التوحيدية السعى نحو الإنسانية فى السلوك الفردى والاجتماعى.

وتحقيق هذه المقاصد النهائية والمرحلية، يقتضى وجود بيئة فكرية -فى أصل الإنسان ووسطه الاجتماعى- تساعد على إنتاج نخب تحمى المقاصد وتعمل على إشاعتها، بمعنى حمايتها من جانبى الوجود والعدم كما يقول الشاطبى[2].

وتماشيًا مع تلك الغايات، فى إطار نظرته المتناغمة مع الكون بجميع مكوناته، خلق الله الإنسان مزودًا فى أصل خلقته بمثمنات تلك البيئة، بل وزوّد بعوامل نفسية ومعرفية واجتماعية تيسّر له الحفاظ على البيئة والحيلولة دون تلويثها، وجماع تلك العوامل الفطرة الإنسانية التى فُطِر الإنسان عليها فى أصل خلقته.. فما هى الظروف البيئية التى توفرها الفطرة وفق النظرة التوحيدية؟

---

(١) البدنية والاجتماعية والنفسية والعقلية والدينية.

(٢) الموافقات، الشاطبى، جـ٣، خصصه للكتابة عن مقاصد الشريعة.

أولاً: النظرة التوحيدية وتجلياتها

١- النظرة التوحيدية

محور نظرة الإنسان المسلم للكون مبدأ التوحيد، وهو أساس العقيدة الإسلامية، ومحرك فعاليتها المعرفية والفكرية والسلوكية والنفسية والاجتماعية، إذ تنسحب على جميع ميادين الفعل الإنساني، حتى صار بمقدورها تحويل الأفعال العادية إلى عبادات بالنية، ولهذه النظرة امتدادات جلية في علاقة الإنسان بربه، وموقفه من الكون، وصلته بأخيه الإنسان، ومن ثمّ كان للنظرة التوحيدية تجليات عدة هي:

٢- الجانب الإلهي في النظرة التوحيدية

أساس فاعلية الإنسان وإنسانية علاقته بالآخرين التوحيد في جانبه الإلهي، إذ يعتبر التوحيد حجر الزاوية في العلاقة بين الإنسان وسائر مكونات الكون، فتوحيد الخالق في ذاته وصفاته وأفعاله يحرر الإنسان الموحد من الخوف، ويمده بعناصر البقاء والقوة من خلال ربط قلبه بالقوي الذي الذي لا يضعف، والغني الذي لا يفتقر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥]. وهكذا يكون التوحيد من هذا الجانب منسحبًا على جميع ميادين الفعل الإنساني، وراسمًا لعلاقات إنسانية في الميادين الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، حتى جعلت ديمومة التوحيد في النفس الإنسانية متأثرة وجودًا وعدمًا بدرجة تحقق غاياته وآثاره على مستوى الفعل اليومي، أي درجة الإيمان مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمدى فاعلية المؤمن في تغيير العالم على وفق مراد الله – تعالى–، ويؤكد ذلك جعل الشارع تحصيل ثواب العبادة بتحقيق العبادة لأصل أبعادها الوظيفية: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» (رواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفًا، ورواه ابن جرير عنه مرفوعًا).

٣- الجانب الإنساني:

النظرة التوحيدية للإنسان تبيّن أن أصل بني الإنسان واحد يرجع إلى أب واحد «آدم»، وتوالدوا بطريقة واحدة، وهذا يؤصل لأفكار رئيسية مفادها أن الإنسان فعل من

أفعال الله الكونية، خلق جميع أفراده من مادة واحدة -تراب-، جعل تخلقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد، وهو ما يجعل الإنسان أو النوع الإنسانى مصون الكرامة محفوظ الجانب فى كل أحواله، بصرف النظر عن انتمائه العرقى أو الجنسى أو الترابى، إذ الأصل فى النظر إليه جوهره، أى ما هو به إنسان، وهذا يؤسس النظرة التوحيدية للإنسان، ويدعوهم للعيش فى كنف المساواة وجوّها.

ويقرر هذه الحقيقة ويؤكدها تصوير القرآن الكريم للإنسان، فهو مخلوق مكرّم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، فكان الإعلان الإلهى عن جعله خليفة تنبيه وإعلام لهم بهذه الوظيفة، وهى وظيفة شاملة لجميع بنى آدم؛ لهذا كان التكريم عامًا بالنسبة لأفراد البشر، ومنسحبًا على جميع مكونات الإنسان، فهو كريم ونفيس وغير مذلول ولا ذليل فى صورته وحركته.. وخلاصة ذلك أن الإنسان مفضّل على كثير من الخلوقات، بعقله وإرادته، ومن جهة أخرى هو كائن تافه (من ماء مهين) خُلق من تراب ثم من سلالة من ماء مهين، وإن طال به العمر عاد إلى الضعف الذى كان عليه فى البداية، ومع ذلك يغلب عليه التكبّر والتعجرف، قال تعالى منبّهًا ومرشدًا: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٥-٧]. ويعتبر تنبيه الإنسان بهذين الأمرين من مقاصده بعث الفاعلية الحضارية بوظيفته.

وهكذا فى النظرة التوحيدية يظهر جليًا أن جانبها الإنسانى يقرر مجموعة من الحقائق، أولها أن الإنسان كائن مكرّم، وغفلته عن تلك الميزة توقعه فى حضيض التفاهة المتعلقة أساسًا فى تغليب الجانب الأرضى منه على الجانب السماوى أو الروحانى، بمعنى إذا نسى تكريمه وقع تحت طائلة الغرائز وسلطانها، وبهذا تغيّب أصل ما جعلت له تلك الغرائز والأشواق، فينتقل الإنسان من طور الإنسانية إلى طور البهيمة الضارية المفترسة.

كما أنها من جانب آخر تقرر حقائق ذات تأثير عظيم فى تهيئة جو الحوار والتفهم والتعاون بين البشر، ويتجلى هذا الأمر فيما يأتى:

التوحيد الإلهى يجسد فى جانبه العقدى أن الله موصوف بكل صفات الكمال، منزّه عن جميع صفات النقص، وهذا يقتضى أنه سبحانه وتعالى غنى ونحن الفقراء إليه، وهذه المعرفة سواء فى جانبها المعرفى البحت أو فى جانبها الجوانى، تؤسس لبيئة فكرية تساهم فى تحسين أداء الإنسان فى جميع ميادين حياته، ويتلخص هذا فيما يأتى:

١ - البشر جميعًا من أب واحد، فلا تفاضل بينهم، بل هم إخوة ينبغى أن يكون التعاون والتآزر على المعروف والتقوى شرعة أساسية تحكمهم، كل ذلك بسبب علمهم بأبوة واحدة.

٢ - البشر ينتهون فى أصل مادة خلقهم إلى أب واحد خلقه الله -تعالى- من تراب، فمادة خلقهم واحدة، وبالتالى لا يحق لأحدهم أن يحقر أخاه أو أن يستخف به؛ لاشتراكهم جميعًا فى مادة الخلق.

٣- توالد البشر بطريقة واحدة (التناسل البشرى)، وهذا يقتضى التساوى المطلق بينهم وخاصة من جهة الإحساس بالتكريم الإلهى، ويكرّس هذا أن مدة الحمل بكل فرد منهم واحدة إلا ما شذّ.

٤ - الإحساس بالجمع بين كونه كائنًا مكرّمًا من جهة، وتافهًا من جهة أخرى، بمثابة تذكير دائم لبنى آدم، فمن أهين أو قبل الاستهانة، فليتذكر أنه كائن مكرم، ومن رام التكبّر على بنى آدم فليتذكر أنه مخلوق تافه خلق من ماء مهين، وهو حين يتذكر ذلك يسقط القناع وتطرد الطاووسية التى ركبته أو ركبها، وأحسن الأوضاع التوازن بين الأمرين.

التذكير بهذه المبادئ المستقاة من العقيدة الإسلامية سعى مستمر لإبقاء البيئة الفكرية طاهرة من الملوثات، وهو فى ذات الوقت عمل على تطهير ما كان ملوثًا منها؛ لأن فقد تلك المبادئ حين مباشرة العمل الاجتماعى أو السياسى أو الحضارى يوقع المسلم تحت طائلة سلطان الشهوات والغرائز، وبذلك يفقد إنسانية تصرفاته، ويضيع أصل الهدف من وجوده.

ويعتبر التوحيد فى جانبه المشار إليه من أهم محددات التفكير فى جانبيه المتعلقين بالموضوع والمنهج، فلا حجر على التفكير، ولا حجر على الاختيار والتعبير، وبهذا يتحقق للباحث التحرر من عوامل تعتبر من مكبلات الإدارة البشرية، لعل أهمها:

١ - الخوف فى الموضوع أو المنهج باعتباره من أهم موانع البحث العلمى الموضوعى، ويظهر هذا الأمر فى عدة أشكال وأنماط لعل أهمها: مراعاة السامع حين تبليغ البحث فيخضع لشروطه المحددة سلفًا، وبهذا لا يزيد الباحث أن يكون عربة فى قاطرة مجرورة محددة الأهداف والغايات، والسامع فى هذا المقام قد يكون سلطة علمية وقد يكون سلطة سياسية أو طلبة أو مجتمعًا أو...

٢ - الزهو بالعلم أو المنصب أو الجاه أو الدرجة العلمية، فيخضع الباحث السامع إلى ضغط الألقاب، فيكون الاستحضار الدائم للألقاب حين الخطاب مانعًا من التوجه مباشرة إلى الموضوع المبحوث ويقرب من هذا الضغط بالمؤلفات أو ما شبهها.

٤- الكون من النظرة التوحيدية:

الكون فى النظرة التوحيدية مخلوق لله -تعالى- كالإنسان، سخره له وجعله فى خدمته بشرط أن يأتيه باسم الله بواسطة ما منحه من استعدادات عقلية وبدنية، ووفق سنن الله -تعالى- فى خلقه[1]، وتؤكد مجموع مظاهر الكون تميز الإنسان عن سائر المخلوقات تميزًا ذاتيًا بما استودع من استعدادات، وتميزًا وظيفيًا بما كلفه الله -تعالى- به "التكليف بعمارة الكون وفق مراد الله لأنه مخلوق مكلّف مسؤول".

يُستَشَف مما سلف أن للإنسان صلة وطيدة بالكون، ومبنى ذلك منزلة الإنسان فى الكون نفسه، وتتجلى فى النقاط الآتية:

١ - وحدة الإنسان والكون فكلاهما مخلوق لله -تعالى-، إذ تكرم عليهما الخالق بعناصر الوجود والبقاء.

---

(١) الإسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعى، محمد حسين الطبطبائى، ص٢٩.

٢- الإنسان كسائر مكونات الكون محكوم بقوانين يسير وفقها، وليس له أى استقلال عن الظواهر الكونية وقوانينها، فهى مؤثرة فى وجوده وبقائه بوصفها الخزان المعرفى والغذائى لجميع حاجاته، وهو بدوره مؤثر عليه من جانب بقائه صالحًا أو طالحًا، نافعًا أو ضارًا.

٣- الإنسان والكون مشتركان من حيث المصير، إذ يتحركان معًا إلى نهاية قدرها الله –تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[المائدة:١٨].

٤- وحدة من حيث المالك والمسير

وفى ضوء ما سلف يتبين أن للإنسان فى التصور التوحيدى صلة وثيقة بالكون، تتجلى فيما يأتى:

(أ) صلة اعتبار وتأمل وتفكر:

حيث يعتبر الكون وفق التصور الإسلامى مسرحًا للتأمل وموضوعًا عظيمًا للتفكر، بدليل توظيف القرآن الكريم لألفاظ مشجعة على إعمال الحواس فى الكون (نظر، بصر، ومشتقاتهما..) كما وظف ألفاظًا تحث على التفكر والتأمل فى الكون (يعقلون، ويتفكرون، ويتدبرون، ويوقنون، ويفقهون...).

(ب) صلة استثمار وتسخير وتذليل:

تبدو صلة الانتفاع والاستثمار والتسخير واضحة جلية فى القرآن الكريم: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل:٥-٦]، إنها خطابات تدفع الإنسان وتحفزه ذاتيًا وموضوعيًا على استثمار الكون وتسخيره، باعتباره نعمة إلهية خلقت للاعتبار والتدبر والانتفاع والاستثمار، بشرط التعامل معها بما منح من قدرات عقلية وعلمية وبدنية ونفسية(١).

يتجلى مما سلف أن الرؤية التوحيدية للعالم تؤسس –وبما لا يدع مجالا للشك فيه

(١) نظام الإسلام عقيدة وعبادة، محمد المبارك.

من خلال نظرتها للإنسان- لبيئة فكرية متميزة عمدتها الإنسان المكلف بعمارة الكون وفق مراد خالقه، وهذا يقتضى التعامل مع الكون فى إطار تلك الوظيفة أولا، وفى كنف الحفاظ على أصل البيئة التى خلق عليها من حيث ثانيًا.

فى ضوء ما سبق، وفى إطار الخطة التى رسمناها، سأعرض أصل البيئة التى خُلق عليها الإنسان وأثرها فى تهيئة البيئة الفكرية من خلال الحديث عن إصلاح التصورات؛ لأن إصلاح الفكر لا بد أن يقوم على عقيدة صالحة"[1] بمفهومها الإيمانى الجامع بين نباهة العقل وحضوره من جهة، وخشوع القلب من جهة أخرى، وبهذا تهيئ الإنسان المسلم فكريًا للتفاعل الموضوعى والإيجابى مع الكون.

ثانيًا: إصلاح التصورات أساس إصلاح البيئة الفكرية

الفكر كما مر معنا، هو تفاعل العقل مع الواقع المعيش بجميع مكوناته، لكن هل يمكن التفاعل مع هذا الواقع بغير تصور كونى مسبق؟

النظرة التوحيدية وكغيرها من التصورات والعقائد تحدد الفكر وترسم سيره، وتشحن قلب المسلم بشحنات تدفعه دفعًا فى مسار تحقيق المسلم الإيديولوجى أو العقدى بواسطة الفكر سواء فى عالم الأشياء أو فى عالم الأشخاص، ويمكن تجلية هذا الأمر من خلال الحديث عن أصل البيئة التى خلق عليها الإنسان وأثرها فى استنطاق الأوامر والنواهى الإلهية، وتمثلهما فى الحياة اليومية بجميع مضامينها.

١- أصل بيئة الإنسان من حيث هو:

خلق الله الإنسان على الفطرة فى جانبيها المعرفى والدينى، فقد "خلق الله - تعالى- الإنسان على الحنيفية السمحة فأجلته الشياطين عنها"[2]، وما ذلك إلا بمثابة إفساد لبيئته الأصلية، ويشهد له أيضًا حديث الفطرة: «فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو

(١) إصلاح الفكر الإسلامى، طه جابر العلوانى، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ص١٩.

(٢) ورد هذا المعنى فى جزء من خطبة النبى ﷺ فيما أخرجه مسلم: "ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى.. إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا..».

يمجّسانه»[1]، فأصل البيئة التى خُلق عليها الإنسان قابلة للتلوث والتغير، ومن حكمة الله أن جعل عودته إليها بواسطة الفطرة المعرفية (العقل الفطرى)، فيذكّر الإنسان بأصل ما جعل مركوزًا فيه من المعارف وأكبر شاهد على ذلك أساليب القرآن الكريم فى التذكير، الجامعة بين مخاطبة العقل والوجدان فى ذات الوقت.

وتركيز النظرة التوحيدية على أصل البيئة التى خُلق عليها الإنسان من حيث هو، يدل على أنها أساس التعامل مع الإنسان والكون، إذ الغفلة عنها مهيئة لبيئة فكرية خاصة منافية لذلك الأصل المشار إليه، بل وتنذر بخطر كبير على البيئة بجميع مكوناتها والفكرية منها على وجه الخصوص، بما يجعلها ناقلة للإنسان من طور الإنسانية حين الغفلة إلى طور البهيمة الضارية؛ لأن الفطرة أساس فكرة التكريم، ومن ثم كانت لها أهمية عظيمة فى تهيئة البيئة الفكرية.

وفكرة التكريم الإلهى للإنسان تجسّد التذكير بأصل البيئة الفكرية والنفسية التى وُجد الإنسان عليه فى أصل خلقته، كما تذكره بوجوب العودة إليها، بتهيئتها من جديد فى جانبيها المعرفى والتربوى، وينتج هذا التذكير آثارًا عظيمة على العقل والقلب، يمكن تلخيصها فيما يلى:

٢- آثار فكرة التكريم فى تهيئة البيئة الفكرية:

(أ) الآثار المعرفية:

وتشمل: اكتشاف منزلة الإنسان فى الكون، والتحرر المعرفى من الأساطير، وتشجيع الروح النقدية، وتدفع إلى التبليغ بعد الاقتناع، وإشباع الفضول.

(ب) الآثار التربوية:

وتشمل: رفض الإذلال أو الذل، ونشر التكريم والتأسيس للتفكير الحر، ورفض فكرة التمييز بين البشر، ورفض الاستخفاف بالآخر، والدفاع عن المستضعفين.

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه "كتاب الجنائز".

٣- آثار الرؤية التوحيدية فى تهيئة البيئة الفكرية:

سبق وأن أشرنا إلى أن البيئة الفكرية تتناول أمرين، أولهما يتناول الاستعداد المعرفى، ويتناول الثانى الاستعداد التربوى، ويشكلان فى إطار تناغمى الدعوة إلى الحفاظ على البيئة والتعامل معها وفق شروطها الموضوعية، واستثمارها وتسخيرها وفق ما خُلقت عليه من استعدادات تجعلها مهيئة للتثمين، والتسخير، والاستثمار.

ويمكن تلخيص ما سبق الإشارة إليه فيما يلى:

آثار النظرة التوحيدية للكون على البيئة الفكرية:

(أ) الآثار المعرفية:

وتشمل: الحقيقة الموضوعية للكون، وتبطل فكرة العداوة، وترسّخ فكرة الاستثمار، واستعلاء الإنسان، وفرصة التأمل والبحث، وتشجيع العلم التجريبى.

(ب) الآثار التربوية:

وتشمل: التعامل الإيجابى مع الكون، والنظرة الواقعية، وإصلاح التصورات، وتنمية إرادة البحث، والصبر على البحث، وأداء حق الله -تعالى- فيها.

إذا كانت البيئة الفكرية فى أصلها على وفق ما صورنا، فما هى ملوثاتها؟ بيِّن مما سبق أن الملوثات تتناول أمرين رئيسيين، يتناول أولهما ملوثات البيئة الأصلية للإنسان، ويتناول ثانيهما نظرة الإنسان إلى الكون والحياة؛ لهذا سأعرض المسألة من الزاويتين المشار إليهما فى نسق واحد، وألحق بهما الملوثات المتعلقة بغياب المعرفة، وأختمها بالملوثات النفسية والسلوكية.

ثالثا: ملوثات التصورات التوحيدية

١- مدخل عام

قررنا فيما سبق أن الله -تعالى- خلق الخلق على الفطرة فى جانبى المعرفة والدين بما يحمله من مضامين تربوية وأخلاقية تعرف بأخلاق الفطرة.

ويظهر تلوّث الشق الثانى بما يعرف فى العقيدة الإسلامية (التصورات النظرية) بمضادات التوحيد (الشرك، والنفاق، والكفر،..)، وإذا تلوث أصل الإنسان بمثل هذه الأمراض فإن مجموع أعماله ستنصبغ بمطلبات هذه المضادات، فتتأثر أعماله العلمية ومواقفه الاجتماعية، بل ويفوق ذلك ليؤثر فى الأداء الحضارى العام بما يحمله من أثر على الفكر والتفكير.

ولبيان ذلك اخترنا النماذج الآتية:

الشرك والكفر، بوصفهما من مضادات التوحيد ومن الملوثات الأساسية لأصل ما خُلق عليه الإنسان، يؤثران فى الموقف الفكرى وتفسير الظواهر السننية (الطبيعية) والإنسانية، كما يؤثران أيما تأثير فى الموقف السلوكى المؤسس على هذا النمط من التفكير، ويمكن تلخيص هذا الأمر فى المناحى الآتية:

١- تفسير الظواهر الكونية فى جانبيها الشيئى (عالم الأشياء)، أو الإنسانى (عالم الأشخاص) بمركزية الإنسان، ينجر عن قبول هذا الرأى كمسلّم نظرى صحيح عدة أمراض لها تأثير كبير الأثر على تلويث البيئة الفكرية التوحيدية، لعل من أهمها: ظاهرة النفاق فى جوانبها المتعددة والمتمظهرة أساسًا فى الموقف السياسى والثقافى والاجتماعى، بل ويجاوز ذلك فيؤثر على العرض الموضوعى للفكر نفسه.

٢- اتخاذ مواقف اجتماعية، وسياسية منسجمة مع تلك التصورات مما يجعلها مؤثرة على الأداء الحاضر والمستقبل للفكر، بل ويجاوزه إلى تلويث البيئة الفكرية سواء فى تفاعلها مع الفكر أو فى تهيئة الجو الصحى لصناعة الأفكار الفاعلة فى الحاضر والمستقبل.

ولتوضيح المسألة أكثر اخترت التفصيل فى النفاق من جهة كونه من مضادات التوحيد المؤثرة على التصورات والأعمال البدنية والعقلية والنفسية، بل يجاوزها بالتأثير على تفسير الظواهر الإنسانية والفلسفية والسياسية والحضارية، وحتى ذات الطبيعة الشيئية أحيانًا.

٢- تجليات أثر النفاق فى تلويث البيئة الفكرية:

تفهم حركة النفاق فى إطار آثارها الوخيمة على تلويث البيئة الفكرية من زاويتى بعديها النفسى والاجتماعى بوصفهما العناصر الرئيسية المحددة لعمل الفكر، والمانعة دون انطلاقته وتفاعله الإيجابى والموضوعى مع عالم الأشخاص.

(أ) يضطر البشر من منطلق الخوف من اكتشاف حقيقتهم إلى التخفى إلى حين زوال المخيفات، فإذا زالت دفعوا الأستار وكشفوا عن حقيقتهم، والتستر ليس عملية شخصية لا تطال الآخرين، بل تؤثر فى الموقف الفكرى مما يقع فى هذه البلاد أو تلك.

(ب) يترجم الموقف النفسى السابق فى موقف اجتماعى، فيضطر المنافق إلى مجاراة الأحداث والانصياع لها إلى حين، ويتجلى الموقف المنافق فى العمل العلمى، والسياسى، والثقافى، والاجتماعى كالتالى:

* الخضوع لمطالب المستمعين سواء كانوا سلطة أو معارضة، أو شعبًا، فيتفنن هذا النمط من الباحثين فى تأييد السلط السياسية، بل قد يجاوزونه إلى إبطال آراء جميع مخالفيها، وفى ذلك أكبر التجنى على البحث العلمى والمطارحات الفكرية.
* التخاذل عن نصرة البحث العلمى الموضوعى، وبالتالى التخاذل عن نصرة الدين.
* إثارة الشائعات المدمرة بهدف توجيه الفكر للتفكير فى مشاكل وهمية، وشغله عن القيام بدوره الحضارى المنتظر منه فى إطار التصور التوحيدى.
* التخريب الداخلى لعالمى الفكر والأشياء، من خلال التركيز على التحضير النفسى للمخاطب.

* تأسيس المؤسسات الضرار بغرض توجيه الفكر، ثم الهيمنة على سوق التوجيه أو التشويش على المؤسسات الأصلية أو التشكيك فيها على الأقل.
* إذا فشلت كل محاولات الاستقطاب سيضطر النفاق إلى إعمال مسلك الاستفزاز الفكرى بغرض استنزاف الطاقات فى معارك وهمية الرابح فيها خاسر، وهو بمثابة تحريض على استعمال العنف وفق قاعدة الضارب المستعطف "ضربنى وبكى وسبقنى واشتكى"، فيظهر المنافق بمظهر المظلوم ليس لهدف سوى تأليب الرأى العام على المظلوم الحقيقى، وأكبر شاهد أيامنا الحبلى بهذه النماذج من الظلمة.
* التمكين للنفاق يبعد الكفاءات الفكرية عن مقاليد التوجيه فى المجتمع، بل يبعدهم من الميادين التى يحسنها غيرهم، فيصبح نيل منصب التوجيه والإرشاد -بل وحتى الحقوق- استعطافًا لا استحقاقاً، فيمكن للرداءة الفكرية والانتهازية، بسبب وقوع مقاليد الأمور فى أيدى المنافقين، فيعملون على تهيئة جو ملائم لبقائهم ومساعد على ديمومة أفكارهم.

رابعاً: الملوثات المتعلقة بالمعرفة

تظهر ملوثات البيئة الفكرية فى جانبها المعرفى فى غياب أو تغييب العلم وهيمنة روح الجهل فى علاقاتنا المعرفية، ومواقفنا الاجتماعية، كما يتجلى أيضًا فى هيمنة التقليد، والوقوع تحت طائلة المكبلات الإيدلوجية، والاستخفاف المعرفى أو قبوله، وأحادية المنهج رغم تعدد العلوم من حيث طبيعتها وحقيقتها.

١- الجهل وأثره على البيئة الفكرية

يعد الجهل من أهم أسباب عدم قيام الأمم بأصل وظائفهم، والسير فى طريق الشرور، الجهل هو الذى يصور الأشياء على خلاف حقيقتها، وبذلك يوجه الفكر من خلال تهيئة بيئة فكرية جاهلة- إلى ميادين مخصوصة فى الحوار والنقاش والموقف الاجتماعى العام، بل ويتعداه إلى الأداء الحضارى، فتشل الطاقات وتستنزف قوة الأمة فى معارك وهمية.

إن الجهل يصور التطاول على الفكر شهامة وبسالة وشجاعة، ويصور خدمة الأجنبى إنسانية وفخراً وشرفًا، بل قد يجاوز إلى أخطر من ذلك فيغيب الإحساس بتلك الجرائم المقترفة فى حق الأمم والشعوب بسببه؛ لهذا فالجهل "أم الشرور والأمراض، بل إن كل بلاء يحل على أى أمة من ابتداء العالم إلى نهايته إنما هو وليد هذه الآلام وثمرها"[1]، ومن ثم فالجهل رأس ملوثات البيئة الفكرية، بوصفه سبب العزوف عن التفكير فى طلب العلم فضلاً عن تجسيد متطلبات العلم أو نتائجه، كما يعد من أهم الحوائل دون البحث الفكرى الجاد والهادف، حتى ليعد هذا النمط من التفكير السليم ضربًا من التشويش والجهل وفق ما ورد فى المثل السائر "رمتنى بدائها وانسلت".

٢- هيمنة التقليد

يهيمن على عقل المسلم منذ أمد بعيد القراءة التاريخية وخبرات أسلافه، بفعل شيوع التقليد والوقوف دونه[2]، فأصبح دور العقل المسلم التفنن فى الرجوع إلى الماضى بوصفه أنموذجًا كاملا فى السياسة والحكم والتعلّم والتفاعل مع الواقع المعيش، والفكرة فى حقيقة الأمر ليست باطلة بإطلاق، بل هى خطيرة من حيث عملها على دعم الوجود التاريخى المنغلق على حساب الوجود الحضارى المطلوب، إذ رسخ فى قلب المسلم المعاصر ونفسه أنه لا صورة ممكنة ومتاحة للعيش فى كنف الإسلام إلا تلك الصورة التاريخية المنقولة، وأى خروج عنها يعد خروجًا عن الإسلام[3].

فتحوّل الإسلام -الذى هو فى حقيقة أمره تحول دائم من التقليد إلى الأصالة[4]-

(١) "ضد الاستبداد"، توفيق السيف، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء وبيروت، ط١/ ٣٤٤، ١٩٩٩ .

(٢) انظر: ما قاله ريتر عن التقليدية وتأثيرها فى التراجع الثقافى الإسلامى، "الإسلام المعاصر"، رضوان السيد، دار البراق للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ص٢١٥.

(٣) لا يذهب بك الخيال بعيداً فتظن أن الجيل الأول لم يكن أنموذجًا يحتذى فى تفاعله مع الواقع المعيش، بل المرفوض أن نحاول بعث وضعهم بمكوناته الدينية فى عصر غير عصرهم، وهذا بمثابة بعث ما لا طائل منه.

(٤) "الإسلام ومستقبل الحضارة"، صبحى الصالح، دار الشورى، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص٣٣٩.

إلى تاريخ، عـوض التفـاعل مـعه بما يقـتـضيـه من مراجـعـة دائمة لخـبراتـنا الفقـهيـة والاجتماعـية والفكرية بناء على ما ثبت من نصوص وصحّ من اجتـهادات، في إطار ما طرأ علينا من إكراهات.

فالتقليد فـي الأوساط العلمية الأكاديمية من أهـم موانع الانطلاقة الفكرية المنتظرة من جهة، وأهم ملوثات البيئـة الفكرية من جهة توجيهها إلى ميادين مـخصوصة في البحث من جهة ثانية، والحيلولة دون ولوج ميادين بحثية يفرضها الإكراه الحضاري في الواقع المعاصر.

٣- المكبلات الإيديولوجية (الأفكار المسبقة)

يُسـاق الإنسان في مـيادين البـحث -شاء أم أبى في كـثـير من الأحيـان- بقناعـته المسـبقة، فـيقـرأ ويحلل كل ما تـبلغه عـينه بما رسخ في نفسـه ووقر في قلبـه من أفكار مسـبقـة، وفي ذلك أكبـر بلاء على العلم والمعرفـة، فتكون الآثار المسـبقـة ملوّثة للبيـئة الفكرية بوصـفهـا مانعًـا قويًا من القـراءة الموضوعـية؛ لما تقـتضيـه من دخول البـاحث مشحونًا بأفكار تسوقه سوقًا إلى نتائج محددة سلفًا، ولخطورة هذا الأمر حذّرنا الشارع الحكيم من الوقـوع تحت طائلتـه، فـقال تعـالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء]، أي "إنك أيها الإنسان تسـأل عما تسنده إلى سـمـعك وبصرك وعـقلك.. وهذا أدب خلقي عظيـم، وهو إصلاح عـقلي جليل يعلم الأمة التفـرقة بين مراتب الخواطر العقليـة بحيث لا يختلط المعلوم والمظنون والموهوم، ثم هو أيضًـا إصلاح اجـتمـاعي جليل يجنب الأمـة من الوقوع والإيقـاع في الأضرار والمهالك من جرّاء الاستناد إلى أدلة موهومة"(1).

من منطلق ما سبق بيانه يتجلى أن الأفكار المسبـقة من أهم ملوثات البيئة الفكرية من منطلق شرعي وعقلي؛ لأنها من العناصر التي تعيق سير العقل والفكر سيرًا عاديًا وموضوعيًا.

ولعل من أهم الأمـراض الفكرية المنبـثـقـة عن الرواسب الفكرية، الاسـتـخفـاف المعرفي أو قبوله، كما يظهر في أحادية المنهج المحكّم في جميع العلوم والمعارف.

(١) "التحرير والتنوير"، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج١٥/ ١٠١.

(أ) الاستخفاف المعرفى أو قبوله

يعد الاستخفاف بالآخر فى ميدان المعرفة من أهم أسباب عدم تصحيح الأخطاء الفكرية أو التفكير فى تصحيحها على الأقل، وهذا الملوث لا يقل شناعة عن قبول الاستخفاف بالعقل والفكر، بل يعدان من العناصر التى تختلط فيها العناصر النفسية (الاستكبار وقبول الاستخفاف) بالعناصر المعرفية، فالذى يستخف أو يقبل استخفاف الآخرين فى الميدان المعرفى لا ينتظر منه أن يكون على خلاف ذلك فى الموقف الاجتماعى والسياسى والفكرى وحتى الحضارى.

(ب) أحادية المنهج

يهيمن على عقول بعض الباحثين والمؤلفين أن العلم واحد وموضوعه واحد لا يتعدد، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن منهج بحث ودراسة العلوم والأفكار واحد، بُلى الفكر بهذا الداء فى فترات منقطعة من تاريخ الإنسانية، ففسرت كل مسائل العلم والفكر فى حقبة غلبة التحليل المادى للتاريخ بهذا المنهج، واستولى التفسير التجريبى على عالمى الفكر والشعور حين هيمنة هذا المسلك التحليلى على عقول الناس فى فترة من فترات التاريخ، وهكذا ما كانت الغلبة لمنهج فى فترة من الفترات إلا وكان سيد الموقف فى تحليل كل شىء حتى ما لا ينسجم مع طبيعة ذلك المنهج، ومن نماذج هذا المسلك الإغراق فى المذهب على حساب الدين، فيرى أصحابه الدين من خلال المذهب، وقد كان -ومازال- هذا سببًا فى ضياع الولاء لله تعالى فى أعمالنا، كما كان سببًا فى فقد روح الالتزام، فضاع الإسلام فى صورته الإنسانية الحضارية من جرّاء هذه التصرفات المنبثقة عن الأحادية المتحكّمة فى عقولنا وأفكارنا وسلوكنا، ولا تتوقف أحادية المنهج عند هذا الحد بل قد تتجاوزها إلى تفسير كل أمور الكون المادية والمعنوية تفسيرًا غيبيًا يلغى كل سلطة للإنسان على عالمى البناء والشهود الحضاريين، وقد يزكى هذا المسلك من قبل مؤسسات علمية هدفها صرف الباحثين عن التفكير فى البناء الحضارى، فضلاً عن المساهمة فيه بغرض تعطيل وظيفة الشهود الحضارى من خلال التشويش الإعلامى بغرض صرف الناس عن الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-.

٤- غياب النقد المقاصدي (الغائي)

الأصل أن يبادر الناقد قبل النقد إلى التساؤل عما يقدم نقدنا كقيمة معرفية مضافة، وماذا يقدم كموقف حضاري؟ ما هي مقاصد النقد من الناحية المعرفية والحضارية؟ بمعنى ما هي موجبات النقد من الزاويتين المعرفية والحضارية؟ ليس المقصود في هذا المقام التعامل الإيديولوجي مع الأفكار من خلال إخضاعها لمقاصد الإيديولوجية السياسية الاجتماعية [1]، بل المقصود هو التساؤل عن البعد الوظيفي في إطار غائية التساؤل الموضوعي عن قضايانا.

الجواب الصحيح عن السؤالين وبكل موضوعية، يشهد به السائل على نفسه (دون استجابة لداعي الخوف والضغط الأدبي أو المالي أو السياسي)، استفت قلبك فإن أفتاك فأقبل، بمعنى إن وجد إجابته عن تساؤلاته موجبة للإقدام أقدم، وإن وجد فيها غير ذلك أحجم، فالامتناع عن مساءلة النفس والفكر يعد من أهم أسباب تلوث الفكر بعناصر تمنع البحث الفكري الموضوعي، كما هو شأن كثير من البحوث التي يساق إليها الباحث بدافع نصرة أصحابه أو إذلال غيرهم أو ما شابه ذلك، وإدراج هذا الملوث في خانة الملوثات المتعلقة بالمعرفة؛ بسبب تسربه إلى الفكر من جهة الوسط الثقافي الذي يزكي هذا النوع من الانشغال على حساب النقد الفكري الفاعل في حاضرنا والمساهم في بناء مستقبلنا، ومن ثم كان هذا العامل من ملوثات البيئة الفكرية في شقيها المعرفي والتربوي.

خامساً: الملوثات النفسية

من نافلة القول البيان التفصيلي لدور العناصر النفسية في توجيه الفكر، إذ في الغالب يُساق المرء بقلبه حتى في سير فكره وعقله؛ لهذا كانت هذه العوامل ملوثة للبيئة الفكرية حال تنكّبها عن جادة الصواب والاستسلام لرغباتها ونزواتها، ولعل من أظهر تلك الملوثات جعل الدنيا هدفًا نهائيًا من الوجود والاستبداد، وهيمنة روح التسليم للواقع، وفقدان عناصر التربية الفكرية.

(١) انظر: "مجتمع النخبة"، برهان غليون، دار البراق للنشر، تونس، ١٩٨٩م، ط٣، ص٢٤٥.

١- جعل الدنيا هدفًا نهائيًا من الوجود

جعل الدنيا هدفًا نهائيًا يعرّض أصحابه للوقوع تحت طائلة الغرائز، فيعمل المبتلى بها على قضاء كل ما تطلبه ولو على حساب الآخرين -وهى دائمًا كذلك-، ومادامت منافع الناس متضاربة وتحقيقها أو منع فقدانها لا يتم إلا بالفكر، فسيضطر المدافع عن منافعه إلى إعمال كل الوسائل الفكرية من أجل الحفاظ على تلك الغنائم، وبهذا الصدد سيكون فكره مقيدًا ممنوعًا من الحركة فى غير الطريق الذى رسمته له منافعه المادية، فيتحول الإنسان من جراء ذلك عن إنسانيته إلى حيوان متوحش باستطاعته فعل الأعاجيب من أجل تحقيق رغباته، وهكذا يفقد الإنسان إنسانيته لمجرد ضياع الهدف من الوجود الإنسانى، ومن كان هذا شأنه ففكره كما ترى ملوث بل وواقع تحت سلطان الدنيا تجره جرًا إلى حيث يفقد إنسانيته، وما الصراع العالمى الذى ضاع فى جوه حق المستضعفين من أفراد وشعوب وحكومات إلا بسبب هيمنة حب الدنيا عند الكبار، ويتجلى أثر ذلك على الفكر فى الازدواجية المحكّمة فى العلاقات السياسية والفكرية والثقافية بين الشعوب والدول، فما يرى حقًا فى بلد فهو ليس كذلك فى بلد آخر ولو تشابهت كل المعطيات، ودواعى معاونة هذا البلد قد تكون سببًا فى الامتناع عن معاونة بلد آخر، كل ذلك بسبب حب الدنيا الذى ولّد الكيل بمكيالين فى الثقافة والاجتماع والسياسة بل وحتى الحضارة.

٢- الاستبداد أو قبوله

يذهب العقل حين الحديث عن الاستبداد إلى الميدان السياسى مباشرة، والمسألة حسب تقديرنا أوسع من أن تحصر فى هذا الباب، وإن كنا نعيش استبدادًا سياسيًا لا ينكره إلا مكابر- مستبدون إلى النخاع من خلال علاقاتنا بطلبتنا وأسرنا وأولادنا، ومجتمعاتنا؛ لهذا لا نستبعد أن يكون كل واحد فينا ممارسًا لدور السلطة بمفهومه السلبى الذى يعنى التسلّط والقهر، بل قد يكون كل واحد منا يتصور نفسه عمليًا فوق مقام الاستدراك فضلاً عن النقد، يصدر الأوامر وما على الآخرين إلا التسليم بما يريد، فكيف لمن كان حاله على وفق ما ألمحنا أن يستغرب الاستبداد السياسى؟

والاستبداد يعد من أهم موانع المناقشات الفكرية الهادئة والهادفة لما يقتضيه من كم للأفواه وتقييد للأيدى، وبالتالى سيكون حين العمل به أو الاستجابة له ملوثًا خطيرًا للبيئة الفكرية؛ لأنه يمنع البحث الموضوعى سواء فى قضايا النزاع الفكرى أو غيره، وتزداد خطورة الاستبداد على الفكر حال تلبّسه بالدين من خلال الاستدلال على ضرورته والتسليم به لشواهد نصية أو تجربة تاريخية معينة، فتتحول رغبات ونزعات وإرشادات أشخاص معينين دينا لا يجوز العدول عنه بفعل بعض المعدودين فى أهل العلم، فيصير الفكر بهذا مصروفًا عن التفكير فى مثل أصل هذه القضايا أو المساءلة عنها على الأقل، رغم ما لها من تأثير وخيم على توجيه الفكر، لما يحمله هذا الموقف من خلع نوع قداسة على أشخاص أو أفكار معينة.

إن الاستبداد بمفهومه العام -السياسى، والفكرى، والتعليمى، والحضارى- يعد ملوثًا قويًا للبيئة الفكرية، بوصفه من أهم صوارف الفكر بكل حرية فى المواضيع التى يراها ذات نفع فى الحاضر والمستقبل.

والاستبداد نفسه -حسب تقديرنا- لا يقل شناعة عن قبول الاستبداد من حيث تلويثهما للبيئة الفكرية، إذ قبول الاستبداد يترجم فى موقف فكرى يتجلى فى البحوث والمؤلفات، فيتفنن قابلو الاستبداد ففى التأييد والمرافعة عن رأى المستبد (قد يكون سياسيًا، وقد يكون معلمًا أو مثقفًا أو غنيًا أو..) ولا شك أن من كان هذا شأنه سيكون بعيدًا كل البعد عن البحث الموضوعى، وخاصة فى المسائل المتنازع حولها فى عالمى الأفكار والأشخاص.

إن العقل المبرر للاستبداد "فكر قمعى لا يستطيع أن يتحمل الأفكار التى تنطوى بسهولة ضمن إطار معطى سلفًا؛ لهذا فالأفكار المخالفة مرشحة للمصادرة الدائمة؛ نظرًا لما تقتضيه من تجاوز للمعطى المسلم به، وأساس هذا التحليل السلوك الوسواسى نفى الآخر عقليًا، أى رفض الآخر من خلال رفض حق الاختلاف فى وجهات النظر، ولا شك أن ذلك مقدمة للإنكار الجسدى، أى هو الشكل الأول من أشكال الاغتيال،

والانتقال من هذا الشكل الأول من القتل النفسى إلى الشكل الثانى، أى القتل المادى لا يحتاج إلى تفكير جديًا بقدر ما يحتاج إلى تجسيد القتل النظرى الممثل فى الاستبداد؛ لأنه لا يتطلب تفكيراً جديداً بقدر ما يتطلب حالة انفعالية جديدة، فبمجرد تغير مزاج المستبد يقع ما يحمد عقباه[1]، وبهذا يصبح الفكر المبرر للاستبداد ملوثًا للبيئة الفكرية، معداً لنفوس انتقامية وظيفتها الاغتيال فى الوقت المحدد فى الظروف المحددة.

وبهذا يتحول الفكر بواسطة هذه الملوثات عن وظيفته الأصلية؛ ليتفرغ -وبشكل كلى- لمهمة تصفية الفكرة المخالفة أو تحميلها مسئولية جميع الإخفاقات، عوض العمل على تغيير الواقع الفاسد[2] والتقارب بين القوى الفاعلة فى المجتمع بهدف مواجهة الخطر المحدق بالجميع.

٣- هيمنة روح التسليم

يعتبر التسليم للواقع بجميع مكوناته امتدادًا عاديًا لفكرة الاستبداد بمفهومها العام، وقد ظلت فكرة التسليم مهيمنة على فكرنا منذ أمد بعيد، فتولدت عنها أمراض أخطر، لعل من أهمها أن يقوم الرجل منا مقام المستبد فى تثبيط العزائم، فيؤلب العامة على من رام الحديث عن التغيير فضلاً عن الذى يعمل على تجسيده.

وقد غيبت العناصر الروحية من نفسيتنا ولوّثت بيئتنا الفكرية بفعل شيوع تثبيط العزائم الذى نخر لأوصال الأمة، فلا مشجع على البحث الموضوعى وخاصة فى المسائل المخالفة لرأى شائع أو حاكم مستبد، أو عالم مهيمن على الثقافة والمال، و...، والمعينون على التزلّف والتملّق بأصحاب الجاه والسلطان السياسى والثقافى والمالى كثر، ويكاد يكون هذا المرض شاملاً جميع البيئات العربية والإسلامية، وقد شكا أحد الصالحين من هذا المرض فى بيئته، حيث قال: "هناك بيئات خاذلة مثبّطة، وهناك بيئات دافعة منشطة، وبيئتنا من النوع الأخرى، ما تنهض لواحد من بينها إلا إذا فرضته عليهم

(١) انظر: "مجتمع النخبة"، برهان غليون، ص٢٢٤-٢٢٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.

قوة من خارج[1]، وما أظن بيئتنا العربية والإسلامية مشرقًا ومغربًا بعيدة عنها سواء فى الأداء السياسى أو الثقافى أو التعليمى.

إن التسليم بالواقع من أهم ملوثات البيئة الفكرية من جانب توطين السكوت عن البحث الموضوعى والحيلولة دون بعث التفكير الحر، لما يقتضيه من تجاوز لتكبيل الفكر وتحديد لمجالات بحثه، وجبره على السير فى مسارات محددة سلفًا من قبل الفكر الإطلاقى المجسد فى العقليتين التسليمية والمسلم بها.

٤- فقدان عناصر التربية الفكرية

تنقسم هذه العناصر إلى صنفين، يتناول أولهما العناصر النفسية من التربية، ويتضمن الثانى العناصر المعرفية فى جانبيها المنهجى المتعلق بمواضيع العلوم، وهذا يقتضى تكوينًا مستمرًا فى جميع الجوانب المشار إليها.

(أ) العناصر النفسية

أهمل المسلم المعاصر بفعل الإكراهات الواقعية ومتطلبات الحياة البائسة - بفعل الفقر عند البعض والتخمة عند البعض الآخر- كثيرًا من عناصره النفسية التى يولد مزودًا بها، وإذا به بفعل التربية الاجتماعية والمدرسية، والمنظومات القانونية، والممارسة السياسية، يكتشف بأنه لا يتمتع بقدرة على التغيير الفكرى، ثم يتحول فى قابل الأيام بفعل استثمارها الذكى من قبل المخالف- إلى فقدان القدرة على تحقيق التغيير الفكرى المنتظر، وتتحول تلك النزعة بعد أيام وبفعل التذكية الرسمية بشقيها السياسى أو الثقافى (الدينى) إلى فقدان الرغبة فى التفكير فى التغيير فضلاً عن القيام به، وهكذا يتحول إنسان المنطقة من كائن مكرّم خلقه الله -تعالى- حرًا بالتكليف إلى إنسان فاقد للرغبة والإرادة والقدرة، وكأنه مشلول على طول الخط (يأكل القوت وينتظر الموت)، يسلم أمره (لمولاه) يفعل بشأنه ما يشاء، وكأنها

(١) "قصة حياة"، ص١٧٠.

جبرية بعثت من مرقدها، ولهذا كان التسليم بفكرة التسليم ملوثًا للبيئة الفكرية وحائلاً دون انطلاقة العقل والفكر فى عالمه الرحب.

وبهذا الصدد تعتبر العولمة من أبرز القوى الخارجية المسلم بها ولها لدى البعض بوصفها عاملاً فاعلاً فى البيئة الفكرية، وقد عملت العولمة على القضاء على التنوع والتعدد فى المجتمع الدولى، والتى من خلالها تختار الصراع وسيلة للحوار (عوض الحوار الحضارى السلمى الهادئ)[1]، ويؤكد هذه المعانى عدم قبول الغربيين والأمريكان على وجه الخصوص بالديمقراطية الحضارية المعبر عنها فى حقيقة الأمر بالديمقراطية السياسية؛ لأن الفعل السياسى ليس إلا نتاجًا لفلسفة كونية مستقلة، لهذا عدّ رفض الديمقراطية الحضارية دليلاً قاطعًا على أحادية الأنموذج الذى يراد فرضه على المستضعفين.

العولمة لهذا المعنى ليست فى حقيقة الأمر إلا تسويقًا جديدًا لأفكار سابقة عرفت فى ماضى الأيام بـ"الثقافة الواحدة والوحيدة"، وهى الأنموذج الوحيد للخروج من دائرة التخلف والخلوص إلى التقدم وفق بعض التصورات، وقد عبر عنها الدكتور على شريعتى بمصطلح "Monoculture"[2].

ووجه الصلة بينهما جلى حسب تقديرنا، إذ تتجلى فى العولمة المنهج العالمى الموحد للانعتاق من التخلف وولوج طريق التقدم، وقد صوّر هذا المسلك ففى طريق وحيد لا محيد عنه، حتى صور لنا أننا أمام جبرية جديدة ليس فى مقدورنا التفكير فى مواجهتها فضلاً عن مواجهتها بالفعل، فمن أراد التقدم فهذا هو المسلك[3] ولا طريق غيره، كما

(١) قد رام التبشير بهذه الفكرة عالمين أمريكيين، يرى أحدهما توقف التاريخ عند الأنموذج الأمريكى، يرى الثانى أن الصراع الحضارى ضرورة موضوعية وحضارية وفق التصور الأمريكى، انظر: "الحكمة" مجلة عراقية تصدر عن بيت الحكمة، العدد العاشر السنة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م، مقال سامى مهدى، "أهمية ليبرالية أم نظم ديمقراطية"، ص٥٠-٥١.

(٢) العودة إلى الذات"، الدكتور على شريعتى، ترجمة: دسوقى شتا، دار الزهراء، القاهرة.

(٣) حاول ومازال الأوربيون يحاولون الخلاص من الطوق الأمريكى الذى يراد فرضه باسم العولمة، وقد تجلى هذا الأمر من خلال المشروع الأوروبى الموحد فى مجال المال والأعمال والاجتماع، بل وتعداه إلى الأنموذج الثقافى الموحد.

تتجلى فى الثانى (الثقافة الوحيدة) بوصفها المسلك الوحيد للتقدم، فصارت وفق هذا التصور الثقافة تُستورد كاستيراد المواد الغذائية، فمن أراد إمتاع الجسد فهذا طريقه الوحيد، ومن أراد التحضر والتقدم فهذا مسلكه الوحيد أيضًا (وهو طبعًا الطريق الغربى عندهم).

ومن أهم مظاهر الثقافة الوحيدة التى يُراد تبرير فرضها العلمانية والأنموذج الأمريكى للديمقراطية وحقوق الإنسان فى الأوساط الإسلامية، بشرط أن لا تكون وسيلة لديمقراطية حضارية؛ لأنها بذلك تصبح خطرًا على الأنموذج الذى يبشرون به فى العالم كله، وهى ولا شك من أهم عوامل تلويث البيئة الفكرية، إذ ليس بمستطاع للمفكرين المستقلين عن النمط الفكرى الأمريكى فى ظل النظام الموحد والوحيد كسر الطوق المسلّط على المستضعفين وفق رأى كثير من الساسة والمثقفين السائرين فى ركابهم.

يتجلى فى العاملين السابقين، التلويث المقصود للبيئة الفكرية فى العصر الحديث؛ لهذا يقال لنا ولسائر المستضعفين -وفق بعض التصورات-: إما أن تدخلوا الصف مختارين وإما ستدخلونه مرغمين، وفى ظل هذا التلويث ما الذى يجب القيام به؟ وهو السؤال المفروض أن يفكر الجميع فى الإجابة عنه بطريقة موضوعية، ولعل من العناصر الأولية للإجابة أن نبتعد عن تولى وظيفة الآخر فى تثبيط العزائم، فإننا وإن لم نتمكن من المقاومة الفعلية، يجب أن لا نجهز على بذرة المقاومة فينا كقوة كامنة مبلّغة إلى الأجيال اللاحقة، وبهذا نكون قد قمنا ببعض ما علينا من تكاليف شرعية، وذلك يحقق أقل ما يجب علينا تجاه الأجيال اللاحقة.

والمهم حسب تقديرنا فى هذا السياق أن نؤسس لحسن السؤال الوظيفى، وإن كان الجواب التفصيلى صعب المنال فى إطار الجهود الفردية، والأهم من ذلك أن نكتشف أثر هذه الأفكار العالمية فى تلويث البيئة الفكرية؛ لهذا أدعو إلى الحذر من خطورة التسليم لهذه القوى المهيمنة على الثقافة والسياسة والاجتماع، فإننا -وإن قصّرنا فى القيام بالواجب- ملزمون شرعًا وعقلاً ومن منظور تبرئة الذمة الشرعية، التى من

متطلباتها تبرئة الذمة الحضارية، وذلك بتعهد بذرة المقاومة الفكرية فى نفوس أبنائنا وحملة ميراثنا، فلا تقوم مقام الآخر فى تسويق أفكاره ومبادئه التى يهيمن بها على العالم من جهة، وتفجير التفكير فى التحرر من جهة أخرى، فضلاً عن التجسيد الحضارى والتربوى لفكرة الانعتاق نفسها.

(ب) العناصر المعرفية

يلاحظ المسلم المعاصر غياب القراءة المنهجية لخبراتنا المعرفية، إذ يغلب على جهودنا الجانب الكمى على حساب القراءة الوظيفية الانتقائية، وبفعل أساليب التعليم غيّب السؤال المنهجى والموضوعى فى مناقشة قضايانا الفكرية والحضارية، وقد ولّد هذا النمط من التعلم والتعليم منهجًا معينًا فى الأوساط الأكاديمية، ونظراً لغياب هذا التساؤل المنهجى فى كنف نقص فظيع فى الجوانب النفسية من التربية الفكرية، نهتم بمسائل ميّتة مميتة فى تاريخنا الثقافى، فأحيينا القضايا الميتة من خبراتنا المعرفية، واشتغل الناس بها عن القيام بالتواصل الحضارى مع الأجيال بل ومع الإنسانية فى كنف الميزة الإنسانية لديننا الحنيف، إذ من أهم أبعاده ومقاصده التعامل الإنسانى وإشاعة الإنسانية فى التعامل.

ورأس البلايا فى التربية الفكرية فى جانبها المعرفى قلة الاهتمام بالثقافة العامة بجميع مضامينها، وهيمنة القراءة التماسًا للبركة على حساب القراءة الوظيفية، وقد نتج عن هذا النمط من القراءة والكتابة تغيب القراءة المساءلة المنهجية فى جميع قضايانا، وجاوزوا ذلك إلى إنكار المساءلة المنهجية والقائمين عليها بوصفها بدعة لدى البعض، ومدعاة لفتح باب موصد بإحكام لدى البعض الآخر، أو قد يترتب عليها زلزال جديد على مستوى المسلمات الفكرية لدى فريق ثالث، والقطعيات الفكرية - بفعل التاريخ والتكرر- لدى البعض الآخر، ولعل أصدق أنموذج على الدعوة لقراءة جديدة وظيفية موضوعية علم مقالات الإسلاميين، وهو موضوع شائك حسب تقديرنا يستدعى نوعًا من الحضور الإيمانى المستمر حين القراءة والكتابة أولا، زيادة إلى وقادة

فكر وتكوين منهجى رسالى (فى موضوع الالتزام والتساؤل الموضوعى والمنهجى).

وبهذا الصدد يعد عدم الالتزام بهذه الضوابط تغييبًا للتقوى فى جانبها المعرفى؛ لأن المسلم لا يصعب عليه استحضار التقوى فى جانبها الاجتماعى والأخلاقى والأدبى، ولكن من الصعوبة أن يستحضر التقوى حين ممارسة البحث أولاً والتعبير عن نتائج ذلك البحث ثانيًا، والمسألة فى غاية التعقيد؛ نظرًا للتداخل الكبير بين المذهب والدين، على مستوى التصور، ولا شك أن التوفيق فى هذا الأمر عزيز جدًا، ولعل أصدق أنموذج على ذلك ما كتبه العلامة جمال الدين القاسمى فى كتابيه "الجرح والتعديل" و"المعتزلة والجهمية".

سادساً: الإعداد الفكري لمواجهة الملوثات

معلوم أن صرف دواء العلاج يكون وفق التشخيص؛ لهذا فإن مقترحنا منسجم كل الانسجام مع ما سبق تقريره من ملوثات، فنعرض عناصر الإعداد الفكرى لمواجهة تلوث البيئة الفكرية على النحو الآتى:

١ - عناصر الإعداد فى التصورات (الإعداد الإيمانى).

٢ - الإعداد المعرفى.

٣ - الإعداد النفسى.

١- عناصر الإعداد فى التصورات:

(أ) التأثير العام

تبدأ عملية إصلاح التصورات ببيان مركزيتها فى تطهير البيئة من الملوثات، فالعقيدة الإسلامية ليست من قبيل المعارف الصرف التى لا تبن قصرًا ولا تهدم مصرًا، بل هى محرّك النفوس للتأسيس الحضارى المنشود، إذ هى قوة الدفع الداخلية فى التعلمية التغييرية على مسوى الأنفس أولاً ثم على مستوى الآفاق ثانيًا، وإذا كان للتصورات وفق النظرة التوحيدية هذه المنزلة فينبغى أن يعمل كل فى دائرة عمله على ترسيخها فى الضمير الشعبى والوسط التعليمى.

ويحقق هذا التصور بعدًا إنسانيًا على مستوى التصرفات البشرية عامة، سواء كانت أعمالاً علمية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، فمثلاً منتهى الأهداف المحركة للأداء العملى المستمر ربط الهمة بمرضاة الله -تعالى- ومرضاة الله غاية لا تدرك مع كمال الرضا؛ لأن كل من سار فى نهجها أحس بالتقصير، وكلما أحس بالتقصير كان أكثر خدمة للمجتمع، بل كلما سار المسلم فى طريق طلب كمال الرضا كلما ازداد اندفاعًا نحو الخدمة العامة بجميع أشكالها، اجتماعية، وفكرية، وسياسية، وتربوية، وحضارية.. حتى الرياضية، من خلال الإحساس المستمر بالتقصير.

والبعد الإنسانى المشار إليه أعلاه يصبغ الأداء الاجتماعى والأدبى بنفس الدرجة التى يؤثر بها على الأداء المعرفى فى جانبه التعليمى سواء كمعلم أو كمتلقى، هذا بالنسبة للمدخل العام فى مسألة التصورات وصلته بتطهير البيئة الفكرية، أما تفاصيل المسألة، فسنعرض جزءًا منه فى الفقرات اللاحقة.

(ب) فعالية التوحيد فى تهيئة البيئة الفكرية

بناء على ما سبق تقريره، نركز على بيان أهمية التوحيد فى تطهير البيئة الفكرية، ويستشف هذا الأمر من خلال العمل الكبير الذى يقوم به التوحيد فى جانبى التخلية والتحلية، فعمله عظيم فى تخلية القلب من كل مضادات التوحيد، لا بوصفها من مضادات العقيدة الإسلامية من حيث فحسب، بل لكونها ملوثًا قويًا لأصل الفطرة التى خُلق عليها الإنسان، وبالتالى فهو ملوث للبيئة الفكرية الصحيحة، وتعرض العقيدة الإسلامية حقائق التوحيد لتحلية القلب والعقل بها فى اللحظة نفسها التى تقوم بالتخلية (إفراغ القلب من مضادات التوحيد)، وكل ذلك بمثابة إعداد فكرى لأساس التصورالموضوعى لعالمى الأنفس والآفاق؛ ليتسنى للإنسان التعامل الموضوعى مع عالمى الأشياء والإنسان فى إطار غائية واضحة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بماهية الإنسان (خليفة الله) الراسمة لوظفته الاجتماعية والمحددة لمفهوم حريته المكتسبة بالتكليف.

يوضح المسألة نماذج من مضادات التوحيد، فمثلاً هل يصح أن يكون الكفر أو الشرك

أو النفاق أساس لتحليل الظواهر الكونية والإنسـانية، الشرك هو الازدواجية فى الحكم على أشياء من طبيعة واحدة، وكذلك الحال بالنسبة للنفاق، سواء فى بعده العقدى البحث أو من آثاره الأخلاقـية المؤثرة فى الجوانب المعرفـية، سواء فى القراءة أو تبليغ القـراءة أو البحث أو تبليغ البحث؛ لأن النفـاق هو اتخاذ موقفين متـعارضين اقتضـتهما المنفعـة (الغنيمة) وليس المعرفـة، لهذا يجب العمل على تطهـير البيـئة الفكرية من مثل هذه الأمـراض الخطيرة على التتصوات أولاً وأثرها الوخيم على البيئة الفكرية ثانيًا.

وطريق الإصـلاح العلم، وتبليغ الـعلم والعـمل بمقـتضـاه، وأول من يوجـه إليـه هذا الخطاب من أجل المساهمـة فى تطهير البيـئة من النفاق هم أهل السلطان فى المجـتمع سواء كان هذا السلطان ثقافيًا أو ماليًا أو سياسيًا؛ لأنهم أول المسؤولين عن سيادة التزلّف والتملّق والنفاق فى الحياة العامة[1]، وعلى جميع الصعد الثقافيـة والفكرية والسياسية والحضارية، ثم يبلغ بعدها أفراد الأمة من معلمين ومتـعلمبن ووعاظ ومرشدين، وسائر الناس بخطورة النفاق على الأنفس وتلويثه البيئة الفكرية والأخلاقية.

وبهذا الصدد يحسن التنبيه إلى بعض أساليب النفاق فى تلويث البيئة الفكرية:

أساليب النفاق فى تلويث البيئة الفكرية

* الإعراض عن البـحث الموضوعى وتعـويضه بالاهتـمام المهـرجانى فى تحـصيل العلوم وتبليغها.
* العمل على تمكين الجبن المعرفى من خلال زعزعة ثقة الناس بأنفسهم.
* الاتصاف بالشح المعرفى.
* التخاذل عن نصرة البحث العلمى الموضوعى.
* زرع البلبلة الفكـرية من خلال شـغل الناس بقـضـايا مـيتـة من تاريخنا، بل قـد يشغلوننا بما يهدر طاقاتنا فيما لا طائل منه.

---

(١) انظر فى هذه المعانى: توفيق سيف، مرجع سابق، ص٣٦٠.

* تأسيس المؤسسات الضرار في المعرفة، بغرض استقطاب العناصر القلقة المضطربة أولاً، وتشكيك الأذكياء ونجباء الطلبة ثانيًا، أو على الأقل شغلهم عن أصل ما تصرف من أجله الأموال وتتعلق به الهمم[1].

٢- عناصر الإعداد المعرفي

سبق وأن ذكرنا بأن من أهم ملوثات البيئة من الناحية المعرفية، غلبة الجهل، وهيمنة التقليد، ووقوع العقول والقلوب في هاوية المكبلات الفكرية، مما ولد الاستخفاف وقبوله في بيئتنا العربية الإسلامية، والذي قد يتلبس بأحادية المنهج في بعض الأحيان، ومما زاد الأمر شناعة أو تغيب النقد المقاصدي الذي يستحضر دومًا الأساسيات التي تجتمع ويبعد ما يفرق إلى حين (بعد بحث كل ما يلم الشمل).

(أ) الإعداد لمواجهة الجهل

الجهل بوصفه ملوثًا للبيئة الفكرية ينقسم إلى قسمين: أولهما يدرج فيه أولئك الذين لا يعلمون ويعلمون أنهم لا يعلمون -الجهل البسيط-، وثانيهما يندرج فيه أولئك الذين لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون -الجهل المركب-، فالأول أمره من أبسط ما يكون إذ يملك في نفسه استعدادًا أوليًا للتعلم من خلال الاعتراف بالجهل، فما على القائمين على التوجيه إلا التلطّف في التبليغ المعرفي بغرض تخلية القلوب والعقول من الجهل وتحليتها بالعلم مشفوعًا بجانبه الوظيفي، كي لا تكون المسألة المعرفية في مواجهة الجهل مواجهة مع الجاهل بقدر ما تكون مواجهة للجهل، أي يجب تحرير الأنفس من العناصر النفسية التي تعيق عملية التبليغ، إذ يعد عدم استحضارها حال التبليغ استفزازًا لملوث من ملوثات البيئة الفكرية.

أما بالنسبة للفريق الثاني (الجهل المركب) فأحسن أسلوب في تبليغهم، أن يجمع الخطاب بين مخاطبة العقل والقلب في نفس الوقت وبنفس القوة وفق مسلك القرآن الكريم، ومن رام تجاوز هذا المسلك قد يقضي عمله إلى نقيض القصد، فتشتد كراهية

(١) انظر في أساليب النفاق، كتاب "دراسات في السيرة"، عماد الدين خليل.

المنصوحين لأهل التصحيح ويزداد خبثهم ومكرهم، بل يجاوزون ذلك إلى الإصرار على ما يعتقدون وقد يجرون بفعل الاستفزاز قبل التذكير إلى الانفعال الذى يولد عنفًا لفظيًا فى بداية الأمر فيتحول فى قابل الأيام إلى عنف مادى.

والمهمة -حسب تقديرنا- تستدعى تضافر جهود الجميع وعلى رأسهم أهل التعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد وأهل السياسة والقانون من خلال منظوماتهم وممارساتهم، ورجال الفكر والثقافة، كل فى اختصاصه، ورغم أهمية عمل الجميع فى تطهير البيئة الفكرية من الجهل وتوابعه، فإن للقرار السياسى الراشد دور أهم ومهمة أعظم فى إصلاح النفوس وتطهيرها من الجهل، من خلال ربط ولاية المناصب وإعطاء المكاسب بالعلم أولا لا بالولاء، وإن كان ولابد من شرط الولاء -كضرورة عملية يقتضيها الانسجام بين المسيرين- فلابد أن يكون بعد العلم لا قبله.

(ب) معالجة هيمنة التقليد

يجب أن يعلم المسلمون أن الإسلام فى حقيقة الأمر هو دعوة مستمرة ودائمة للتحرر من التقليد بالتأصيل، وطريقها المراجعة الدائمة لخبراتنا المتنوعة وخبرات الإنسانية بالوحى كتابًا وسنة؛ لأن الوحى من أهم عناصر تطهير البيئة الفكرية من التقليد، وما جاء الإسلام إلا من أجل تقديم البديل الحضارى المؤسس على الإقناع، والإقناع محرّك أساسى للأداء الحضارى المنتظر لتجاوز التقليد بالأصل.

والتقليد بوصفه من أهم ملوثات البيئة الفكرية لا ينحصر أثره فى جانب على حساب آخر، بل ينسحب على العقيدة بالدرجة نفسها التى ينسحب على المعرفة والسياسة، ولا يتوقف على إحياء أفكار الشرق القديم أو الحديث، بل يشمل أيضًا الدعوة إلى تقليد الآخر من خلال خلع صفات العلمية والحضارية على كل ما يأتينا من الغرب، بالحداثيون مثلاً بدعوى التجديد استبدلوا تقليدًا بتقليد، وهم حين يفعلون ذلك يلوثون البيئة الفكرية بدعوى تطهيرها (رمتنى بدائها وانسلت) من التقليد فيرتمون فى تقليد أشنع.

وتجاوز التـقليد حسب تقـديرنا لا يكون إلا بإشاعة التـعليم، وبيان أهميـة المصادر الإسلامية فى المراجعـة الدائمة للتقليد المعرفى والسياسى والفكرى بغـرض التمحيص المستمر لخبراتنا -طبعًا من قبل أهل الاختصاص- والتأصيل لمواجهة التقليد.

قد نجد صعوبة فى مواجهة التقـليد لا تقل عن الصعوبة المنتظرة فى مواجهة الجهل؛ لهذا يجب استـصحاب متعلقات التـقليد حين صياغة الخطاب العلمى والـتوجيه الذى يصلح التقليد بالتأصيل، ولعل من متعلقاته الأسرة، والسياسة، والمنفعة المادية والمعنوية، والهيبـة الاجتماعية، ومن ثم كـان الارتباط بهذه الأمور من ملوثات البيـئة الفكرية حال تمكنها الكلى من الـنفس والقلب، بحيث يصبح القـول ما قال المقلَّد -بفـتح اللام-، وما قال المـقلد فصـدقوه، ومن نافلة القـول التأكـيد على تجنب جـعل المطارحة التـربوية فى التقليـد مسألة يراد بها كـسر شوكة فـلان أو علان؛ لأنها لا تزيد المقلد إلا تشبـثًا بأفكاره السابقة، فيفضى العمل التوجيهى حين فقده لتلك الشروط النفسية إلى نقيض المقصود، فيزداد التقليد شناعة دفاعًا عن مكتسب أو جلبًا لمنفعة؛ لأن الدفاع عن التقليد ليس قضية معرفية بقدر ما هو قضية منفعية سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو فكرية.

(جـ) تحرير العقل والقلب من المكبلات

يتـجـلى تحكّم المكبّــلات فى القلب والنفـس البـشـريـة فى عـدة صـور، أولـهـا الاستخفاف المعرفى أو قبوله، وثانيهما أحادية المنهج المحكّمة فى جميع العلوم:

- **التحديد الدقيق للمصطلح:**

يراد بالمكبلات: المعارف المسبقة التى تحـول دون القراءة الموضوعية للأفكار القابلة والحاضرة، فتكون تلك المعارف بمثابة محدد لمنهج القراءة، بل قد تطال موضوع القراءة نفسـه، فينظـر إلى المعارف من منطلق المعـارف السابقـة، وفى كنفهـا؛ لأن المكبّل بتلك المعارف يكون مـقيّـد الإرادة موجّه الاهتـمام، مثـاله من يريد أن يفهم العـالم من خلال قريتـه أو مجـتمـعه أو من يروم فهـم عالم الأفكار من فكرة مـعينة يحكم إليـها جـميع المنتجات الفكرية، وهو بهذا لا يختلف عمن رأى فأرًا ثم كف بصره فإذا سئل عن سور

الصين قال كم يعادل من فأر، ولهذا كانت المكبلات الإيديولوجية أو الفكرية ملوثة للبيئة الفكرية، يجب العمل على تطهير البيئة الفكرية منها بطريق تربوى راشد، ومواجهة هذا الأمر تقتضى قطع الطريق على كل ما من شأنه تطبيع هذا الأمر أو تذكيته، فيعمل المثقفون على تكريس استهجان هذا المسلك فى الأوساط العلمية ثم الشعبية.

ومن مظاهر المكبلات الرواسب الفكرية المتلبسة بالاستخفاف المعرفى حينًا وأحادية المنهج فى تحصيل العلوم أو تبليغها، من هذا المنطلق ستتناول عرض المسألتين فى سياق الحديث عن المكبلات.

• الاستخفاف المعرفي أو قبوله:

كثيراً ما يكون الاستخفاف بالآخر من متطلبات الحيلولة دون وصول الآخر إلى عمق الفكر الذى يراد فرضه على الساحة العلمية والحضارية، فيكون الضغط الأدبى سببًا فى إبعاد الناس عن المناقشة الموضوعية من خلال الاستخفاف بهم بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر، وبهذا يمكن تلويث البيئة الفكرية بوصفه مانعًا من القراءة الموضوعية للمسائل المعروضة للنقاش.

والاستخفاف ليس شنيعًا حالة صدوره عن الجهلة؛ لأنه ليس غريبًا صدور مثل هذه الأفعال عنهم، ولكن شناعته تكمن فى صدور مثل هذه الأفعال عن أهل الفكر والثقافة والسياسة؛ لأنهم بصنيعهم هذا يسهمون فى تمكين الاستخفاف بالعلم والفكر من ضمير الأمة وبهذا يساعدون على تلويث البيئة الفكرية.

والاستخفاف آنف الذكر لا يقل شناعة عن قبول الاستخفاف المعرفى بوصفه استجابة إرادية لمستخف؛ لأنه وسابقه يهيئ لتلويث البيئة الفكرية من خلال خلع نوع قداسة على أشخاص معينين، ولتجاوز هذا الداء يحسن أن لا يأخذنا فى المعرفة والفكر لوم لائم، فنبحث الأفكار والمسائل بكل موضوعية غير آبهين بمستخف أو قابل له، وبذلك نساهم فى تطهير البيئة الفكرية من هذه الأمراض الفتاكة، فنكون خير أنموذج

معبر عن بطلان أفكار المستخفين (مهما كانت مناصبهم ومكاسبهم) بالعلم والفكر، وأنموذجًا عمليًا لتربية القابلين للاستخفاف بغرض إخراجهم مما هم فيه.

• **أحادية المنهج:**

يتصور بعض الباحثين أن اندراج مواضيع مختلفة تحت اسم العلم يقتضى اشتراكًا فى منهج الدراسة، وقد تمثل هذا الرأى المعجبون بالفلسفة الوضعية ردحًا من الزمن، ورام تحقيق هذا المسلك رواد الفلسفة المادية، إذ حاولوا تحليل كل الظواهر الإنسانية والكونية فى إطار هذه الرؤية الفلسفية، رغم علمنا يقينًا بأن تعدد موضوعات العلوم يقتضى تعددًا فى مناهج تناولها، فلا يمكن تطبيق المناهج التجريبية على القضايا الغيبية؛ لأنها ليست من طبيعة مخبرية، أو تحكيم مناهج المحدثين فى الخبرة الصوفية، أو تطبيق المنهج الصوفى فى قبول التحديث أو رفضه، إن التعداد المنهجى فى تناول العلوم ودراستها حقيقة واضحة حتى فى الموضوع الواحد من العلوم، مثاله بحث مسائل الكلام على مشرب المعتزلة يختلف عن طريقة بحثه لدى الأشاعرة وهو بدوره متميز عن ما هو عند غيرهم كابن تيمية و.. وهكذا فى سائر مباحث المعرفة سواء فى العلوم الإسلامية أو فى غيرها.

وأظهر أنموذج فى أحادية المنهج التى يراد فرضه فى عالمنا الإسلامى تصوير البعض أن طريق الخروج من التخلف إلى التقدم هو الطريق الذى رسمه الغرب ممثلاً فى أمريكا مصدقين ما قاله أحدهم: "إن الأنموذج الأمريكى فى السياسة والحكم هو النهاية العظمى لما يمكن أن يبلغه الفكر، فهو بمثابة الأنموذج النهائى المطلق الذى يجب أن يقتدى به كل من أراد التنمية والانعتاق وحقوق الإنسان... إلى آخر الموشح".

وهذا ليس مستغربًا صدوره من مثل هذه القوى؛ لأنها بذلك تدافع عن مصالحها الحضارية والفكرية بواسطة تخلية الأفكار من عناصر المقاومة ثم تحليتها بالعناصر التى يراد تحليل تاريخ الإنسانية ومستقبلها فى كنفه؛ لهذا يجب العمل بجد على تطعيم أبنائنا بالفكر والعلم لمواجهة مثل هذه الملوثات الفكرية بوصفها مانعًا قويًا -حين

التسليم بها- من التفكير الصحيح، وموجهًا للفكر نحو البحث فى قضايانا والحيلولة دون بحث قضايا أخرى.

كما يجب العمل على منع قبول فرض هذا الأنموذج الفكرى على عالمنا الإسلامى؛ لأن تمكين هذا الداء من الأمة سيحول دون التفكير فى انطلاقة حضارية أصيلة لأنها ستأتى على عناصر المقاومة الفكرية من الأساس وفى ذلك أكبر الخطر على حاضر الأمة ومستقبلها.

(د) غياب النقد المقاصدى

يهيمن على عملنا النقدى فى ميادين الفكر والسياسة التعلق باستعراض القوة الخطابية حينًا والمادية حينًا آخر، فننقد للنقد استنصاراً للنفس ورغباتها ونزواتها (قد يصبح العمل النقدى أشبه بالعبث المختصر أساسًا فى قتل أوقات الناس فيما لا طائل منه)؛ لهذا يغيب السؤال عن مقاصد النقد وأهدافه، لماذا النقد؟ وما هو موضوعه فى البناء الحضارى المنشود؟ وهل يحقق ما يهدف إلى تحقيقه؟

وتعود الغفلة عن الرؤية المقاصدية فى التحليل والنقد إلى عدة عوامل، يتلخص بعضها فى عناصر معرفية، ويعود البعض الآخر إلى عناصر نفسية، فالعناصر العلمية تختزل فى غياب المراقبة الذاتية بطريق التساؤل الموضوعى الذى يتوخى إعطاء الناس حقوقهم أو على الأقل عدم الوقوع فى ظلمهم معرفيًا واجتماعيًا (ولأن يخطأ أحدكم فى الصفح أحسن من أن يخطأ فى الظلم)، وهى بدورها تعود إلى إهمال القراءة الوظيفية المستمرة لجهود الآخر وفق ما يريد تصويره لا وفق فهمنا لجهوده، أى يجب موضوعيًا استصحاب أجواء الحمل بالأفكار وظروف ولادتها؛ لأننا حين استصحاب ذلك سنلتمس العذر لأصحابها وإن خالفناهم فى تبنيها جملة وتفصيلاً، وفى ذلك أقصر طرق التواصل المعرفى المطهّر للبيئة الفكرية من التشنج والنقد الانفعالى، والمؤسس للتواصل الاجتماعى والتعاون الحضارى.

ولتطهير البيئة من هذا الوباء، يحسن استحضار التساؤل عن المقاصد فى المراحل

التى يقطعها الفكر بدءًا بالإجابة الدقيقة عن سبب التطلع إلى النقد، ثم رسم خطة مضبوطة لتحقيق المراد المشروع من النقد، بشرط أن تتصف بالعلمية جميع المراحل التى يقطعها الفكر من المقدمات إلى النتائج، ولا شك أن ذلك سيحقق مجموعة لا يستهان بها من العناصر الضرورية التى تعد بمثابة تطعيم للنفس من مثل هذه الأدواء، فيهيئ هذا العمل لقبول الآخر من الناحية الفكرية، وهو المسلك الأول والأساسى لاستقطابه على مستوى الفعل الاجتماعى للمساهمة فى البناء الحضارى المنشود.

إن النقد المقاصدى -حين الإجابة الموضوعية عنه- سيحرر النفس والعقل من كثير من الأمراض، ويحرر القلب من الانشداد إلى الدنيا والاستبداد وحب الرياسة والتطلع إلى غلبة النفس على حساب الحق والحقيقة. كما يحرر العقل من الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة، ويشجعه على البحث الفكرى الهادئ الهادف دون خوف أو وجل، يتوخى فى كل ذلك مرضاة الله -سبحانه وتعالى- وفى ذلك أكبر ضامن للموضوعية المتباهى بها بين الأمم والشعوب؛ لهذا كانت التقوى فى جانبها المعرفى أحسن مظهر للبيئة الفكرية من مثل هذه الأوبئة.

٣- الإعداد النفسى

تعد العناصر النفسية من أهم المؤثرات على الأداء الفكرى؛ وذلك بسبب مساهمتها فى البيئة الفكرية سلبًا وإيجابًا، فقد تكون مطهرة كما يمكن أن تكون ملوّثة، فالفكر وإن كان ثاقبًا لا يمكن أن يحقق مقاصده ما لم يكن وعاء الشعور (الوجدان) سليمًا معافى من أمراض تحول دون تحقيق الفكر لأهدافه وغاياته، فالعناصر النفسية تحد من فاعلية الفكر بنفس القدر الذى تكون به سببًا فى انطلاقه، وهذا بقدر تحرر النفس من معوقات الإشهاد على الناس من الناحية المعرفية والحضارية والسياسية.

(أ) التعلق بالدنيا:

الصراع الحضارى والسياسى يستعمل الصراع الفكرى وسيلة لتحقيق المراد، وأساس الصراع الحضارى الرغبة فى الغلبة -دولة على دولة أو حزبًا على حزب أو

شخـصًا على شخص..- هو العـمل على الاستحـواذ على الدنيا وملذاتها، يفـسر هذا الأمر الصراع القـائم فى كثير من أصـقاع العالـم، كما يمكن أن يـكون الصراع بسبب إرادة بسط نفوذ جماعة على حساب أخرى بغلب بفرض رأى على رأى بواسطة طالبى الدنيا.

لهذا عملت بعض السلط السياسية والثقـافية على تمليك التوجيه الفكرى بقرارات رسمية لشخصيـات مخصوصة إما لكفاءتها الأكاديمية أو لأقدميـة اكتسبوها فى ميدان التعليم والبـحث، ولعل من أشنع الصور أن يقع التـوجيه فى أيدى غـير أمينة مشـهورة بالتقصير، إذ فيهـم من لا يرد فى بلـده يد لامس فذهب إلى أوروبا وأمريكا فأخذ شهادة مزورة يظهر أنهـا كتبت له لا يدرى خبـاياها وكأن الغربيين بتـواطؤ من المحليين حمّلوا الدكتوراه سفاحًا[1].

ويظهر القصور فى الأعمال الفكرية لطلاب الدنيا من المناحى الآتية:

• إهمال الواجب التوجيهي:

حـصر هذا النمط من المفكرين واجبـاتهم فى كلمات تؤدى بقـصور أو وفـاء، ثم يقبعون فى بـيوتهم بعد ذلك، لا ينصرون حقًا ولا ينشـئون جيلاً[2]، تنازلوا عن دورهم فى صناعة المجتمع، بل راموا تلويث بيئته الفكرية بتمكين حب الدنيا وكراهية الموت.

• ممارستهم للتضليل:

يكره العقلاء مثـل هذه الأعمال ويدعون إلى محاربتهـا، وفى ذلك أردد معنى قول أحد أعلام الدعوة[3]: "إنى أكره الشيوخ والمفكرين الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوى الجهلاء، وتوجيهـاتهم الغبية، إنهم يدورون فى الساحة السياسـية (البرلمانات ومجالس الحكومات.. وفى الجـامعـات والكليات)- بذممهم كـما يدور سائقـو سيـارات الأجرة بعرباتهم يتلفتون، هل من راكب، فبّحهم الله وقبّح من كلفهم، وقبل منهم"[4].

(١) "قصة حياة"، ص١٦٦-١٦٧ (بتصرف).
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٨.
(٣) محمد الغزالى السقا -رحمه الله-، توفى بتاريخ ١٢ مارس ١٩٩٦م.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٢٦ .

• جعلوا الفكر معيبًا بتصرفاتهم

استمد الذين اتهموا الفكر والمفكرين بعدم الفاعلية فى التغيير من تصرفات أولئك الذين حملوا الفكر ما لا يطيق لا فى بلاد العرب وحدها بل فى أقطار أخرى، إنهم يسخّرون رجال الفكر لهوى الرجال والنساء، واخترعوا أفكارًا -تزلّفًا وطلبًا للدنيا- لا يقبلها من له ذرة عقل وشهامة، وما كسبوا بذلك إلا غضب الله -سبحانه وتعالى-، وكراهية الصالحين من عباده، وازدراء الجماهير المغلوبة على أمرها. ويحق فى هؤلاء المفكرين قول أحمد محرم فى بعض علماء الدين:

أرى علماء الدين لا يحفظونه	ولا يرفعون اليوم رايته العليا
هم اتَّخذوا ما أحرزوا من علومه	سبيلاً إلى ما يبتغون من الدنيا
إذا ما أتاهم جاهل بضلالة	أتوه بألفى عالم يحمل الفتيا

• المساهمة في تفريق الأمة:

يعمل هذا الصنف من العلماء على شغل الناس بقضايا نظرية عفى عليها الزمن أو خلافات فرعية لا يجوز أن تصدع الشمل أو تمزق الأهل"[1].

ونظرًا لما لتلك التصرفات من أثر جسيم على حاضر الأمة ومستقبلها محليًا ودوليًا، عمل كثير من العلماء وألحوا على ضرورة إبعاد مثل هؤلاء المفكرين من ضمير الأمة، والسعى إلى حيلولة دون هيمنتهم على ميدان التوجيه، وبهذا الصدد يحسن إبعاد الأصناف الآتية:

* يقصى من ميدان الفكر العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدى الساسة المنحرفين ويزينون لهم نكوصهم ومجونهم.
* يقصى من الميدان نفسه أيضًا الذين يشغلون الناس بقضايا نظرية ميتة عفى عنها الزمن، كما يلحق به النافخون فى الخلافات الفرعية التى كان من المفروض أن لا تصدع الشمل أو تمزق الأهل.

(١) "علل وأدوية"، الغزالى، ص١٠٨.

* يلحق بالقائمـة السابقة العلمـاء والمفكرون الذين يظلمون الفكر بسـوء الفهم، ويرونه فى السـياسـة والحكم والمال ظهـيراً للاسـتبداد والاسـتغـلال وإضاعـة الشعوب[1]، بسبب تعلقهم بالدنيا ومطالبها، ومن تعلّق بالدنيا فتن بها وأسرته، فلا يقرأ بموضوعية ولا يوجه بموضوعية؛ لأن موضوعيته نسبية تدور حيث تدور الغنيمة، وحيث تكون المطالب الدنيوية محققة فى أكمل صورة فثم الموضوعية.

وأصـدق علاج لهـا النسج على وفق نسق التـذكيـر القرآنـى الجامع بين مـخاطبـة الوجدان والعقل، أى التـذكير العقلى المخاطب للفكر والقلب فى اللحظة نـفسها؛ لأن طالب الدنيا لا دواء لمرضه غير محاولة ربطهـا بهدف أخروى يوسع من الدنيا ويجعلها مسـرحًا للاسـتكثار من الخـير ودافـعًا -بالنظر إلى زوالـها المرتقب- لاسـتثمـارها فى الخيرات بغـرض طرد خوف الفناء بطلب البقـاء عند الله -تعالى-، فما قـدم لله تعالى بقى وما قدم لغـيره فنى، إنك يا طالب الدنيا بالفكر قـد أسرت تفكيرك وعرضـته للبيع بأبخس الأثمان، فكان الأصل أن يكون تفكيـرك وسيلة لتحريرك وتحـرير غيرك فكيف تجعله مطيّة لأسر نفسك وفكرك وغيرك؟

(ب) دواء الاستبداد وقبوله:

الاستـبداد الفكرى ظهـير الاسـتبداد السـياسى والاجـتماعى، بل يعـد الاستـبداد السـيـاسى والفكرى توأمـان كل واحـد منهـا يعـد طريقًـا للآخـر، وكـلاهمـا يحـمى بالتنظيمـات القانونية والسياسـية..؛ ولهذا فالاستـبداد خطير بصفـة عامة، ولكنه يزداد شناعة حال تلبـسه بالدين، لصعوبة تحرير النفوس منه؛ لأنهم يتـصورون تحرير الأنفس منه عملاً على تحريرها من الالتزامات الشرعية.

لهذا يـعمل فقـهاء السـلاطين على ترسـيخ القول بأن لا فـائدة مرجوة مـن الحرية والمساواة؛ لأنهـا -حسب تقـديرهم- نقض للمحـرمات الرسـمية (ليـست الشرعـية) وتشكيك فى التقـاليد ومسـاواة بين علية القـوم وسفلتهم.. وهكذا تصـور الدعوة إلى

(١) "هموم داعية"، الغزالى، ص١٠٨ وما بعدها.

الحرية دعوة إلى الفوضى، حتى ليغدوا الاستبداد فى صورتيه السياسية والفكرية أرحم على الأمة، بل وقد يكون فى تصريحات المتزلفين ما يدل على أن الاستبداد أكثر انسجامًا مع الطبائع البشرية، رغم علم كل العقلاء أن الحرية من لوازم الإنسانية ومن أسس التشريع وأساس التكليف[1].

وحال الاستبداد الفكرى لا يختلف حسب تقديرنا عن قبوله؛ لأن المطيع للمستبد لا يقل جرمًا عن المستبد نفسه، وما استبد من استبد إلا بمساعدة وتشجيع مباشر وغير مباشر من قبل القابلين لأفكاره وتوجيهاته.

ولتجاوز هذين المرضين الخطيرين يجب ترويض النفس على التزام الرؤية الموضوعية المبنية أساسًا على تقوى الله -تعالى- وطاعته، ولا يتأتى لها تحقيق مقاصدها بغير معاندة الهوى واجتناب الشبهات والتورّع عن المآثم صغيرها وكبيرها، حتى يحصل الباحث المسلم على ملكة التقوى والعدالة[2]، وتجتمع فيه الأوصاف التى قررها الشارع الحكيم، وأقرب ما يحقق به تجاوز الدائين التذكر الدائم للتكريم الإلهى مع كونك مخلوقًا تابعًا لخالقك فى أصل خلقك وبقائك ومصيرك، إذ بالشق الأول يطرد قبول الاستبداد من النفس، وبالثانى يمنع الاستبداد، وأحسن ما يبلغ به هذا المضمون العقدى الجمع بين مخاطبة العقل والقلب فى ذات الوقت.

(جـ) طرد روح التسليم

التسليم المطلق للغالب السياسى أو الفكرى أو الحضارى من بنيات قبول الاستبداد بجميع أشكاله وأنماطه، والتسليم بالتسليم محاولة لتطبيع الوضع غير العادى بواسطة تكرار الأمور بغرض إقرارها والتسليم بها ولها، حتى يصبح التفكير بتغيير الوضع غير العادى فعلاً غير عادى، هذا مجرد التفكير أما مباشرة ذلك فيعد لدى البعض من أشنع المنكرات.

ونظرًا لتطبيع الوضع غير العادى يصبح العمل على تنقية البيئة من هذا المرض من

(١) انظر: توفيق سيف، مرجع سابق، ص ٢٧٥-٢٧٧.
(٢) المرجع السابق، ص٣٥٩.

أصعب الصعوبات، إذ كلما رام المفكرون تجاوز هذا الداء واجهتهم عقبة كأداء أقام أركانها المستفيدون من الوضع غير العادى.

تبدأ عملية إصلاح الوضع لتجاوز هذا الملوث ببعث المساءلة الموضوعية عن أصل المسائل المسلم بها ومقصد التسليم بها، هل يعود إلى الإكراهات الواقعية أم يعود إلى محاولة إخراج بعض القضايا من دائرة الحوار إلى دائرة المحظور الذى يحرم بحثه والتفتيش فى أصله؟

ويحسن حين عرض المسألة تجاوز طرح القضية فى جو التشنجات والانفعالية، بل يجب تهيئة الجو الهادئ والظروف العادية التى لا يحس فيها المحاور (بفتح الواو) بأنها قضية شخصية غرضها تجاوز طرح القضية فى جو التشنجات والانفعالية، بل يجب تهيئة الجو الهادئ والظروف العادية التى لا يحس المحاور (بفتح الواو) بأنها قضية شخصية غرضها إثبات عجزه وقلة حيلته، بل يجب أن يعمل على إقناعه بأن من مصلحته بسط البحث فى القضية بشكل موضوعى، وليكن الغرض المنبنى -على الأقل من الناحية النظرية- من الحوار أن يقنع أحد الطرفين الآخر؛ لأنه بهذا يدرك بأنه دخل ومحاوره ميدان النقاش على قدم المساواة، وهى أقصر طرق تهيئة النفوس للحوار الهادف الهادئ.

٤- اكتساب عناصر التربية الفكرية

تكتسب عناصر التربية الفكرية بالتعلّم والتذكير التربوى والتعليمى، وتنقسم هذه العناصر إلى نمطين أولهما يشمل العناصر النفسية فى التربية الفكرية، ويضم الثانى العناصر المعرفية فى التربية الفكرية:

(أ) العناصر النفسية:

تبليغ المعرفة أو تعلمها يفرض توفر شروط تعد بمثابة بث الاستعداد النفسى للتعلم والتبليغ، وفقد هذا الاستعداد من أبرز موانع تحقيق المقصد من العلم والتفكير.

يُخلَق الإنسان مزوداً بهذه العناصر النفسية إذ هى كامنة فى النفس الإنسانية، فإما

أن تنميها التربية الفكرية والمنظومات الاجتماعية والقانونية، فتخرجها من طور القوة إلى الفعل أو تفجرها فتقضى عليها فى مرحلة التعليم الابتدائى، ويرسخ الحكم عليها سائر مراحل التعليم، وما دام أمرها كذلك فيجب العمل على مساعدة الإنسان على اكتشاف نفسه من خلال إخراج استعداداته النفسية من طور القوة الكامنة إلى القوة الحيّة الفاعلة، وطريق ذلك تذكيره بقوته من خلال ترسيخ فكرة التكريم الإلهى المربوط أساسًا بكرم الله تعالى على الإنسان.

أيها الإنسان، لقد خلقك الله -تعالى- حرًا بالتكليف فأكسبك قدرة وإرادة ورغبة، فإذا أردت الحفاظ على قوتك وإرادتك فيجب التحكم فى رغبتك.

إن أول مراحل التغيير النفسى العمل على أن تكون الرغبة على وفق مراد الخالق عز وجل، وإذا تحقق هذا المقصد سهل بعدها استعمال الإرادة فيما تشتهى النفس، كما يسهل فى ذات الوقت إعمال القدرة فى سبيل ما رسمته لنفسك حين حررت رغبتك من وأدها العملى.

إن أول ما يظهر البيئة الفكرية تحضير الشروط النفسية المتحكّمة فى الإنسان من الداخل سلبًا وإيجابًا، فإذا اكتشفها الإنسان وأعملها فيما جعلها خالقها له حققت مقاصدها أو قربت منها على الأقل؛ لهذا نعمل على تذكير الناس بقدراتهم الكامنة التى خُلقوا مُزَوَّدين بها لغرض وظيفى منسجم مع ماهية الإنسان ووظيفته الاجتماعية ورسالته الحضارية.

(ب) العناصر المعرفية من التربية الفكرية

لا يمكن أن تحقق العملية الفكرية نتائجها المنتظرة بسلامة الإعداد النفسى البحت، إذ يجب مع ذلك توفر شروط معرفية لا تقل أهمية عن العناصر المشار إليها أعلاه، فحتى وإن اكتشف المسلم قوته الكامنة من الناحية النفسية فهذا لا يغير من المسألة شيئًا، إلا إذا واكب هذا الإحساس موقف عملى لتحقيق المرغوب الموافق للإرادة، فهل يتحقق المرغوب بسلامة الشروط النفسية وحدها؟

والأصل أن يترجم اكتشـاف الاستعدادات النفسية فى التـربية الفكرية إلى موقف عملى يترجمه التزود بالمعرفة وتبليـغها ومناهج دراستها، من هذا المنطلق تنصب جهود الباحثـين والمفكرين على إشباع حـاجة الإنسان إلى المعرفـة الوظيفية، ولا يتأتـى تحقيق المراد من المعـارف المكتسـبة إلا إذا أحـاط المفكر بمسـالك تبليغـها وقـبل ذلك يجب أن يدخل تلك العلوم من أبوابها من خلال قراءتها المنهجية المنسجمة مع طبيعة ذلك العلم، وبهذا تشمل التربية الفكرية القضايا الآتية:

• **العناصر المتعلقة بموضوعات العلوم**

يجب على من يتصدى للدراسات الفكرية أن يحيط بمواضيع المناقشة تفوق إحاطة أهلها أو تساويها على الأقل؛ لأن المفكر الرسـالى يربى من خلال الحوار والتربية، وهذا يقتضى العلم والصبر على البحث والمناقشة، فـلا يجوز شرعًا وعقلاً الحكم على قضايا ومسـائل لا سابق علم لنا بها؛ إذ يعـد هذا العمل ملوثًا للبيئة الفكرية، ومانعًـا قويًا من الاستـفادة مما يقول فـضلاً عن كونه من أهم عناصـر الإقناع بنقيض المقصـود، فمن رام الإقناع بالحوار الفكرى فلا يتحدث فيما لا يعرف.

وهذا الصدد كثيـرًا ما يلوث البيئة الفكرية من خلال الخـوض بجهل فى قضايا فى منتهى التعقيد، فنجد أحدهم ينقد السياسة والتربية والتعليم والاجتماع مع علمنا بيقين بأنه لم يقـرأ كتـابًا واحدًا فـى الباب، بل نقـد أحدهم كـتـابًا لم يقرأ منه سطرًا واحـدًا، وقصـارى ما قـرأه نتف نقلت منه فى جـريدة أو سمع عنهـا تعليقًـا فى إذاعة أو تلـفاز، وهكذا يكون عدم المعرفـة بمواضيع العلوم ملوثا قويًا للبيئـة، ولتجاوز ذلك يجب بعث المطالعة الواعية فى المجتمع سواء كـانت فى وعاء مكتوب أو مسموع أو مرئى، المهم أن تشيع فى الأمة القراءة الهادفة، وبذلك نشرك كل أفراد الأمة فى عملية المقاومة الفكرية، وبالتالى يشـترك الجميع فى الذود عن مـيراثنا الثقافى والحـضارى، فيكون جمـيع أفراد الأمـة فى الصفـوف الأولى للمـقاومـة الفكرية التى هى أسـاس المقـاومة الاقـتصـادية والاجتماعية والحضارية.

• **العناصر المتعلقة بالمناهج**

فقد مناهج الدراسة الموضوعية ملوث للبيئة الفكرية، إذ يفضى إلى دخول ميادين العلوم من غير أبوابها، فيكون الحوار فى مثل هذا الجو أشبه بحوار الطرشان، من هذا المنطلق ينبغى أن يكون الحرص على التمكّن المنهجى بنفس درجة الحرص على تحصيل العلوم على الأقل.

وتحقيق هذا الهدف يوجب التفريق الدقيق بين ميادين العلوم من خلال التمييز بينها من جهة المناهج، فتنوع مواضيع العلوم يقتضى تنوعًا فى مناهج دراستها، ويحسن فى هذا السياق دراسة هذه المناهج من خلال مؤلفات أهلها لا بالواسطة كما هو شأن كثير من المتطفلين على عالم الفكر، وبهذا الصدد يعد التمرّس بالمناهج من أنفع طرق استثمار المعارف فى الحوار والمطارحات الفكرية، إذ يكسب الاشتغال به التعامل المنهجى مع العلوم ثم بطول التمرس يصبح ملكة لا يمكن الانفكاك منها حتى فى الأوضاع العادية.

• **العناصر المتعلقة بالأسلوب**

يقوم الأسلوب الفكرى الفاعل على الحوار كمبدأ لا يمكن تجاوزه أو التنازل عنه، فالحوار طريق تحصيل القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان[1]، وهو طريق إبطال الأقوال الفاسدة والأحكام الخاطئة ثم تصحيحها، ولتحقيق هذه المقاصد ينبغى السعى إلى توفير شروط موضوعية فى الحوار أسلوبًا وموضوعًا. وينبغى فى المتحاورين التحرر الكلى من الأحكام المسبقة والضغوط النفسية؛ لأنه بمثابة توفير الأجواء الضرورية للتفكير المستقل[2]. وتحقيق هذا الهدف يفرض توفر عناصر تكميلية منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) انظر: "الحوار فى القرآن"، محمد حسين فضل الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٤٤.

* مخاطبة الناس بما يفهمون، فقد نجد المفكر يتباهى بعدم قدرة الناس على فهمه، رغم أن هذا العرض دليل على عدم فهم المبلِّغ، وليس دليلاً على قصور فى المبلَّغ.

* الحوار بالتى هى أحسن﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن﴾؛ لأن المجادلة بالتى هى أخشن دليل الاستبداد الفكرى من جهة، وهو نوع من الضغط المفقد للحرية كشرط أساسى فى البحث الفكرى الجاد.

* المسألة الفكرية ليست من قبيل المسائل العقلية الصرف، بل يجتمع فيها العنصر المعرفى بالعناصر النفسية بحيث يصعب التفريق بينهما من الناحية العملية (وإن كنا نستطيع التمييز بينهما من الناحية النظرية)، من هذا المنطلق سيضطر الباحث الرسالى إلى التذكير وفق أسلوب القرآن الجامع بين إقناع العقل وإخضاع القلب، وبذلك تظهر البيئة الفكرية فى عناصرها الداخلية والخارجية من الملوثات.

خاتمة

حاول الباحث تقصى ملوثات البيئة الفكرية فى إطار التصور التوحيدى الشامل، فالتوحيد هو أساس التصورات الإسلامية، وهو قوتها الدافعة الفاعلة فى ضبط علاقة الإنسان بخالقه أولاً والكون ثانيًا، وعلاقته بأخيه الإنسان ثالثًا، وكان ذلك مطيّة لإثبات فاعلية التوحيد فى صلاح البيئة الفكرية، انتقلت بعدها إلى حصر الملوثات المتعلقة بالمعرفة ولخصتها فى الجهل والتقليد والرواسب الفكرية المتمثلة فى الاستخفاف المعرفى أو قبوله فى بعض الأحيان، وأحادية المنهج أحيانًا أخرى، كما تفسد البيئة بغياب النقد المقاصدى.

واقتضى عرض تلك الملوثات بيان المفسدات النفسية للبيئة الفكرية، فكان من أهمها التعلق بالدنيا، والاستبداد وقبوله وهيمنة روح التسلى، وفقدان عناصر التربية الفكرية فى جانبيها النفسى والمعرفى، وختمت المداخلة بالحديث عن الإعداد الفكرى لمواجهة الملوثات، وقسمتها على وفق ما سبق تقريره.. وكل ذلك من أجل تقديم تشخيص موضوعى لملوثات البيئة الفكرية، ثم تقرير الدواء حسب ما بلغه اجتهادنا، وانتهينا بعد البحث إلى النتائج الآتية:

الإنسان هو أهم عناصر البيئة الفكرية، ففساده الذاتى إفساد للبيئة الفكرية، ومن ثم يجب العمل على عدم تلوث بيئته الذاتية الأصلية، وإذا ما لطخت بمثل هذه الأمراض فيجب العمل على بعث تطعيمه الفكرى من جديد، وطريقة ترسيخ فاعلية التصور التوحيدى فى تطهير البيئة الفكرية، ثم العمل بعد ذلك على تحقيق الإعداد المعرفى الجاد، فيجابه الجهل بالعلم، والتقليد بالتأصيل، والتحرر من هيمنة المكبلات بالتذكير العلمى وبذلك نجاوز عقليتى الاستخفاف وقبوله، ومن ثم تطلق أحادية المنهج الدالة على قلة العلم والحيلة، ويحضر النقد المقاصدى، ولا يتأتى لتلك العناصر أن تؤتى أكلها ما لم يكن الإنسان مستعداً نفسيًا للتعلم والتبليغ

الهادفين، فتكون تلك الغائية من أهم عناصر الإعداد المحررة من الدنيا كغاية نهائية للوجـود الإنسانى، وإذا تحـرر الإنسان منهـا قام بـالواجب، ولا يمكنه الدوام على ذلك إلا إذا جمع إلى الـفكر الذكر، وطريقة اكـتسـاب عناصر التربيـة الفكرية فى شقيها النفسى والمعرفى بما يـوجب المراقبة والتكوين المستمرين فى العلوم والمناهج وأساليب عرضها.





الماء

أهميته والتحديات التى تواجهه ووسائل وطرق المحافظة عليه

(رؤية إسلامية حضارية)

بقلم: أ/ أحمد على سليمان(*)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه أفضل سلام وصلاة، وأشهد أن لا إله إلا الله، سبحانه، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد ورق الأشجار، وعدد حبات الرمال، وعدد ما أظلم عليه الليل وما أشرق عليه النهار، سبحان مىزل الأمطار.. وبعد:

فى ظل التزايد السكانى الرهيب للعالم الذى يقتضى زراعة مساحات كبيرة من الأراضى؛ لمجابهة احتياجات هذه الكثرة من السكان للغذاء، وفى ظل الارتفاع الكبير للمستوى المعيشى، وفى ظل كثرة الصناعات التى تعتمد بشكل كبير على استهلاك واستنزاف كميات كبيرة من المياه، وفى ظل حوادث ناقلات البترول المستمرة يومًا بعد الآخر، الأمر الذى يسبب العديد من الكوارث البيئية المتعلقة بتلوث المياه، والإضرار البالغ بها وبالأحياء التى تعيش فيها، والتى يعتمد الإنسان على معظمها فى الغذاء.. وفى ظل محدودية المياه الصالحة للاستعمال على الكرة الأرضية.. وفى ظل عدم انتشار "الوعى المائى" لدى الناس.. وفى ظل عدم تركيز العالم على إبراز خطورة هذه القضية التى لم تحظ باهتمام لائق على كافة الأصعدة.. فى هذه الظلال جميعها كان لابد من تحرك المؤسسات المعنية فى العالم الإسلامى لشرح أبعاد هذه القضية فى ضمير المسلم المعاصر قبل أن تتفاقم الأمور، ومن هنا تحركت رابطة الجامعات الإسلامية -باعتبارها بيت خبرة للجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية فى العالم الإسلامى، تمدها بما تحتاج إليه من أطروحات وأفكار وتوصيات فى القضايا التى تهم الأمة الإسلامية-، بالتعاون

(*) باحث برابطة الجامعات الإسلامية.

مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، وجامعة اليرموك، لما تتمتع به هذه الجامعة العتيدة من مكانة مرموقة بين جامعات الأمة الإسلامية، وذلك لعقد مؤتمر علمى كبير عن (الاجتهاد فى قضايا الصحة والبيئة والعمران)، يضم كوكبة من الأساتذة والخبراء المتخصصين فى هذه المجالات فى العالم الإسلامى(*)؛ لمناقشة التحديات والأخطار التى تواجه قضايا البيئة المختلفة والعمران، والعمل على إقامة حائط صد منيع لمواجهة هذه التحديات من خلال الرؤية الإسلامية الصحيحة.

ولـمّا كان الماء هو أساس الحياة والأحياء على وجه الأرض، ومصدرها، ووسيلة من وسائل استمرارها، فهو من أهم الموارد الضرورية للحياة، لا يستطيع أحد أن يعيش بدونه أكثر من أيام قليلة، حيث جعل الله منه كل شىء حى، ويؤلف ثلثى خلايا البدن، وتسعين بالمائة من سوائله، كما يسهم فى تنظيم حرارة الجسم...إلخ.

ومن هنا أردت الكتابة فى هذا الموضوع للتنبيه على أهمية الماء كعنصر يجب المحافظة عليه بخصائصه التى خلقها الله عليها، وشرح أبعاد أزمة ندرة المياه، وبيان أهم ملوثاتها للعمل على بلورة أطر نظرية تسهم فى الحد منها، وإيضاح طرق ووسائل وآليات المحافظة على الماء، وعرض الرؤية الإسلامية لترشيد استخدام الماء والمحافظة عليه.

(*) شرفت بالمشاركة فى هذا المؤتمر، الذى عُقد فى رحاب جامعة اليرموك بمدينة إربد الأردنية، وذلك فى الفترة من ٣-٥ يونيه ٢٠٠٣م، وقدمت هذا البحث فى المؤتمر.

المبحث الأول
أهميـة المـاء فى حياة الإنسان والكائنات الحية

إن المتتبع لحركة الإنسان منذ بدء الخليقة وحتى الآن، يجد أن الموارد المائية هى نقطة الالتقاء والتجمع؛ لما لها من أهمية قصوى فى حياة الكائنات الحية، من حيث كونها مصدرًا أساسيًا من مصادر استمرار الحياة، ومن حيث الوظائف التى تضطلع بها فى المجالات المختلفة للبيئة التى يعيش فيها الكائن الحى، مثل: الزراعة، والصناعة، والإسكان، والشرب، أضف إلى ذلك أن المياه هى أحد عوامل نشأة حضارة الإنسان وتطورها؛ فحضارات السومريين والبابليين، والآشوريين، والفينيقيين، والفراعنة، نشأت فى أحواض الأنهار، كذلك فإن مدن التاريخ الكبرى نشأت على ضفاف الأنهار، فبغداد، ودمشق، والقاهرة، ولندن، وباريس، وبرلين، بُنيت على ضفاف دجلة، والفرات، والنيل، وبردى، والتميس، والسين، والراين على التوالى.. وهكذا فى كل مدينة أو نقطة حضارية كان الماء هو المورد الأساسى لهذه التجمعات أو الحضارات، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء:٣٠].[١]

وهكذا نشأت الحياة على الأرض منذ بدء الخليقة، وستبقى - إلى أن يأتى أمر الله- مرتبطة بالماء، فالماء هو النعمة المهداة من الخالق العظيم -عز وجل- إلى مخلوقاته كى تستمر فى العيش إلى ما شاء الله.

وقد ورد ذكر الماء فى القرآن الكريم ثلاثًا وستين مرة[٢]؛ للتأكيد على أهميته كعنصر يجب الحفاظ على بقائه بخصائصه التى خلقه الله تعالى عليها، لاستمرار الحياة والأحياء التى تعتمد فى وجودها على بقائه بخصائصه، وإذا انعدم أو وهن انعكس هذا على الحياة والأحياء بالعدم والفناء[٣].

(١) المياه وأوراق اللعبة السياسية فى الشرق الأوسط، فتحى على حسين، الناشر: مكتبة مدبولى، سنة ١٩٩٧، ص٧.

(٢) "الإسلام والحفاظ على البيئة"، تأليف محمود محمد حبيب، محروس الشرقاوى، طبعة وزارة الأوقاف، سنة ١٩٩٩م، ص٦٧.

(٣) "المياه والحياة بين الوفرة والندرة"، د. أحمد محمد عمر، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ٦٦، سنة ٢٠٠٠م، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء:٣٠]. وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[النور:٤٥].

والله -تبارك وتعالى- يريد أن يلفت أنظارنا لهذا المصدر الحيوى المهم وهو الماء؛ حتى نحافظ فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج:٦٣].

لذلك فإننا نجد أن معظم المواضع التى ورد فيها ذكر الماء فى القرآن الكريم يكون الماء فيها مربوطًا بالأرض، وهى إما ميتة أو هامدة أو خاشعة، فينزل عليها الماء فتهتز وتربو، وتنبت كل ما هو مخضر بهيج، فكأن الماء هنا بمثابة الروح للجسد يحيا عندما تنفخ فيه الروح، ويموت عند مفارقتها له[(١)]، هذا بالإضافة إلى أن الله -تعالى- قد جعل منه السائل الوحيد للإرواء الآدمى والحيوانى والنباتى، حيث قضى الخالق العظيم أن يكون فيه سر الحياة على الأرض، فكوب الماء العذب للظمآن فى الصحراء لا يعدله ثمن لأن فيه بقاءه، كما أنه السائل الوحيد اللازم لإزابة العناصر الغذائية الداخلة إلى الأجسام الحية، واستخراج العناصر الغير مرغوب بقاءها فيها، وهو أفضل بيئة لحياة الكائنات الدقيقة، وانتشار الرطوبة فى الجو يزيد سرعة نموها، وقلتها يبطئ نموها.[(٢)]

والماء ضرورى كذلك لوضوء الإنسان واغتساله ونظافة بدنه، قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال:١١]. وهو ضرورى كذلك لنظافة مسكنه وحوائجه، كما لا غنى عنه للصناعة ولا للزراعة.[(٣)]

ولأهمية الماء البالغة، جعل الله -عز وجل- الناس شركاء فيه، وبالتالى لا يجوز لأحد أن يحتكر مصادره، أو يمنع من يحتاج إليه ، وقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى بقوله: «*المسلمون شركاء فى ثلاث: فى الكلأ والماء والنار*» (رواه أبو داود).

---

(١) الإسلام والحفاظ على البيئة، مرجع سابق، ص٦٢.

(٢) "الماء والحياة"، د. محمد أحمد عمر، مرجع سابق، ص٦٤.

(٣) "الماء والإصحاح فى الإسلام"، د. عبد الفتاح الحسينى الشيخ، بتصرف ط منظمة الصحة العالمية، سنة ١٩٨٨م، ضمن سلسلة "الهدى الصحى ٢".

أولاً: خصائص الماء

الماء سائل لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، وهو يتكون من اتحاد عنصرين هما: الهيروجين، والأكسجين، وتريكيبه الكيميائى كما هو معروف (يد٢أ)، أى ذرتان من الهيروجين وذرة من الأكسجين.(١)

وفيه تجرى جميع التفاعلات الحيوية فى البدن، ويسهم فى تنظيم حرارة الجسم بالتعرق.

فالجسم يطرح كل يوم ما بين لترين وثلاثة لترات من الماء، فى الكليتين (١٤٠٠جم)، والجلد (٨٥٠جم)، والرئتين (٨٠٠جم)، والأمعاء (بضعة جرامات)، ويعوضها بالماء الذى يتناوله الإنسان فى طعامه وشرابه.(٢)

وللماء حرارة نوعية، وبذلك يعد وسطًا ممتازًا لانتقال الطاقة الحرارية، ومن ثم فإنه يقوم بدور مهم ورئيسى فى ضبط حرارة الجسم بالنسبة للإنسان، وغيره من الأحياء.

والماء أيضًا مذيب لكثير من المواد والمركبات الكيميائية.(٣)

وعلى الرغم من التقدم العلمى والتقنى الذى تشهده البشرية إلا أنها لم تتوصل إلى بديل صناعى آخر يمكن أن يحل محل الماء.

ثانيًا: أنواع الماء

الماء إما يكون مالحًا وإما أن يكون عذبًا، وسنركز حديثنا عن المياه العذبة؛ نظرًا لأهميتها القصوى بالنسبة للإنسان.

يتنوع الماء العذب إلى ثلاثة أنواع هى: المياه الجوية، والمياه السطحية، والمياه الغائرة أو الجوفية.

---

(١) "الإسلام والحفاظ على البيئة"، مرجع سابق، ص٦٢.

(٢) "الماء والإصحاح فى الإسلام"، د. عبد الفتاح الشيخ، مرجع سابق، ص١ بتصرف.

(٣) الإسلام والحفاظ على البيئة"، مرجع سابق، ص٦٢.

فالمياه الجوية: هى كل ما أمطرته السماء من مطر وثلج وبرد، وهى من أنقى أنواع المياه فى طبيعتها؛ لأنها مياه مقطرة، ولكن هذه المياه قد تتلوث قليلاً أو كثيراً بما تجرفه أثناء نزولها من غبار الهواء وأقذاره، لاسيما فى بدء المطر أو فى الأمطار الأولى خاصة.

والمياه السطحية: هى المياه الموجودة على سطح الأرض، وتكون إما جارية كالأودية والأنهار، أو راكدة كالبحيرات. والمياه السطحية تجرف معها ما تقدر على حمله من الأجسام والمواد المختلفة من أنقاض نباتية وحيوانية وجراثيم وذرات ترابية ومعدنية، ولذلك تكون المياه السطحية ملوثة، ولكنها قد تصفو من تلقاء نفسها بأن يتسرب ما فى الماء من العوالق وغيرها فى القاع، لاسيما إذا جرى الماء جرياناً طويلاً، وتصفو كذلك بفعل الشمس والهواء اللذين يقتلان الجراثيم السطحية، وأيضاً بالفعل الحيوى لبعض الجراثيم التى تفكك المواد العضوية وتمنع نمو بعض الجراثيم الأخرى، كذلك بمرور ماء جديد، وكذلك بالحيوانات والنباتات المائية التى تمتص الأقذار وتتغذى بها كالبط والأوز والسمك والطحالب وغيرها.

أما المياه الجوفية: فهى مياه تغيض فى التربة التى يكون فيها ما يساعد على نفوذ المياه. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾[المؤمنون:١٨]، وهذه المياه تنفذ فى الأرض، وتسيل منحدرة حتى تصادف طبقة كتيمة لا تسمح بتخطيها والنفوذ منها، كطبقة صخرية أو غضارية، فتقف فوقها وتتراكم، وتشكل المياه الغائرة السطحية، وقد تجد هذه المياه منفذاً لها من تحت الوادى فتخرج فى شكل عين أو ينبوع، أو تجد لها منفذاً فيما تحت الوفاض الأول فتغور بعدها حتى تصل إلى طبقة كثيفة ثانية، وتشكل المياه الغائرة العميقة[1].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾[البقرة:٧٤].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[الزمر:٢١].

---

(١) "الماء والإصحاح فى الإسلام"، د. عبد الفتاح الشيخ، مرجع سابق، ص٢-٣ بتصرف.

والمياه الجوفية تخرج إما عن طريق الينابيع أو عن طريق الآبار، والينابيع على شكلين:

الأول: حقيقي: وهو مخرج المياه الغائرة العميقة، وتكون مياهه ثابتة المقدار والحرارة، ولا تؤثر فيها كثرة الأمطار ولا برودة سطح الماء أو سخونته وتكون نقية.

والثانى: غير حقيقي: وهو الينبوع الذى تؤثر فيه كثرة الأمطار، وتكون حرارته غير ثابتة، ولا يؤمن نقاء مياهه لقرب اتصالها بسطح الأرض.

والآبار نوعان:

١ - آبار عادية: يحتفرها الإنسان فى الأرض حتى تصل إلى طبقة المياه الغائرة، ثم يستخرج ماءها بأساليب مختلفة.

٢ - آبار ارتوازية: يخرج ماؤها من تلقاء نفسه لكونه فى باطن الأرض أعلى من فوهة البئر.[١]

وجدير بالذكر أن المياه الجوفية تشكل حوالى ٢٤٪ من إجمالى المياه العذبة، وما يقرب من ٦ , ٠٪ من حجم المياه الموجودة على الكرة الأرضية، كما تعتبر المياه الجوفية المورد الوحيد للمياه فى الكثير من بلدان العالم الصحراوية، والتى تفتقر إلى الأنهار.

---

(١) "الماء والإصحاح فى الإسلام"، المرجع سابق، ص٣-٤ بتصرف.

المبحث الثانى
أهم التحديات التى تواجه المياه فى القرن الحادى والعشرين

هناك العديد من التحديات التى تواجه المياه فى القرن الحادى والعشرين، الذى يصفه المحللون بأنه عصر مشكلات الطاقة والغذاء، بسبب اطراد التطور وزيادة السكان، لذلك فإن الأمن المائى فى هذا القرن سيكون عنصراً أساسيًا فى تحديد مسار الأمن السياسى لكثير من الدول، وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط، وذلك للحاجة الماسة للماء فى الشرب، والرى، وصناعة الغذاء، وتوليد الطاقة التحويلية والكيميائية التى تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه، وكذلك فإن تطوير نظم تكنولوجية جديدة للحصول على وقود من الفحم والخشب والصخر الزيتى، يحتاج إلى كميات هائلة من الماء، وهو الأمر الذى دفع البعض إلى القول بأن الأزمات المقبلة -سياسيًا وعسكريًا- فى منطقة الشرق الأوسط وغيرها ستكون بسبب الماء، وأن المنطقة مقبلة على مرحلة من الصرعات والحروب بشأن المياه، وخاصة مع دول الجوار الإقليمى للوطن العربى، التى تمتلك منابع الأنهار الكبرى، أو التى تتحكم فى مسارها.[1]

وسنركز على أهم التحديات التى تواجه المياه المتمثلة فى ندرتها وتناقصها، واتجاه الدول الغنية إلى عولمة الماء العذب، فضلاً عن التلوث الشديد الذى تعانى منه المياه فى العالم يومًا بعد يوم.

أولاً: ندرة المياه وتناقصها

فعلى الرغم من أن المياه تغطى ٧١٪ من الكرة الأرضية، و٢٩٪ يمثل اليابس، إلا أن الإنسان لا يستخدم من هذه الكمية الكبيرة جداً من المياه على هذا الكون إلا ١٪؛ لأن ٩٧٪ من كمية المياه على هذا الكوكب مياهًا مالحة، و٢٪ المتبقية عبارة عن مياه محبوسة فى شكل ثلوج على القطبين وعلى قمم الجبال.

وثمة مشكلات تواجه ١٪ والتى تتمثل فى المياه العذبة التى يستخدمها الإنسان والحيوان والنبات، تتمثل فى تناقصها وانخفاضها الأمر الذى يؤدى ببعض المناطق إلى التصحر، والمشكلة أكبر من هذا بكثير، فقد ثبت أن نصف أنهار العالم تقريبًا تعانى تلوثًا شديداً وانخفاضًا كبيراً فى مستوى مياهها، كذلك ثبت أن بعض بلدان الشرق الأوسط

(١) المياه وأوراق اللعبة السياسية فى الشرق الأوسط، فتحى على حسين، مرجع سابق، ص٧.

ومناطق مختلفة من الهند والصين وآسيا الغربية والاتحاد السوفيتي سابقًا تعاني من تناقص مستوى المياه الجوفية بمعدلات عالية، وقد أكدت بعض الدراسات العلمية أنه بحلول عام ٢٠٢٥م سوف يعاني فردان من كل ثلاثة من قصور شديد في المياه.[١]

وما ينبغي الإشارة إليه أن قضية ندرة المياه لا تتعارض مع ما أوجبه الله -عز وجل- على نفسه بأن تكفَّل لكل كائن حي برزقه من المأكل والمشرب...إلخ، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:٦]؛ لأنه من عظيم نعم الله على عباده أن ينزل الماء من السماء بقدر معلوم، بحيث يستجيب لحاجات البشر ومطالبهم، وإن هم أحسنوا الإفادة منه وحالوا دون أن يُلَوَّث أو يُهْدَر أو يصب في مياه البحار والمحيطات...إلخ. أما إذا لم يستجب الإنسان لدعوة الله تعاليمه، ولم يحافظ على الماء وصلاحيته وحمايته من التلوث، فإنه حينئذ يكون قد كفر بنعمة الله، وتصرف تصرف غير الشاكرين لأنعُمه، ومن ثم يكون نزول الماءَ بقدر لا يتحقق الغرض منه؛ لأن الإنسان قد تعدى وظلم[٢].

ثانياً: تلوث المياه

تعد مشكلة تلوث المياه من أهم المشكلات العالمية التي تواجه معظم بلدان العالم، وتؤرق المسئولين وعامة الناس، حتى يكاد الإنسان لا يهنأ بشربة ماء نقية[٣]، وأصبحنا الآن نأكل اللقمة المغموسة في السم دون أن ندري، لدرجة أننا إذا شربنا شربة ماء نقية خالية من التلوث نشعر بأن طعمها غير مستساغ..!![٤].

وتلوث البيئة المائية وفسادها يتسبب فيه عوامل أهمها: التقدم التكنولوجي والصناعي الهائل الذي شهده هذا العصر، والذي أدى إلى تغير ملحوظ في درجة حرارة المياه وكثافته الضوئية ودرجة ملوحته ومحتواه الأوكسجيني والنيتروجيني، وهذا ما جعل الماء مصدراً حقيقيًا أو محتملا للمضايقة والضرر لمختلف الكائنات الحية في البيئة، كما أن الماء العذب على ندرته وأهميته لم يسلم من ذلك التلوث.[٥]

---

(١) "إشكالية البيئة والتنمية في العالم الإسلامي"، رؤية اجتماعية، أ.د نبيل السمالوطي، بحث مقدم إلى مؤتمر "الاجتهاد في قضايا الصحة والبيئة والعمران، الأردن ٣-٥ يونية ٢٠٠٣م، ص٣ بتصرف.

(٢) "مستقبل الأمن المائي العربي في عصر العولمة": رؤية إسلامية حضارية، أحمد على سليمان، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سلسلة قضايا إسلامية، العدد ١١٦ شوال ١٤٢٥هـ نوفمبر ٢٠٠٤م، ص٢٥ .

(٣) "وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء"، أحمد على سليمان، بحث منشور في كتاب "الدعوة والإعلام وقضايا البيئة"، حلقة نقاشية نظمتها وزارة الأوقاف المصرية سنة ٢٠٠٠ .

(٤) نحو بيئة أفضل" للدكتور زين العابدين متولي، سلسلة "قضايا إسلامية رقم ٤٣"، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٨، ص١٠٣-١٠٧ بتصرف.

(٥) مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة"، أ.د ضياء الدين محمد عطية، ط رابطة الجامعات الإسلامية، ب.ت، ص٩٣ بتصرف.

ويعرف تلوث الماء: بأنه إحداث تلف أو إفساد المياه، مما يؤدى إلى وقوع خلل فى نظامها الإيكولوجى بصورة أو بأخرى، مما يقلل من قدرتها على أداء دورها الطبيعى، بل إنها تصبح ضارة عند استخدامها أو تفقد الكثير من قيمتها الاقتصادية وبصفة خاصة مواردها السمكية وغيرها من الأحياء المائية.(١)

وثمة تعريف آخر يعرف تلوث الماء بأنه: تدنيس مجارى الماء من أنهار وبحار ومحيطات وأمطار وآبار جوفية، مما يجعل هذه المياه غير صالحة للإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأحياء التى تعيش فى المسطحات المائية.(٢)

ويقسم الباحثون تلوث الماء إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى:

(أ) **التلوث الكيميائى** بأن يصبح فى الماء مواد كيميائية سامة كمركبات الرصاص والزئبق وغيرها.

(ب) **التلوث البيولوجى** بوجود طبقات وميكروبات تؤثر فى سلامة استخدامها.(٣)

(جـ) **التلوث الفيزيائى** ويكون عن طريق التلوث الحرارى وذلك بأن ترتفع درجة حرارة مياه النهر أو البحيرة عن درجتها الطبيعية الملائمة للأحياء التى تعيش فيها أو عن طريق التلوث الإشعاعى.

ونعرض لكل على حده ثم نذكر طرق الوقاية والعلاج.

(أ) الملوثات الكيميائية للماء

* يتلوث الماء بالملوثات الكيميائية عن طريق:

١- الفلزات الثقيلة:

مثل: الزئبق، الرصاص، الزنك، الكادميوم، الزرنيخ، النيكل. ويتلوث الماء عن

(١) "الإسلام والبيئة" رؤية إسلامية حضارية للدكتور بركات محمد مراد، ط دار القاهرة، ص٨٦.

(٢) "التلوث البيئى"، رؤية من خلال الأحاديث النبوية للدكتور محمد بن عبدالرحمن العمير، بحث مقدم للندوة الدولية حول الشريعة الإسلامية وقضايا المجتمع المعاصر بالرباط، المغرب ٢٠٠١م، ص١٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٠ بتصرف.

طريق إلقاء هذه الفلزات الثقيلة فى الماء ضمن مخلفات بعض المصانع، حيث لوحظ انتشار حوادث تلوث الماء به فى أماكن كثيرة من العالم، مما ترتب عليه العديد من الأضرار للكائنات الحية.[1]

والخطورة فى هذه المركبات السامة تكمن فى انتقالها إلى الإنسان عن طريق السلاسل الغذائية، ولعل أخطر هذه الملوثات هى مركبات الزئبق، والتى يؤدى وجودها فى جسم الإنسان ولو بتركيزات قليلة إلى ارتخاء تدريجى فى العضلات، وفقد البصر، وتلف فى المخ وأعضاء الجسم الأخرى، وقد تتبعه حالات من النسيان والغيبوبة أو الموت، كما أنها تحدث تغيرات فى الجينات (الموزنات) فى خلايا الإنسان، وقد تؤثر على الجنين فى رحم أمه فيولد الطفل وهو مصاب بتخلف عقلى.[2]

ونظراً للأضرار البالغة التى تلحق بالجسم نتيجة التركيزات الضئيلة للزئبق، فإن منظمة الصحة العالمية تؤكد على ضرورة عدم تجاوز كمية الزئبق التى تدخل الجسم عن ٣,٠٪ مجم أسبوعيًا.[3]

٢- اللافلزات:

مثل: الكلور، الكبريت، الفلور، البروم. وتتسرب إلى الماء ضمن مياه الصرف الصناعى التى تحتوى على مركبات ثنائى الفينيل عديد الكلور Polychlorinated Biphenyls المعروف بـ(P.C.B)، ويستخدم فى صناعة المحولات والمكثفات ولتلوين اللدائن. وتؤثر بعض العناصر اللافلزية كالكلور أو الكبريت تأثيراً بالغًا فى الكائنات الحية، حيث يؤدى تلوث الماء بها إلى حدوث تسمم الإنسان والحيوان وهلاك وموت النبات.[4]

(١) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة"، أ.د. ضياء الدين محمد عطية، ص٩٤ بتصرف.
(٢) "الإسلام والبيئة" رؤية إسلامية حضارية للدكتور بركات محمد مراد، ط دار القاهرة، ص٦٨.
(٣) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص٩٤ بتصرف.
(٤) المرجع السابق نفسه، ص٩٥ بتصرف

٣- المنظفات الصناعية:

ومن أهم الملوثات الكيميائية للماء: المنظفات الصناعية التى يستخدمها الإنسان فى حياته اليومية، وهذه المنظفات لها أضرار كثيرة على الحيوانات المائية إذا اختلطت بمياه الأنهار أو البحيرات أو المحيطات. وأخطر هذه الأضرار يكون نتيجة لتكوينها طبقة رغوة تعزل الماء عن الهواء الجوى، مما يترتب عليه نقص فى المحتوى الأكسجينى للماء، وموت العديد من الأسماك والكائنات التى تعيش فى الماء، كما يتسبب الفوسفور المضاف إلى المنظفات الصناعية -لزيادة قدرتها على التنظيف- يتسبب فى تعجيل حدوث الإثراء أو التشبع الغذائى لماء النهر، فتتزايد معدلات تكاثر البكتيريا والطحالب ويتحول المجرى المائى أو البحيرة إلى مستنقع[(١)]

٤- المخلفات النفطية:

ولعل من أخطر الملوثات الكيميائية للمياه: الزيت المتسرب من عملية التنقيب عن البترول تحت سطح مياه البحر، وكذلك حوادث الناقلات الضخمة، وكذلك من ملحقات السفن التى تفرغ حمولتها ومياهها الملوثة فى البحار أو المحيطات، وهذ الملوثات تسبب أضرارًا بالغة بالماء والهواء عى حد سواء.[(٢)]

٥- الأسمدة الزراعية:

لا شك أن الإسراف فى استخدام المخصبات الزراعية يؤدى فى النهاية إلى تلوث ماء النهر عن طريق مياه الصرف الزراعى التى تصل النهر بطريق أو بآخر، ووجه الضر فى هذه الأسمدة أنها فى الغالب تتكون من الفوسفات أو مركبات النيترات التى تتحول فيما بعد إلى مواد سامة تلحق أضرارًا بالغة بالإنسان مثل: الأورام الخبيثة، والسرطان، ورفع ضغط الدم... إلخ؛ لذلك قام العلماء بمحاولة لتنقية مياه الشرب من هذه المركبات عن طريق الاستعانة ببعض أنواع من البكتيريا التى تحول أملاح النيترات إلى نيتروجين.[(٣)]

---

(١) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص٩٥-٩٦ بتصرف.
(٢) "وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء"، أحمد على سليمان، مرجع سابق، ص١٠٣.
(٣) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص٩٨ بتصرف.

٦- المبيدت الحشرية والعشبية:

حذرت كل الأبحاث من مخاطر المبيدات الحشرية المتعددة؛ لأنها تتسرب إلى مياه الصرف أو عن طريق غسل معدات الرش فى مياه الترع والقنوات فتلوثها، كما حذرت من المبيدات العشبية وهى مركبات شديدة السمية فى إبادة الإعشاب، وتسبب مخاطر بالغة للإنسان والحيوان على حد سواء.

٧- المخلفات الآدمية (النفايات العضوية): تعد النفايات الآدمية والفضلات وروث الأنعام وبقايا الحيوانات والنباتات التى تلقى فى الماء العذب من أخطر الملوثات العضوية له، حيث تجمع بين طياتها موادًا ضارة تلوث الماء وتجعله غير صالح للاستعمال أو لحياة العديد من الكائنات الحية، ونظرًا لخطورة هذا النوع من الملوثات، فتوصى الأبحاث الحديثة بضرورة تخفيض إلقاء هذه المخلفات فى المياه الصالحة إلى أقصى حى ممكن، مع مراعاة معالجة المياه الملوثة قبل إلقائها فى المياه[١]، أو صرفها فى البحار والمحيطات بعيداً عن الشواطئ بواسطة أنابيت تمتد لمسافات كبيرة تصل إلى عشرة كيلومترات على الأقل وبعمق لا يقل عن خمسين مترًا تحت سطح الماء، وذلك لإتاحة فرصة كافية لتحلل النفايات بعيدًا عن الشواطئ[٢].

(ب) الملوثات البيولوجية للماء

يتلوث الماء عن طريق العديد من الملوثات البيولوجية وأهمها:

١- الميكروبات والطفيليات:

عندما يتلوث الماء الصالح للشرب بإلقاء مخلفات الصرف الصحى فيه، يكون الماء حينئذ مرتعًا لنمو الميكروبات (فيروسات، بكتيريا، بروتوزوا) وهذه الميكروبات تسبب العديدَ من الأمراض الوبائية الخطيرة كالكوليرا، والتيفود، والزمار الأميبى.

(١) "وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء"، أحمد على سليمان، مرجع سابق، ص١٠٣.
(٢) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص٩٩-١٠٠ بتصرف.

وتكمن خطورة مخلفات الصرف الصحى فى احتوائها على كميات ليست بقليلة من المخلفات البرازية التى تحتوى على أعداد ضخمة من بكتريا القولون (E.coli)، والتى تضم بعض الأجناس لعائلة الفيروس المسبب لمرض شلل الأطفال، ونظرًا لتزايد احتمالية إصابة الإطفال بمرض شلل الأطفال نتيجة لزيادة عدد وحدات بكتريا القولون فى المياه المستعملة للشرب، تقرر منظمة الصحة العالمية أن الماء الصالح للشرب يجب ألا يزيد عن وحدات بكتيريا القولون به عن عشر وحدت فى اللتر الواحد.

كما يتلوث الماء بالعديد من الطفيليات الحيوانية التى تنتمى إلى فصائل متنوعة وتسبب أضرارًا بالغة بالإنسان والحيوان.

٢- النباتات المائية

وهذه النباتات إما أن تكون مغمورة تحت سطح الماء، وإما أن تكون طافية فوق سطحه، والكثير منها يسبب تلوث الماء نتيجة لتحللها أو استهلاكها لكميات كبيرة من الأكسجين العذب فى الماء، مما يؤثر على حياة الكائنات الحية داخل الماء.

والبعض الآخر من هذه النباتات يستنزف كميات كبيرة جدًا من المياه ويلوث بعضها، ومن أهم هذه النباتات ورد النيل، الذى يساعد على نمو وتكاثر بعض الحشرات الضارة، ويعوق عمليات الملاحة النهرية وتوليد الكهرباء، ويقلل فرص الاستفادة من المياه فى الأغراض المنزلية، كما تتسبب المبيدات المستخدمة لمقاومته فى إحداث أضرار بيئية عديدة.

وعلى الصعيد المصرى فقد بذلت الحكومة المصرية جهودًا مضنية فى فترة الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن العشرين لإزالة ورد النيل، ونجحت نجاحًا ملحوظًا فى القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة.

(جـ) الملوثات الفيزيائية للماء

يتلوث الماء فيزيائيًا عن طريق ما يلى:

١- ملوثات إشعاعية

يحذر العلماء من أخطار التلوث الإشعاعى للمـاء، الناتج عن الاستخدام فى تبريد

الأجهزة التى تحوى المواد المشعة، كما تسهم الأمطار الملوثة بالغبار الذرى، والتى تتساقط على المسطحات المائية فى زيادة خطورة التلوث الإشعاعى للماء.

وتكمن خطورة هذا النوع من أنواع الملوثات فى إحداث الكثير من الأضرار للكائنات الحية، وذلك نتيجة انتقال تلك الملوثات الإشعاعية من الماء إلى الإنسان عبر سلاسل الغذاء، وتتازيد تدريجيًا خطورة تلك الملوثات مهما انخفضت الكميات الملوثة منها للماء، وذلك نتيجة تجمعها وتركيزها داخل أجسام الكائنات الحية على طول السلسلة الغذائية، وهذا ما يعرف بظاهرة التراكم البيولوجى (Bioaccumulation).

٢- ملوثات حرارية

تنشأ ظاهرة التلوث الحرارى للماء عندما يوجد فرق ملحوظ فى درجة حرارته بين عمقين مختلفين أو بين منطقة وأخرى، وهذا الاختلاف الحرارى يعزى إلى صرف الماء المستخدم لتبريد المحركات الميكانيكية بالمنشآت الصناعية ومحطات توليد الطاقة فى المسطحات المائية كالبحار والأنهار، مما ينشأ عنه ارتفاع ملحوظ فى متوسط درجة حرارة المجرى المائى فى منطقة عن منطقة أخرى، ويترتب على هذا الكثير من الأضرار أهمها:

* نقص فى المحتوى الأكسجينى للماء.
* تنشيط التفاعلات الكيميائية داخل الخلايا الحية.
* تهجر الأسماك المجرى المائى إذا ما ارتفع متوسط درجة حرارته ارتفاعًا ملحوظًا
* موت وتحلل العديد من الكائنات الحية نتيجة للتغير الحرارى الطارئ ببيئتها.
* تزايد صعوبة عمليات تجهيز مياه الشرب من المجارى الملوثة حراريًا.
* تنقرض بعض أنواع النباتات، مما ينشأ عنه اختلال فى توازن النظام البيئى بالمجرى.

ونظرًا لصعوبة الاستغناء عن استخدام الماء فى عمليات التبريد الصناعى، وحرصًا على تجنب العديد من الأضرار الناتجة عن التلوث الحرارى للماء، فقد أكد العلماء على ضرورة مراعاة ما يلى:

* خفض درجة حرارة الماء المستعمل فى عمليات التبريد الصناعى، وذلك بإنشاء أبراج ضخمة لتبريد المياه قبل إلقائها فى المجارى المائية.

* استخدام المياه العميقة فى عمليات التبريد لانخفاض درجة حرارتها عن درجة حرارة المياه السطحية.. وهكذا يمكن تحقيق التباين الحرارى بين درجتى حرارة المياه المستعملة والمياه السطحية.

وقد نجح العلماء فى استغلال تلك المياه الملوثة حراريًا، وخاصة التى تم سحبها من المياه العميقة فى أغراض نافعة، وذلك بإلقائها فى أحواض المزارع السمكية حيث يؤدى توافر الغذاء بها، والمدى الحرارى الملائم، إلى نشاط ملحوظ لمعدلات نمو الذريعة السمكية.(٣٧)

(٣) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة، مرجع سابق، ص١٠٢-١٠٤ بتصرف.

المبحث الثالث
وسائل وطرق وآليات المحافظة على الماء

وبعد أن عرضنا للتحديات التى تواجه الماء، والأخطار التى تحدق بكل الكائنات الحية التى تعيش على الكرة الأرضية نتيجة ندرة المياه الصالحة للاستعمال وتلوثها، فأصبح لزامًا على كل المؤسسات البحثية والجامعات ورجال الدين، ووسائل الإعلام أن تدق أجراس الخطر بقوة؛ لأن القضية تتعلق بنقطة الماء التى تمثل حياتنا وحياة زرعنا وضرعنا، وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على المياه الصالحة، وترشيد استخدامها، والكف الفعلى والفورى عن تلويثها، ومراعاة قدسية الماء وإلا تعرضنا جميعًا لسوء العاقبة -والعياذ بالله-!

فعلى الرغم من أن حكمة الله -عز وجل- اقتضت أن يخلق الماء ويجعل معه ما يحفظه، حيث حفظ مياه البحار والمحيطات بإضافة الأملاح لها التى تعد بمثابة المادة الحافظة لها من الفساد[1]. كما حفظ الماء العذب أيضًا من الفساد بأن جعله جاريًا وهذه الحركة لا تنقطع سواء كان معلقًا فى السحاب، أو صاعدًا من الأرض إلى السماء فى صورة بخار، أو نازلا ثانية من السماء إلى الأرض فى صورة أمطار، أو منسابًا على سطح الأرض فى صورة أنهار، أو عندما يصل جريانه إلى الأعماق ليسلك الطريق المنظم فى جوف الأرض، كل هذه الحركة تمنع فساده وتجدد طهارته، ولا شك أن هذا إعجاز عظيم فى الكون[2]، إلا أن الإنسان يأتى ليهدر بعض الماء ويفسد البعض الآخر مع أنه سر الحياة..!

ومن هنا يجب أن تتضافر كافة جهود المؤسسات العلمية والبحثية والتشريعية والدينية والإعلامية والتنفيذية للعمل على مواجهة ظاهرة ندرة المياه وتلوثها، وذلك على النحو التالى:

---
(١) الماء والحياة بين الوفرة والندرة، أحمد محمد عمر، ص٢٥ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢-٢٤ بتصرف.

١ - الاعتراف بالشح المتزايد للمياه عالميًا وإقليميًا، وتوعية الجماهير بهذا الخطر حتى يكون الإنسان هو العنصر الفاصل فى تقرير مستقبل استخدام المياه وليس العكس.

٢- عقد ندوات ومؤتمرات بصفة دورية لدراسة تحديات المياه وطرح الرؤى والأفكار لبلورة أطر نظرية وتقديمها للمسئولين للسير فى هداها لمعالجة هذه المشكلة تطبيقيًا.

٣- سن القوانين المناسبة التى تجرّم تلويث المياه، والتى تعمل على المحافظة عليها، وتطوير أدوات المؤسسات المعنية لاستثمار الإمكانات المتاحة من المياه على أفضل وجه.

٤- تكثيف الحملة الإعلامية فى وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وعبر الإنترنت؛ لتوعية الناس بخطورة ندرة المياه وتلويثها، وتدريس مقررات دراسية للمحافظة على البيئة وتوعية الأجيال بأهمية الماء، وبث الوعى المائى الذى يضع استخدام الناس للماء فى إطار الرشد الحضارى.

٥- مشاركة رجال الدين فى توعية الجماهير بخطورة هذه المشكلة وحثهم على الالتزام بتعاليم الدين التى تدعو إلى ترشيد استهلاك الماء وعدم تلويثه.

٦- معالجة مياه الصرف الصحى قبل تصريفها فى المسطحات المائية؛ لأن تصريف هذه المياه الصالحة لا يؤدى إلى تلوث المياه بالطفيليات والروائح الكريهة فحسب، بل يتسبب فى استهلاك الأكسجين المذاب فى الماء، وهو من أهم العوامل التى تساعد على الحفاظ على جودة المياه، ونقصانه يؤثر فى حياة الكائنات التى تعيش فيه.

ولذلك أخذت كثير من المجتمعات الصناعية تعالج مياه الصرف الصحى مرة ثانية بأساليب علمية حديثة وإعادة استخدامها للاستفادة منها، لاسيما بعد أن أصبحت ندرة الماء العذب تشكل مشكلة جديدة من المشاكل التى تواجه البشرية الآن.(١)

٧- إلزام السفن المحملة بالمواد النفطية باستعمال تركيبات خاصة للحيلولة دون تسرب الزيت إلى مياه البحار؛ لأن مشكلة تسرب الزيت إلى المسطحات المائية معقدة جدًا،

(١) "الإسلام والبيئة" رؤية إسلامية حضارية للدكتور بركات محمد مراد، مرجع سابق، ص٧٢.

ونظرًا للتزايد المستمر فى معدلات تلوث البحار والمحيطات بتلك المخلفات النفطية فقد حاول العلماء التغلب على هذه المشكلة باتباع أساليب عديدة، إلا أنها لم تؤت الثمار المطلوبة، بل خلّفت آثارًا سيئة، ومن أهم الأساليب فى معالجة المياه الملوثة بالمخلفات النفطية ما يلى:

* استحداث بعض أنواع من البكتيريا التى لها القدرة على تحليل جزيئات الهيدروكربونات صعبة الذوبان، ولها أيضًا قدرة على المعيشة فى ماء البحر، وذلك عن طريق نقل بعض الجينات من بكتيريا التربة إلى البرنامج الوراثى لبعض البكتيريا التى تعيش فى ماء البحر، ونجحت عملية النقل بالفعل إلا أن معدل تحلل المخلفات بفعل هذا النوع المستحدث كان بطيئًا جدًا.

* إشعال طبقة الزيت التى تطفو على السطح، إلا أن هذا الأسلوب لم يكن فعّالاً فى تخليص الماء من الملوثات البعيدة عن السطح، بالإضافة إلى ما ترتب على ذلك من مشكلات تلوث الهواء بالعديد من الغازات والأبخرة الناتجة من احتراق تلك الملوثات.

* استخدام المنظفات الصناعية التى تُكَوِّن مع زيت البترول مستحلبًا ينتشر فى الماء، وبذلك تختفى بقعة الزيت بعد فترة قصيرة، إلا أن هذا الأسلوب يحتاج إلى كميات كبيرة من المنظفات التى تعد هى الأخرى من الملوثات، بالإضافة إلى أن المستحلب المتكون يحتاج إلى فترة طويلة كى يتحلل.

* استخدام بعض المذيبات الكيميائية، إلا أن تلك المذيبات كان لها آثارًا سامة لمعظم الأحياء البحرية.

* استخدام حواجز طافية لحصر زيت البترول وإغراقه بإضافة مساحيق خاصة أو رمال ناعمة تؤدى إلى رسوبه فى القاع، إلا أن هذا الأسلوب كان له تأثير بالغ الضرر على الكائنات البحرية التى تعيش فى الأعماق[1] إذن فالوقاية خير من العلاج.

٨- تحديد مواقع بعيدة جداً عن الشواطئ فى أعماق المحيطات للتجارب النووية.

٩- اختيار المكان المناسب لأخذ مياه الشرب بعيداً عن مصادر التلوث، وتمرير هذه المياه فى أحواض للترسيب، وإضافة نسب معينة من الكلور والشبّة (كبريتات الألومنيوم) فى الماء والتى تلتصق بها المواد العالقة والبكتيريا فى فترة قصيرة، واستعمال الأشعة فوق البنفسجية لتطهير المياه.

١٠- ترشيد الاستهلاك وعدم التبذير فى استعمال الماء، وهذا العنصر يرتكز على مطلبين هما:

(أ) ترشيد الاستهلاك الشخصى للمياه: من خلال عدم الإفراط وتجاوز الحد اللائق فى النظافة، حتى ولو كان ذلك فى الوضوء أو الطهارة من الحدث الأكبر، فقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن أعرابيًا جاء إلى النبى ﷺ يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثًا ثلاثًا، قال هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم»[٢].

(ب) متعلق بترشيد المياه المستخدمة فى الزراعة عن طريق:

* معالجة مياه الصرف الزراعى بالتقنيات الحديثة وإعادة استخدامها فى الزراعة.

* تقليل الفواقد المائية باستخدام أساليب الرى الحديثة والتوسع فيها.

* تطوير وتحديث طرق مقاومة الحشائش بالمجارى المائية لرفع كفاءة النقل وتقليل فواقد البخر[٣].

* إعادة رسم الخريطة الزراعية وتنظيم زراعة المحاصيل التى تعتمد على كميات كبيرة من الماء مثل الأرز والقصب.

---

(١) "مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة"، د. ضياء الدين محمد عطية، مرجع سابق، ص١٠١-١٠٢ بتصرف.

(٢) مسند الإمام أحمد، كتاب "مسند المكثرين من الصحابة"، باب عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٣) "الماء والحياة"، د. أحمد محمد عمر، ص٨٨ بتصرف.

* استنباط أنواع من المحاصيل الزراعية تعطى إنتاجية عالية وتستهلك كميات قليلة من الماء، وتعميم هذه الفكرة.

١١- استخدام الأقمار الصناعية وأجهزة الاستشعار عن بعد للكشف عن المياه الجوفية. وثمة دراسات حديثة تؤكد أن منطقة الوطن العربى فى أقاليمها المختلفة تذخر بمخزن كبير من المياه الجوفية، تتجمع فى عدة أحواض جوفية، ومن ثم فلابد من تنمية مصادر المياه الجوفية، واستغلالها للاستخدامات المختلفة بأقل تكلفة ممكنة إلى جانب تجنب الآثار البيئية الضارة؛ لأن ترك المياه الجوفية بدون استخدام يؤدى إلى مشاكل صرف، واستخدام المياه الجوفية بصورة زائدة أيضًا يؤدى إلى قلتها، فمن الممكن أن تقوم الخزانات الجوفية بدور هام من حيث استخدامها كأوعية موسمية لتخزين المياه على مدار العام.(١)

١٢- الدعوة إلى الاتجاه إلى البحر، ففى ظل محدودية المياه وتلوثها، وفى ظل مشكلة التصحر التى تؤرق العديد من بلدان العالم، وفى ظل تزايد عدد سكان العالم الذى يزيد بمعدل ٧٥ مليون نسمة سنويًا، وفى ظل افتقار أكثر من ٤٦٠ مليونًا من البشر فى الدول النامية إلى الوجبات الكافية والملائمة، فى هذه الظلال جميعها نعتقد أن الرقعة الزراعية ومساحات المراعى فى العالم لن تستطيع -مهما توافرت إزاءها إمكانات الاستغلال الأمثل- أن تفى بحاجات هذا الازدحام الرهيب من الأفواه المطالبة بالغذاء، والمتزايدة كالطوفان عامًا بعد عام، وليس أمامنا إلا البحر نأخذ منه، فرياح الأمل تهب من البحار، فالبحر مخزن عظيم لأنواع الطعام المختلفة، فبالرغم من أن الدراسات الحديثة أثبتت أن البحر فى حالته الطبيعية ينتج فى كل جزئية منه بقدر ما تنتجه اليابسة، إلا أن الإنسان لا يأخذ من مصادر المياه المالحة سوى واحد

(١) "الآثار البيئية المترتبة على الاستغلال غير الأمثل للمياه الجوفية فى المنطقة من العريش إلى الشيخ زويد ورفح بمحافظة شمال سيناء"، د. عطية عبدالوهاب السيسى، منشور ضمن البحوث البيئية لجامعة قناة السويس، الجزء الأول، يناير ٢٠٠١م، ص٨٨ بتصرف.

فى المائة تقريبًا من حاجاته الغذائية، فلم لا نحاول بكل طاقاتنا وإمكاناتنا أن نتجه إلى البحر، ونعامله بالأساليب الحديثة كمزرعة عظيمة تعطى الأمل الكبير فى انفراج أزمة المياه، وتتسعد ملايين الجوعى والمحرومين فى العالم[1].

إن الخالق العظيم يرشدنا إلى ما وهبه وحباه لنا من النعم الجليلة والخيرات العظيمة فى البحار. فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:١٤].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن المياه المالحة على هذا الكوكب -والتى تمثل ٩٧٪ من إجمالى كمية المياه على الأرض- تعد مخزون استراتيجى للمياه، بها نسبة من الملح مقدارها ٥ ,٣٪، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا الملح ليس نقمة بل هو نعمة من الله -عز وجل-؛ لأنه مادة حافظة تمنع فساد هذه الكميات الضخمة من المياه[2]، ومن هنا ندعو إلى الاستفادة من هذه الثروة الكبيرة من المياه عن طريق التوسع فى برامج تحلية هذه المياه عن طريق:

* الاستفادة من دول جنوب شرق آسيا واليابان وغيرها من الدول الرائدة فى هذا المجال.
* استخدام أحدث الأجهزة والتقنيات فى هذه العملية.
* استنباط واستحداث أصناف من الزراعات تعتمد على هذه المياه المحلاة.
* توجيه الأبحاث والدراسات للعناية بهذه الأطروحات.

(١) "البحر كنوز وأسرار"، ص٦٢.
(٢) "الماء والحياة"، د. أحمد محمد عمر، مرجع سابق، ص٣٠ بتصرف.

المبحث الرابع
هدى الإسلام فى المحافظة على الماء

أولى الإسلام الماء اهتمامًا كبيرًا لِم له من أهمية بالغة فى حياة الكائنات الحية عامة، والإنسان خصة، حيث جعل الله منه كل شيء حى، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء:٣٠].؛ لذلك جعلت الشرعية الإسلامية الغراء حق الانتفاع بالماء مكفولاً للجميع بلا احتكار حيث يقول النبى ﷺ: «*المسلمون شركاء فى ثلاث: فى الكلأ والماء والنار*» (رواه أبو داود).

وإذا كان الله -تعالى- قد جعل من الماء كل شيء حى، سواء كان إنسانًا أم حيوانًا أم نباتًا أم غيره، فإن ذلك أدعى إلى أن نحافظ عليه؛ لأنه النعمة المهداة من الله عز وجل إلى جميع مخلوقاته حتى تستمر فى العيش إلى ما شاء الله.

والناظر فى الشريعة الإسلامية الغراء يجد أن نصوصها قد تضافرت للحث على المحافظة على موارد المياه، وحمايتها من كل العوامل التى تسبب فسادها، ومن ثم فقد نهت الشريعة عن الإسراف فى الماء، أو استعماله فى غير موقعه، أو تجاوز الحد اللائق فى استعماله حتى ولو كان بغرض الطهارة من الحدث الأكبر أو الأصغر، وكان النبى ﷺ القدوة الحسنة فى ذلك، فقد روى الإمام مسلم من حديث أنس -رضى الله عنه-: «*كان النبى ﷺ يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد*» *(رواه مسلم)*، وجاءه أعرابى *يسأله عن الوضوء (فأراه ثلاثاً ثلاثاً، قال هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم*» (رواه أحمد). وتحفل الشريعة الإسلامية كذلك بالعديد من النصوص التى تحث على حماية الماء من التلوث، فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «*لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب*»، فقالوا يا أبا هريرة كيف يفعل؟ قال: يتناوله تناولاً» (رواه مسلم)، وعن جابر -رضى الله عنه- أن النى ﷺ «*أنهى أن يبال فى الماء الراكد*»(رواه مسلم والنسائى وابن ماجه)، كما نهى عن التبرز فيه، فعن أبى سعيد

الحميرى عن ماذ بن جبل -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «*اتقوا الملاعن الثلاث: البراز فى الموارد، وقارعة الطريق، والظل*» (رواه أبو داود).

كما نهى أيضًا عن ترك الإناء بدون غطاء أو ترك السقاء بدون رابط حتى لا يتلوث ما بداخله، فعن جابر -رضى الله عنه- أنه سمع النبى ﷺ يقول: «*غطوا الإناء وأوكؤا السقاء*[1] *فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء*» (رواه مسلم).

ويتجلى حرص الرسول ﷺ فى المحافظة على نقاء الماء فى قوله ﷺ: «*إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده حتى يغسلها ثلاثًا، فإنه لا يدرى أين باتت يده*» (رواه مسلم)، وسبب الحديث كما قال العلماء هو أن أهل الحجاز كانوا يستنجون بالحجارة وبلادهم حارة، فإذا نام أحدهم عرق فلا يأمن النائم أن تقع يده على ذلك الموضع النجس أو على قذر غير ذلك[2].

فهذه الأحاديث جميعًا تنهى عن تلويث الماء بالبول والبراز؛ لأن هذا الصنيع مع قذارته وتقذذ النفوس منه، يولد أمراضًا وبائية، فهذا بول فيه بلهارسيا، وهذا فيه سكر، وهذا فيه حمى صفراء، وآخر فيه صديد، إلى غير ذلك من الأمراض التى تظهر فى البول. وهذا هو السر فى كثرة المصابين بهذه الأمراض من أبناء الريف الذى لا يتحرز أهله عن هذا الصنيع.

من هنا يتبين سر نهى الرسول ﷺ عن التبول والتبرز فى الطريق والظل والماء سواء كان جاريًا أم راكدًا؛ لأن الماء الجارى يحتاجه الناس فى شرابهم ومأكلهم ونظافتهم، فإذا كان ملوثًا بشىء مما ذكرنا، وكان هذا الشىء لإنسان مريض فلا شك فى انتقال المرض إلى من استعمل ذلك الماء الملوث. وفى حالة الماء الراكد تزداد المخاطر؛ لأن الماء الراكد بطبيعته مكان للميكروبات والذباب، اللذين يسببان أمراضًا خطيرة للإنسان.

فأى نظافة وأى وقاية وأى سلوك صحى أرقى من هذا الذى طلبه الرسول ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان.[3].

---

(١) أى غطو الطعام واربطوا قرب الماء.

(٢) "اهتمام الإسلام بالماء والنظافة"، د. عدالفتاح الشيخ، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق.

الخاتمـــة

الحمـد لله وكـفى، وصلاة وسـلامًـا على عـباده الذين اصطفى وبخـاصـة النبى المصطفى ﷺ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

أما وأن لكـل شىء بداية فإن لكل شىء كـذلك نهاية، فـسبحـان من لا بداية له ولا نهاية... وبعد:

فلقد انتهيـت من هذا البحث بعون الله ومدده وتوفيقـه، داعيًا الله -عز وجل- أن تجد الأفكار والبرامج والإستراتيجيات والتحذيرات والنداءات المطروحة فى هذا البـحث آذانًا صاغـية وقلوبًـا واعيـة، حتى تستطيع مـواجهـة التحـديات والأخطار المتـعلقـة بالميـاه والمحدقـة بنا، والتى تهـددنا وتهـدد زرعنا وضـرعنا، وحـتى يكون الإنسان هو العنصر الفـاصل فى تقرير مستقبـل المياه وليس العكس، ولن يتأتى ذلك إلا بالرجوع إلى النبع الصافى: الـقرآن الكريم والسنة المطهرة، فالناظر فيـهما يلحظ أن نصوصهمـا قد تضافرت للحث على المحافظة على موارد المياه ، وعلى حـمياتها من كل العوامل التى تسبب فسادها.

أدعو الله -عز وجل- أن يجـعلنا على قدر مسئولية اسـتخلافتنا فى الأرض، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل:١٩].

وبالله -تعالى- التوفيق،،،

* * *

الـوثـائـق

بسم الله الرحمن الرحيم

الميثاق الإسلامى للبيئة

الصادر عن المؤتمر العام السابع لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد..

فإن البيئة هى الموئل الذى يعيش فيه الإنسان، فهى تشمل الأرض التى يحيا عليها، والهواء الذى يستنشقه، والماء الذى يشربه، كما تشمل كل ما يوجد على الأرض من الأحياء "النبات والحيوان والطيور".

وقد خلق الله هذا الكون متكاملاً ومتوازناً، لا قصور فيه ولا نقص، يقول تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾[الملك:٣]، وخلق الإنسان فى أحسن تقويم وفى أجمل صورة . قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤]، وخلق للإنسان ما فى هذه الأرض يقول سبحانه وتعالى: ﴿هو الذى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩].

إن هذا الكون العظيم الذى سخر لنفع الإنسان ينبغى أن يحافظ عليه وأن لا يفرط فيه أو يشيع فيه الفساد والشر .

وإذا كانت الدول والمنظمات الدولية قد حرصت على العناية بالبيئة وأصدرت العديد من الإعلانات والمواثيق التى توضح دواعى الاهتمام بها وضرورة تنميتها وحمايتها ووقايتها من صور التلوث والأضرار المختلفة التى قد تحدث لها بفعل الإنسان غالباً، وبفعل عوامل طبيعية أحياناً أخرى، فإن الأمة الإسلامية يجب أن تهتم بالبيئة ,وأن تظهر للناس المبادئ والقيم الإسلامية التى تحافظ عليها .

ورابطة الجامعات الإسلامية، وهى المنظمة الإسلامية الدولية التى تضطلع بأمانة تطوير مناهج الدراسات الإسلامية وتعميق المفاهيم الإسلامية فى مختلف القضايا التى تهم الشعوب الإسلامية ,تجد نفسها فى محل التكليف بالنسبة لتوضيح قضية البيئة ، وإبراز المبادئ الإسلامية فيها.

لذلك عَقَدَتْ فى مقر جامعة اليرموك مؤتمراً عن (الاجتهاد فى قضايا البيئة والصحة والعمران)، وتناول الباحثون فى هذا المؤتمر مختلف قضايا البيئة، ووسائل الحفاظ عليها.

وانطلاقاً من الأهمية المتجددة لحماية البيئة ورغبة من رابطة الجامعات الإسلامية فى أن تظهر المبادئ والقيم الإسلامية التى تتصل بالبيئة وحمايتها فإن مؤتمرها السابع يقرر ما يلى:

أولاً: يجب على الإنسان أن يعـمر الأرض ويستثمـرها وينميها ويستـخرج ثرواتها ويجعل ما فيها من مـوارد لخدمة الجنس البشرى فى كل مكان، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ منْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيهَا﴾ [هود:٦١]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا في مَنَاكبِهَا وَكُلُوا منْ رِزْقه وَإِلَيْه النُّشُورُ﴾[الملك:١٥]

ويجب على المسلمين على وجه الخصوص أن يبذلوا أقصى الجهد والطاقة والعمل لاستثمار مـوارد الثروة التى حبا الله بها بلادهم، وأن يأخذوا بالأسباب التى تمكنهم من التقدم والرقى، نـيلاً لثواب الله، وإصلاحاً للأرض، وقضـاء على المشكلات التى تحيط بهم، كالبطالة والتضخم والانكماش، بعد أن تأخروا كثيرا فى هذا الميدان .

ثانياً: ينبغى أن يقوم الاستثمار والتنمية على التوسط وعدم الغلو فى إنهاك الأرض، وإجهادها حتى تستفيد منها الأجيال المتلاحقة.

ثالثاً: يقر الإسلام بحق الناس فى أن تكون البيئة التى يعيش فيها الإنسان بيئة صحية مناسبة، صالحة لحياته، مجيبة لمتطلباته، خالية من العوامل التى تؤثر على صحته، وتقلل من قدراته، وتحد من نشاطاته.

رابعاً: إن حق الإنسان فى العيش فى بيئة صحية مناسبة لا يكتمل إلا من خلال تعاون دولى تسهم فيـه مختلف الدول، تحترم المواثيق الدولية التى صـدرت من خلال مؤتمرات استـهدفت حماية البـيئة ووقـايتها من التلوث، ومنع أى أضـرار بها، ومن الواجب على الجامـعات الإسـلامية أن تتـعاون فى تحـقيق ذلك باعتـباره من التـعاون على البـر، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]

خامساً: يجب الاهتمام بالمياه باعتبارها إحدى ضرورات الحياة على الأرض، وتهيب الجامعات الإسلامية بمختلف الهيئات المسئولة فى الدول الإسلامية للحفاظ عليها ومنع تلويثها وترشيد استخدامها، والبحث عن مظانها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

سادساً: مصادر الطاقة والثروات الطبيعية من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان، ويجب العمل على الاستفادة منها لصالح الأجيال الحالية والقادمة، كما يجب أن يعم النفع بها كافة البشر بصرف النظر عن الجنس واللون، عملاً بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك:١٥]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون شركاء فى ثلاث: الماء والكلاء والنار". (رواه أبو داود).

سابعاً: يجب أن يتم التعامل مع البيئة وفقاً للمنهج العلمي الذى يوجه الإنسان إلى الاستفادة المثلى منها، ويجب بذل الجهود فى الدول الإسلامية لتشجيع البحوث والدراسات المتصلة بالبيئة ووضع أفضل الأساليب لتنميتها والحفاظ عليها.

ثامناً: الاهتمام بالدراسات الإسلامية المتصلة بالبيئة، واستخدامات المياه لصالح الإنسان والحيوان، ويذكر المؤتمر بالآيات والأحاديث التى تركز على الجانب البيئي، وكيف طبق فى حياة المسلمين، كما يذكر بالقواعد الفقهية التى تحكم حياة المسلمين، ومنها: رعاية المصالح، والتيسير على الناس، ومنع الضرر، والأمر إذا ضاق اتسع، ودرء المفاسد أولى من جلب المصالح، وغير ذلك من القواعد.

تاسعاً: مناشدة وسائل الإعلام المختلفة القيام بعمل فعال فى تنمية الوعى البيئي، وذلك بتقديم برامج مفيدة تراعي جمهور المستقبلين، وأن تتجنب الإساءة إلى البيئة الثقافية والفكرية للأمة الإسلامية بما تنشره من إسفاف يؤثر على عقول الناس وأفئدتهم، وأن تلتزم فيما تقدمه بالقيم والمبادئ الأخلاقية والدينية النابعة من رسالات الله للبشر، مع استبعاد الصور السلبية التى تضر بالبيئة بكافة الوسائل المادية والمعنوية.

عاشراً: ضرورة تطوير الخطاب الديني، وذلك بالحرص على مخاطبة الناس بقضايا عصرهم، وأن تأخذ موضوعات البيئة فى تكاملها وحمايتها الأهمية التى تستحقها فى هذا الخطاب.

ومراعاة ذلك فى دراسات كليات الدعوة والإعلام وأصول الدين والدراسات الإسلامية والشريعة، وعقد دورات تدريبية متخصصة للأئمة والدعاة فى مختلف قضايا البيئة وحمايتها.

حادى عشر: الاهتمام بوقاية البيئة بمختلف عناصرها من المياه والأرض والبحر والهواء، والاستفادة مما كتبه علماء المسلمين إلى جانب ما يقدمه العلم الحديث فى هذا المجال، فالإسلام يوجب وقاية البيئة من كافة الشرور والعدوان والتلوث الذى يحدثه الإنسان، ويؤكد المؤتمر موقف الشريعة الإسلامية من عدم السماح للملوثات والغازات والأبخرة بالتأثير على طبقة الأوزون التى تحمى الكرة الأرضية من الأشعة البنفسجية، فذلك من قبيل الضرر الماحق بالإنسان وبيئته، وهو ما تمنعه الشريعة الإسلامية.

وفى الدراسات العميقة فى مختلف كتب الفقه الإسلامي عن أهمية جودة المياه وضرورة الحرص على طهارتها ونقائها وعدم قبول العبادة الأساسية للمسلمين وهى الصلاة بغير ماء طهور، ما يفيد فى مجال التشريعات والدراسات البيئية، إضافة إلى ما فى كتب التراث فى هذه المجالات، وخاصة كتب العمران والأبنية والحفاظ على الطرق وثروة المجتمع الإسلامي المادية والمعنوية.

ويدعو المؤتمر الجامعات الإسلامية والمعاهد المتخصصة فى الدراسات البيئية إلى إبراز هذه الكنوز والاستفادة منها فى معالجة القضايا المعاصرة للبيئة.

ثانى عشر: أهمية اعتبار سلامة البيئة من عناصر الأمن العام الضرورى لسلامة الفرد وصحته، لأنه لا يمكن فصل الأمن البيئي عن الأمن والنظام العام.

ثالث عشر: أهمية تقدير مسئولية الدولة والأفراد ومختلف الشعوب عن الحفاظ على البيئة وسلامتها، باعتبار ذلك رسالة أخلاقية تدعو إليها مختلف الرسالات، مع مراعاة

أن الإسلام يجعل الجزاء على العدوان على البيئة مزدوجاً فى الدنيا والآخرة، ومع ذلك فالإضرار بالبيئة في أي عنصر من عناصرها يمثل جرائم تستوجب العقاب المناسب لزجر المخالفين، وردع الآخرين، عن الاعتداء على البيئة.

رابع عشر: أهمية تخصيص صندوق للأمن البيئي توضع فيه المبالغ التى تحصل نتيجة المسئولية البيئية لإصلاح البيئة والحفاظ عليها وتشجيع السلوكيات الحسنة والموافقة لمقتضيات سلامتها.

خامس عشر: أهمية واجب الدول فى حماية البيئة، وضرورة تبنى التشريعات واللوائح والقرارات التنفيذية التى تكفل الحماية المستديمة للبيئة على ضوء التغيرات والتطورات التى تحدث فى المجتمعات الإنسانية.

سادس عشر: أهمية دور المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية فى هذا المجال، وضرورة الاستفادة من التشريع الإسلامي فى مجال البيئة وحمايتها فى هذه المؤسسات ، وإسماع صوت الإسلام عالياً فى هذه المجالات، وأهمية ما يمكن أن تقوم به فى هذا المجال مؤسسات حماية البيئة ومختلف هيئات المجتمع المدنى، انطلاقاً من المصادر الشرعية الإسلامية .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صدر فى بيروت

فى يوم ٢ من ربيع الأول ١٤٢٥هـ

٢٢ من إبريل ٢٠٠٤م

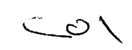


الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة
* تقديم الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية	٣
* حق الإنسان فى بيئـة صحية مناسبة أ.د / جعفر عبدالسلام	٧
* المفهوم الإسلامى للبيئة وتلوثها أ.د / على إبراهيم الزيات	٢٧
* واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية أ.د / محمود داود	٧١
* قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد وتطبيقها فى المجال البيئى أ.د / على بن عبدالله عسيرى	١٠١
* إشكالية البيئة والتنمية فى العالم الإسلامى (رؤية اجتماعية) أ.د / نبيـل السمالوطى	١١٧

تابع الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تنمية البيئة وحمايتها من منظور إسلامى تربوى	
أ.د / مصطفى محمد رجب	١٣٥
* ملوثات البيئة الفكرية (رؤية إسلامية)	
أ.د / عمارجيدل	١٦٩
* الماء : أهميته والتحديات التى تواجهه ووسائل وطرق المحافظة عليه (رؤية إسلامية حضارية)	
أ / أحمد على سليمان	٢١٥
* الوثائق	٢٤١
الميثاق الإسلامى للبيئة	٢٤٣



رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٢٣٣٦١

المركز العلمى للطباعة والكمبيوتر
ياسر الكرار
نسخ كمبيوتر - طباعة (اوفست - ماستر)
كل مايخص الطباعة تجده بين يديك
الادارة : ٢٠ ش ترعة الجلاد - القصرين الزاوية الحمراء
المطابع : ٤ ش محمود القار من المنياوى ٢٥١٠٩١٤/٠١٠ "زاوية الحمراء
☎ : ٤٢٤٠٤٦٥ محمول : ٠١٢٢٢٤٥٩٣٠